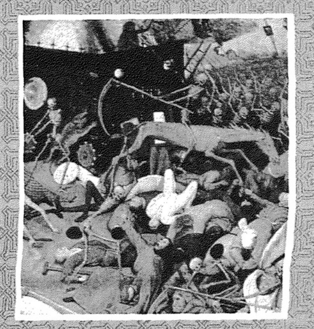


مؤسسة الكويت للتقدم العلمي
إدارة التأليف والترجمة والنشر

أمراض لها تاريخ

قراءة مرضية في سفر التاريخ



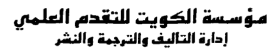
تأليف
الدكتور حسن فريد أبو غزالة

مراجعة
الدكتور شاكر مصطفى



سلسلة الثقافة العلمية
الطبعة الأولى ١٩٩٥م





أمراض لها تاريخ

قراءة مرضية في سفر التاريخ

تأليف

الدكتور حسن فريد أبو غزالة

عضو الجمعية الدولية لتاريخ الطب

باريس

مراجعة

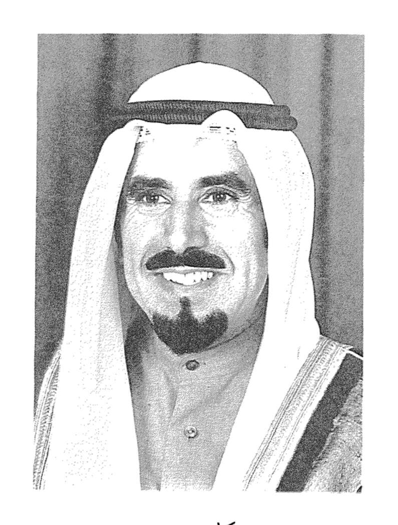
الدكتور شاكر مصطفى

أستاذ التاريخ بجامعة الكويت



«المادة العلمية المنشورة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي مؤسسة الكويت للتقدم العلمي»





حضرة

صاحب السمو الشيخ جابر الأحمد الجابر الصباح

أمير دولة الكويت



سمو الشيخ سعد العبدالله السالم الصباح

ولي العهد ورئيس مجلس الوزراء

إهـــداء

إلى البلد التي لها دين في عنقي

وموقع في وجداني

إلى الكويت أهلها وأرضها

هذا الكتاب هدية وتحية

المؤلف

فهـرس المحتويـــات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

كلمة لا بد منها

أهل التاريخ فريقان فريق يؤرخ وفريق يروي وأول الفريقين يحقق ويستنبط ويحلل ويبحث عن الأسباب والنتائج والمدلولات ، وثاني الفريقين يحكي الأحداث ويروي الروايات ليشبع الفضول ، ويقنعه الطعم ولا يتطلع إلى الفائدة ، وأمره أمر الحليات الصناعية لها طعم حلو وليس بها سعرات حرارية .

ربما كان الكتاب يعرض للوجه القبيح الكالح من التاريخ وهل أكثر قبحاً من المرض؟ !

ولكن لا حيلة لنا أن نذكر عاملاً حسم قضايا البشر في نزاعاتهم ووفاقهم فأرّخ لهم كما شاء هو لا كما شاءوا هم .

لقد كان المرض عاملاً حاسماً في كتابة التاريخ لم يحسب أهل التاريخ له حساباً فأردنا أن ننصف الحقيقة فعسانا قد وفقنا فيما ذهبنا إليه .

منذ البداية كانت قناعتنا أن للمرض موقفاً من التاريخ شاء البشر أم لم يشاؤوا ، كما كان للتاريخ من المرض موقفاً ، فأردنا أن نفك الارتباط وأن نعطي لكل ذي حق حقه فعسانا أن نكون قد انصفنا وأصبنا .

كثيرة هي أحداث التاريخ التي كان للأمراض منها وجهة نظر وقد فرض علينا اعتبارها ، فكان في درب التاريخ منعطفات وزوايا حادة يقف المرض على كل ناصية منها ، فكان أن رصدناها ما وسعنا الجهد أن نرصد ، وأملنا في الله تعالى أن نكون قد أصبنا إنه على أي حال كان اجتهاداً منا يحتمل الصواب كما يحتمل الخطأ ، فإن كنّا أخطأنا فليغفر الله لنا فما كنا إلامن ذوي النوايا الحسنة ، وإن كنا قد أصبنا فالله يؤجر كل من يصيب .

إنها لبنة أردنا بها أن تسهم في بناء صرح المعرفة والله الموفق فيما ذهبنا إليه وجزائي الكبير أنني وقفت إلى جوار أخي الأستاذ الدكتور شاكر مصطفى في هذا الجهد المتواضع .

المؤلف

كلمة قبل البدء

هل تذكر تلك الصورة المرعبة التي يصورون بها المرض والموت هيكلاً عظمياً بيده منجل ضخم يحصد البشر ويجرفهم جرفاً ؟ أعرف أنك تذكر هذه الصورة عملية منفرة ، لكن خيال الناس لم يعرف للمرض والموت صورة أفجع منها .

كان المرض على الدوام غولاً يدب في الظلمة لاتدرى من أين جاء ؟ ولا من جاء به؟ ولاكيف تسلل ؟ كان بلية ليس أكثرمنها ديمقراطية يبتلى بها البشر كافة لاتعرف لها مصدراً ولامنقلباً ، لكنها على الدوام دهليز الموت إلا من رحمة ربك !! كانت معركة مع الموت ولكن بأسلحة لم يكن يعلمها إلا الله . المرض يصيب ويردي كما شاء ، وسبيل الناس بالمقابل إلى الخلاص منه هو الأدعية والتضرع وبعض العشب أو محمي الحديد ، والناس منذ أن وجدوا يعرفون أن المرض ألوان وأنواع فهو تارة يورث الثأليل والبثور وتارة هو القيء الدموي ، أو الحمى حتى الهذيان أو صفرة تحكي أوراق الشجر أو آخر الخريف . . وقد يأتي كالسيل الجارف فيذهب بعشرات أو مئات الألوف أو يخفى فيستل من الناس فرداً بعد أخر بعد ثالث . . على الصمت وماأقل الناجين !

ويتراكض الأهل حول المريض ويتكاثر العواء ويطول ليل الأمهات وترتفع الأدعية ضراعة ورجاء . . . ولاحيلة لمحتال .

وإذا المنية أنشبت أظفارها

ألفيت كـل تميمة لاتنفع

وهكذا الجهاز البيولوجي المعقد الذي يسمونه الإنسان والذي قضى في الوجود عشرات ملايين السنين - أن لم يقض المئات - كان دوماً ومايزال يخشى الموت ولكنه يخشى أكثر من ذلك المرض قبل الموت لأنه يعرف إنه الطريق إليه . ومع أنه موقن أن الموت هو النهاية التي لابد منها لكل حي « أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة » لامهرب . فأين تذهبون ؟ فإنه يحاول الهرب ويتصور المرض وكأنه هو

الموت قبل الموت . هو الآلام التي تتقدم الغياب الأخير كما يتقدم الخريف الشتاء .

هذا الكتاب إذن « أمراض لها تاريخ » جولة مع الألم الإنساني الجسدي . هو قصة العذاب المكتومة التي لما يكتبها أحد بعد والتي كان الدخول فيها والخروج منها يجريان في الظلام في مسرح لايرى أحد فيه سوى آثاره الصفراء ! . . . على الدوام كان المرض جريمة « جباراً» تسجل ضد مجهول قتيله لاثأر له ويرحم الله المعري القائل :

يا طالباً ثأر القتيل ألم يبن

لك أن كل العالمين جبار؟

كان البشر يحاربون ، يناضلون ، يدفعون من المرض قوى مجهولة ، ولأنها مجهولة فقد كانت أكثر إرعاباً ،كما كانت تحاط بالأوهام وتحتمل الأوهام من كل شكل ولون ! وعلى الرغم من قدم المرض في البشر - ولعله وجد من قبل أن يأتوا للوجود- فقد ظل لغزاً محيراً ، واقعة من السماء ، رعباً من الرعب حتى ماقبل قرنين فقط حين انفتحت ثغرة في سور يأجوج ومأجوج الذي يخفيه ،وبدأت أسراره تتساقط وتنكشف واحداً بعد الآخر ، وسراً سراً . صحيح أن بعض الأمراض مايزال عصى السر وما ظنك مثلاً بالسرطان أو بالإيدز ؟ لكن الإنسان الذي وضع نفسه على الطريق العلمى الصحيح ، مايزال يأمل بأن تنتصر جيوش الباحثين وتكشف الأسرار العصية .

ونستطيع أن نسمي هذا الكتاب قصة ماقبل المرض وما بعده ، ولكنها قصة مقطعة الأوصال تحاول بجهد النفس أن تربط حلقاتها وترمم الثغرات . . وعبثاً ماتفعل ! إنك لن تجد إلا اللمحات الملتقطة بالمصادفة من هنا وهناك . التاريخ وأهل التاريخ للأمراض جعله من المهملات والمنسيات البعيدة حكاية طويلة طويلة مع البشر ما اهتم التاريخ بتسجيلها بعد أن اعتادها البشر ومع أنها هي نفسها تاريخ الانسان والحيوان والنبات على الأرض فقد ألفها الانسان لدرجة التناسي والإهمال فلم يسجل إلا بعض أسطرها .

وكما أن التاريخ عَفَّى النسيان على الجماهير والجموع البشرية الواسعة فهو لايذكر إلا حياة « الكبار » كبار الحكام وموجات الغزو ، وقصص البناء والدمار ، فكذلك مر على الأمراض بالنسيان لايذكر منها إلا ماإتصل بملك أو بحدث خطير أو بوباء جارف . اعتاد الناس تفجر الأمراض فيهم كتفجر الأرض بالنبات الوحشي أنواعاً وألواناً ، صارت تأكل معهم وتشرب وتنام ، لا التاريخ يأبه بتسجيلها ولاهم يدرون أنهم إنما يحملون الجراثيم والميكروبات المتناهية في الصغر التي تسبب الأمراض حيث ساروا . وما أدق هذه المسببات وما أخطر ماتسبب لهذا الانسان المخلوق الضخم الرأس العريض المنكبين ! وعلى الصمت المطبق فماذا يكتب التاريخ عنها وماذا يدع وهي مغلفة بالغموض ؟ !

قد يهجم هذا الكتاب عليك بالتشاؤم وبالغيوم السوداء فأنت من بعده متوجس خائف . ولكنْ ليس ظاهره كباطنه . قال تعالى : « قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ »[1] وفى الكتاب رجعة إلى الوراء وتذكير ببعض معاناة البشرية بالآمها . ومالم نتحدث عنه منها أعظم بكثير مما تحدثنا عنه . وإنما هي لمحات وخواطر قد تجعلك ترثى لألوف الملايين بعد آلاف الملايين ممن تقلبوا علي فرش الأدواء وانتهوا إلى المقابر قبل كشف أعدائهم « المتناهين في الصغر » والذين أوردوهم موارد الحتوف ! ولقد تشعرك ببعض العزاء على أنك ولدت بعد كشفها فأنت تستطيع تفاديها . إن ديمقراطية المرض التي كانت تسوى بين الشيخ الكبير والملك والشحاذ أمام باب الجامع قد تحولت إلى ديمقراطية الدواء والخلاص التي تكافح المرض في كل جهاز بيولوجى حي .

على أن هذا الكتاب لم يكتب إلا ليملأ الإنسان بالتفاؤل وإلا ليعزى المرضى والمصابين ويطمئنهم إلى أن رحمة الله أوسع وإلى أن ماأسماه السابقون كان شر نكالاً وأفجع عقبى . جاء ليؤكد أن ثم جيوشاً من العلماء والمحللين ، يعملون في جميع أنحاء الأرض في المكافحة ، وفي تخليص الناس من المرض والألم ولقد مرت مياه كثيرة في الأنهر منذ تنبه البشر إلى هذه الكائنات المتناهية في الصغر والخطر وإلى دورها

---

(١) سورة الحديد آية رقم(١٣)

في آلامهم . . وبدأت العيون تلاحق المكامن والزوايا . وبدأ الكشف ومع الكشف الأدوية المضادة . ولقد كشف الكثير الخطير ، ألجمت تأثيراته على البيولوجيا البشرية ومابقى فمخابر العلماء كفيلة به ذات يوم مقبل .

وهذا الكائن الذي لاتراه العين المجردة إلا بالعدسات المكبرة قد يدافع بعضه عن نفسه فيتبدل شكلاً أخر أو يبدل تأثيراته بأخرى . وقد تصدر عنه – كما يفعل الإنسان سواء بسواء – أجيال تتمتع بالمناعة على الأدوية والأمصال . ألست ترى مثلاً إلى الأنفلونزا ؟ وإلى السل ؟ وإلى الحميات ؟ ولكن طريق الخلاص في المعركة مع المرض قد رسم نهائياً ! وبقى للزمن أن يجعله من ماضي التاريخ وأيوب الإنسان لن يظل على التضرع . بل إن على هذه المخلوقات المتناهية في الصغر والتي كان يجهلها تمام الجهل . فقد أضحى أيوباً آخر ! وبدلاً من أن تجرفه هذه المخلوقات إلى القبر فإنه هو الذى يجرفها إليه .

أليس هذا هو معنى الكتاب ؟

دكتور شاكر مصطفى

الفصل الأول

الجدرى

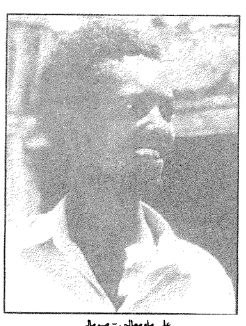


الجدري SMALL POX

الموت الذي مات

لاحيلة لنا أن نتحدث اليوم عن الجدري بمنطق الأمراض ، فليس في كتب الطب الحديث مرض يدعونه الجدري وإنما سنجد الجدري وذكرى أخباره في كتب التاريخ أو كتب تاريخ الطب على وجه التحديد ، بعد أن أعلنت منظمة الصحة العالمية عام ١٩٧٨ م خبر موت الجدري واختفاءه ورصدت جائزة قيمة لمن يعثر عليه حياً أو ميتاً ، وقد مضى على هذا الإعلان اثنا عشر عاماً ولم يتقدم أحد .

لقد قتلت منظمة الصحة العالمية وباء الجدري واغتالته مع سبق الإصرار والترصد حين طرحت الدول الأعضاء فكرة القضاء علي الجدري عام ١٩٦٥م ، ومن بعدها نظمت صفوفها وأعدت العدة ورسمت الخطة لتعميم سلاح التطعيم على كل بقاع الأرض عام ١٩٦٦م ، ثم بدأت حملة استغرقت مدة عشر سنوات بدءاً من ١٩٦٧م حتى عام ١٩٧٧م ، فكان آخر مطافها مريض صومالى شاب يدعونه على ماومعالين ولم يذكر اسم لمريض آخر من بعده .

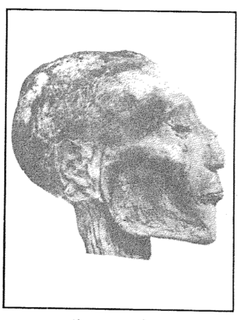


على ماومعالين – صومالى
آخر مريض بالجدرى فى العالم

هكذا كانت نهاية الوحش الذى كان يفترس واحداً من بين كل خمسة في قديم الزمان .

أما البداية فلايعرفها أحد على وجه الدقة ، من أين أتى هذا المرض ؟ ولا من أين جاء ؟ فبعضهم يقول إن منبعه الحبشة فى حين يؤكد آخرون أنها الهند ـ والله أعلم منهم جميعاً ـ غير أن الأمر المؤكد أنه مرض قديم تذكره حضارات قديمة أولها حضارة أهل مصر القدامى فقد ذكرو في

قراطيس البردى ، وترك شواهد على جرائمه منها البثور التي تملأ جثة الفرعون رمسيس الخامس المحنطة الذي مات عام ١١٥٧ ق .م عن عمر يناهز الأربعين ، وقد جرت مؤخراً عمليات للتحقق من طبيعة مرضه بل التحقق من كون الفيروس لازال حياً أم هو ميت ؟ والإغريق والرومان من جانبهم لم يتركوا لنا خبراً عن الجدري فيما تركوه من قراطيس ، ولايعقل أنه لم يسترع انتباههم لو كان موجوداً في أيام حضارتهم أو لعله كان مسالماً في ذلك الزمان . أو لعله عاش قبعاً مستوطناً في مجاهل إفريقيا وأقاصي شرق آسيا ، ولكن ضحاياه لم تسعفهم قوتهم التي استنزفها المرض ، ولم تمهلهم أعمارهم ليصلوا إلى مشارف أوروبا في ذلك الوقت الضيق ، غير أن العصور الوسطى هي التي شهدت بداية زحفه الرهيب .

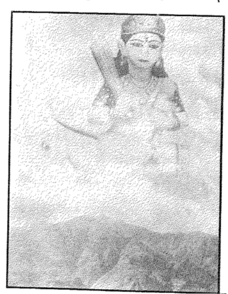


الفرعون رمسيس الخامس

وفي بقاع كثيرة من العالم وخاصة في بقاع توطن الداء كان الناس ولا زالوا ـ حتى عهد قريب ـ يؤمنون أن لاحيلة لهم في دفعه وقاية أو علاجاً لهذا آمنوا أنه قدر وإرادة إلهية بل ذهب بعضهم إلى القناعة بأن الجدرى آلهة خاصة به يتعبدونها ويطلبون رضاها ويتقون سخطها وأن هذه الآلهة تغضب وتفقد صوابها لو حاول أحدهم أن يحول دون تحقيق رغبتها .

لهذا فإن لها في كل عام ضحايا لابد أن تنال منهم حتى ترضى ، وبهذا تعم السعادة على الناس ، والخصب على الأرض ، فيهطل المطر وينبت الزرع ، ولعل هذا كان من أهم العوائق التي وقفت في طريق التطعيم العام ضد الجدري ، الذي أعلنته منظمة الصحة العالمية ، إذ كان الناس يرفضون حملات التطعيم ويخفون مرضاهم عن أعين رجال الصحة .

ففي أرض نيبال مثلاً ، وهي القابعة في أحضان جبال الهملايا شمال الهند ، هم يعبدون آلهة الجدري ويحذرون غضبها ، لهذا كان المريض عندهم يرقد على سرير خشبي ، وبجانبه سيف يمنحه القوة ، وتحته بعض الأعشاب تمنحه بركة الآلهة ، ولكن لا شيء آخر سوى انتظار الموت ، أما على حدود الحبشة حيث تقطن قبائل النوير ، فإنهم إذا ظهرت فيهم طفرة من وباء الجدري كانوا يهرعون إلى الكهنة يطلبون



آلهة الجدري في نيبال

تخليصهم من هذه المعاناة ، حيث يعتقدون أنها غضب الآلهة عليهم ، لأنهم لم يقدموا لـها القرابين الواجبة ، فيتسابقون إلى النهر ليقدموا لأم الآلهة مايرضيها من الماعز ، وهم فرحون مستبشرون راضون ثم بعدها ينزلون جميعاً إلى النهر حيث تسكن الآلهة مع أمها ، هكذا كانت تسير الأمور حتى عهد قريب .

إنه يصدق القول لو قلنا إن العصور الوسطى كانت هي سنوات العصر الذهبي لوباء الجدري في كافة أنحاء العالم .

فقد كان واحد بين خمسة يموت بسبب الجدري دون استثناء ، فقيراً كان أم غنياً ، أميراً كان أم صعلوكاً .

فقائمة الضحايا لاتحصى فمثلاً في الحرب الروسية الفرنسية مثلاً أصيب ٢٠٠ ألف بالجدري مات منهم ٢٥ ألفاً ،كما أنه في عام ١٥٢٠م عندما كان القائد الإسباني كورتيس يلاحق الهنود الحمر في المكسيك بعث لهم ببطاطين ملوثة كان يتدثر بها مرضى الجدري ، فأباد بهذا مايقدر بثلاثة ملايين ونصف من الهنود الحمر المساكين ، الذين لم تألف أجسادهم فيروس الجدري وليس لهم به خبرة أو عندهم ضده مناعة !

أما فيما بين ١٦١٧ - ١٦١٩م فقد قضى على تسعة أعشار الشعب الهندي الأحمر بسبب إصابات الجدري ، ولعل أبشع ما يروى في هذا الصدد أن مدينة تسمى أسنام أصاب الجدري أهلها عام ١٧٦٣م وكانوا يعدون ١٣٣١ نسمة فأصبح تعدادها عام ١٧٦٥ أربعة فقط وليس غير بعد أن مرت موجة الجدري من هناك . هذا لايعني أن الأوروبيين أنفسهم كانوا بمأمن من فتك الجدري ، فقد سجل التاريخ أن الجدري قد فتك بحوالي ستين مليوناً من البشر خلال القرن السابع عشر ، وأنه في بريطانيا وحدها كان تعداد الوفيات من مرض الجدري يقدر بحوالى ٣٦ الفاً في كل عام .

كان الموت يتوزع بديمقراطية عادلة جداً ؛ لأنه مرض يتساوى فيه الجميع دون تفاوت أو تمييز وكان يصاب الملك به كما يصاب العبد .

لهذا لاغرابة أن يموت ١١ من الأسرة المالكة النمساوية من الجدري خلال القرن

السابع عشر ولاغرابة أن يسجل التاريخ أن الملك لويس الخامس عشر ملك فرنسا قد خلعه الجدري عن عرشه في عز شبابه لأنه مات به ، ولاتدهش أن تسمع أن ضمن قائمة من وقعوا في شراكه وهربوا بصحبة التشوه والعمى كثيرون ، نعد منهم ولانحصيهم : فولتير أديب ومصلح فرنسا الأشهر ، وأبو العلاء المعري شاعر العربية وفيلسوفنا الكبير ، الذي سرق منه الجدري بصره ، ولكنه لم يسرق منه بصيرته ، وجورج واشنطن رئيس الولايات المتحدة الأميركية الأول ، ثم بسمارك الداهية الألماني ، وكرمويل ثعلب انجلترا الذي اخترق الحكم الملكي .

ألم نقل لك إنها قائمة طويلة لامجال لحصرها ؟ ! والطرفة التي تستحق الذكر أن العبد الذي كان يحمل علامات الإصابة بالجدري ، كان أكثر ثمناً من العبد السليم لأن الجدري كان يتخذ لضحيته أحد طريقين إما أن يموت المصاب به وإما أن يعيش محصناً ضد الموت من الجدري ، لأنه يحمل مناعة أبدية لايمكن بعدها أن يمرض ثانية ، وهنا كان أحد المنعطفات التاريخية التي سجلها تاريخ الطب في أمر وباء الجدري .

هندي أحمر

هذا المنعطف تسجله زوجة السفير البريطانى في القسطنطينية الليدي ماري مونتاجيو عام ١٧١٧م في رسالة بعثت بها إلى إحدى صديقاتها تقول :

« وعلى ذكر المرض سأقول لكم على شيء يجعلكم تتمنون لو كنتم معي هنا ، وهو أن الجدري المميت والمتفشي عندنا هو شيء لاضرر فيه بتاتاً هنا ، بعد ابتكار التجدير فهنا مجموعة من النساء العجائز يتخذن منها مهنة كل خريف في شهر سبتمبر ، إذ يتصل الناس بعضهم ببعض ليعرفوا من يريد منهم أن



من أشهر ضحايا الجدري إصابة ابا العلاء المعري

يتحصن ضد الجدري ، ثم يكونون جماعات لهذا الغرض كل مجموعة ١٥ أو ١٦ معاً ، ثم تأتي العجوز حاملة بوتقة مملوءة بالمادة ؛ وهي خلاصة أفضل أنواع الجدري ، وتسأل أيّ وريد تفضلون ؟ ! وفي الحال تفتح الوريد المفضل بواسطة إبرة كبيرة لاتؤلم أكثر من مجرد الخدش ، وتضع في الوريد ملء إبرة ثم تربط الجرح ، وبهذه الطريقة تفتح أربعة أو خمسة أوردة كل يوم ، وبعد ذلك يلعب الأطفال معاً بقية النهار ، ويظلون في صحة جيدة حتى الثامنة ، ثم تتملكهم الحمى ويلازمون الفراش لمدة يومين أو ثلاثة أيام ، ثم تظهر حوالي عشرين أو ثلاثين بثرة في وجوهم ولكنها لاتترك أثراً فيها ، وبعد ثمانية أيام يعودون أصحاء تماماً كما كانوا» .





بسمارك



الليدي ماري

هكذا كان التحصين جارياً في القسطنطينية ، ولم تحدث حالة وفاة واحدة بهذه الطريقة ، إن سعادة السفير يقول متهكماً : « إنهم هنا يأخذون الجدري كما يتجرع الناس الماء في بلاد أخرى ، ولم أعرف أحداً مات من هذه الطريقة . إن من الوطنية أن أنقل هذا الابتكار المفيد إلى بريطانيا » .

من الطريف أن هذه العملية يدعونها التجدير ، لأنها تنقل أسباب المرض الحقيقية ، مما يعتقدون أنه نوع خفيف من فيما بينهم ، ولهذا فهو مرض حقيقي غير أن التطعيم الذي أشعل ثورة في عالم الجدري صاحبه طبيب انجليزي شاب طلع به في بريطانيا اسمه «إدوارد جينر» في اليوم الرابع عشر من شهر يونيو عام ١٧٩٦م ، وله قصة

تستحق أن تروى وأن تسجل ! .

بداية القصة كان يمكن أن تجهض لولا ذكاء إدوارد جينر حين جاءته فلاحة تشكو من بثور في يديها ، وهو طالب الطب الصغير الذي لم يتجاوز ١٩ سنة من عمره فقال لها : «أخاف أن يكون هذا هو مرض الجدري» ، فأجابته الفلاحة «إن من المستحيل أن أصاب بالجدري لأني فلاحة ، وقد أصبت قبلها بجدري البقر» .

إذن فإن جدري البقرة يمكن أن يحمي من الجدري البشري القاتل !! هل هذا صحيح ؟؟ هذا هو السؤال الذي حاول جينر أن يجيب عليه في عشرين عاماً من التجربة والبحث والمراقبة بعدها .



أدوارد جينز يبتكر التطعية

وفي عام ١٧٩٦م وجد الجواب عندما قام بتطعيم طفل صغير اسمه « جيمس فيبس » بلقاح من فلاحة تدعى «سارة نيلمس » أصيبت بجدري البقر من بقرة مريضة سموها فيما بعد باسم «بلوسوم» تيمناً بها .

وفي يوليو عرض الطفل الصغير عقب شهرين للتجربة الحاسمة الحقيقية وهو مرض الجدري البشري ، فاجتاز الطفل الصغير الامتحان بنجاح، وتخطى العقبة ولم يمرض أبداً .

فحق لجينر عام ١٧٩٨م أن ينشر بحثه الذي رفضه المجتمع البريطاني في وقتها، كما رفضت الأكاديمية العلمية أن تنشره في مجلتها ، بل اضطهده القوم ولاحقوه، ولكن العالم خارج بريطانيا بأكمله حيى الرجل واستقبله بالأحضان حتى أن امبراطورة روسيا « اليزابيت اليكسيفا » زوجة « الاسكندر الأول » أرسلت لجينر خاتماً به ماسة كبيرة تحية له وإكباراً كما أمرت بتطعيم الأطفال في كافة أنحاء الإمبراطورية . وكان أن أطلقت اسم « فاكسينوف » على أول طفل جرى تطعيمه ، وسار في موكب حاشد داخل عربة ملكية عبر شوارع بطرسبيرج !

وكذلك أمر نابليون بونابرت بتطعيم كل جيشه، ومع هذا فلم يصدر قانون التطعيم في إنجلترا وهي بلد جينر إلا عام ١٨٤٠م ، ولكنه تطعيم غير إجباري يعفى منه كل من يدعي إنه غير مؤمن بفكرة التطعيم .

إن الضربة القاضية في حلبة الجدري . مع الإنسان ، كانت من خلال الحملة التي نظمتها منظمة الصحة العالمية عبر عشر سنوات متواصلة من تعميم التطعيم لكل إنسان على وجه الأرض، بدءاً من عام ١٩٦٧م حتى ١٩٧٨م ، فقد بدأت والوباء منتشر في

٤٢ بلداً وعدد ضحاياه يقدرون بمليونين ونصف المليون وانتهت بالرقم صفر .

لعلنا لم نعرض لمرض الجدري لأنه لايوجد اليوم مرض باسم الجدري ، ولكن لابأس بأن نتعرف على ملامح الوحش الذي مضى وولى .

فالجدري من أمراض الفيروسات البشرية ،لأنه لا يصيب إلا الإنسان ، فكل حيوان جدري خاص به ، وفيروسه سهل الانتقال عبر الملامسة أو التنفس ، ثم يتشكل بعدها على هيئة بثور في الوجه والأطراف ، مما قد يختلط مع مرض آخر يدعونه الجدري الكاذب أو الجديري أو جدري الماء، وهذا مرض ضعيف يشيع بين الأطفال بأكثر مما يشيع بين الكبار ، ويصيب البدن أكثر مما ينتشر على الأطراف ، ولكنه مرض آمن ضعيف على أيه حال ، فيما الجدري شرس قاتل ، أو هو معوق قد يؤدي إلى الموت أو التشوه إذا لم يذهب بصاحبه .



نابليون بونابرت

وعلى قدر مايفشل معه أي علاج فإن الوقاية منه بالتطعيم ناجحة إلى حد الكمال أو هي قريبة منه . لهذا نجحت منظمة الصحة العالمية عندما أحكمت خطتها وحرصت على دقة تنفيذها وذلك بتعميم التطعيم على الجميع .

ومات المرض المميت !وأصبح ذكره على ألسنة المؤرخين بعد أن خفت على ألسنة الأطباء واختفى إلى الأبد بلا عودة .

الفصل الثاني

الطاعـون (١)

الطاعون (١) PLAGUE -1

الموت الأسود

قصة زامر الحي من أدب الأطفال الألماني كتبها شاعرهم «روبرت براوننغ» عام ١٢٨٤م، عن زامر فقير يعزف على الناي ألحاناً سحرية تجتذب انتباه الجرذان فتتبعه وتلحق به إلى حيث سار، وكان أن مر يوماً بقرية صغيرة اسمها «هيميلين» Hemilen فعرض على أهلها أن يخلصهم من مشكلة الجرذان التي عاثت في القرية فساداً، وأعملت فيها تخريباً، فاتفق أهل القرية مع الزامر على قدر من المال يدفعونه له إذا ماتم الأمر وانتهى على أكمل وجه.

وهكذا فقد عزف الزامر على الناي ألحاناً خاصة، فإذا بالجرذان تخرج من جحورها وتتبعه إلى حيث سار نحو نهر الفيزر Waser القريب، فغرقت فيه جميعها وماتت كلها.

وعندما طالب الزامر أهل القرية بأجره المتفق عليه تنكر له القوم، وأنكروا عليه أجراً باهظاً مقابل عمل سهل بسيط، فما كان من الزامر الغاضب إلا أن عزف ألحانا أخرى سحرية فإذا أطفال القرية جميعا يلحقون به، فما كان منه إلا أن سار بهم إلى حيث كهف يسمونه «كوينبيرغ» فدخلوه وراء الزمار إلى غير عودة. ومازال أهل قرية «هيميلين» ينتظرون عودة أطفالهم منذ ذلك الوقت ولكن هيهات . . .!!

القصة قد تبدو خرافة صاغها خيال شاعر، ولكنها دون شك تعبر عن معاناة الناس في ذلك الزمان من واقع يعيشونه بسبب انتشار الجرذان وفوعتها، فهي إذن ليست خيال شاعر على ماقد يتوهم البعض، وإنما هي واقع صيغ بصورة خيال . . .

كانت الجرذان في القديم تشكل بالنسبة للناس قضية تفاوتت مواقفهم منها بين القبول بالواقع والقناعة، وبين الرفض ومحاولة الخلاص، ثم صاغوا قناعاتهم بصور مختلفة تتراوح بين الكراهية لها والخوف منها، وبين التقديس والرهبة!

لهذا فقد نجد اتباع «زرادشت» في فارس يكرهون الفئران كراهية عمياء ، لأنها تعيش في الظلام ، ويعتقدون أن في قتلها خدمة لله ورضاء الرب إله النور !

أما اليهود القدامى فعندهم أن أنواع الفئران سبعة كلها نجسة ولا يجوز أكلها بعد أن حرّمها الرب !

وكان الهندوس في أرض الهند يؤمنون بإله اسمه «ردرا» هو إله الحياة والموت عندهم ، لهذا فهو مسؤول عن الأوبئة الفتاكة ، ويعتقدون أنه قد اتخذ من الجرذان جنودا أوفياء ، فإذا ماشاهد الهندوس أفواج الجرذان الميتة دب فيهم الذعر ، وعَدُّوا ذلك نذيراً بالموت وحملوا متاعهم ورحلوا إلى الريف هرباً ،وسكنوا أكواخا يقيمونها هناك في الخلاء . . . الهندوس يهربون خوفاً من غضب الرب وليس خوفاً مما قد يحمل الجرذان إليهم من نذر . . وهذه النذر ماهي إلا . . . الطاعون .ولكن أحداً في القديم لم يكن يربط بين الجرذان والطاعون وكان الهندوس بمنجاة دوما من الوباء بسبب الهرب على خلاف الطوائف الدينية الأخرى المؤمنة بالقضاء والقدر والذين يحل بهم الوباء على هيئة الطاعون فيستسلمون له ! ولا تخطر في بالهم أبداً أفواج الجردان ! فما علاقة هذا المرض القاتل؟


الطاعون

أما الإغريق فكان عندهم إيمان بالإله «أبولو» فهو إله الفنون ، من شعر وموسيقا ، وهو إله الشفاء . أيضاً فهو الذي يحميهم من الأوبئة ، ومنها الطاعون فقد كان يقتل لهم الجرذان .

ولم يخرج مسيحيو القرون الوسطى عن درب القناعة، بأن هناك قديسة اسمها «جيروود» هي ملاذهم التي يستشفعون بها عندما تحل بهم محنة ، أو تنزل بهم نازلة ، وهي التي تكفيهم شر الطاعون وشر الجرذان معه .

الفأر حيوان ذكي جداً ، وهو الأقرب والأكثر شبهاً بالإنسان من الحيوانات كافة ، إذ يقولون عنه : إنه حيوان يستفيد ولا يفيد غيره إطلاقا كما هو الإنسان تماماً إلا لمصلحته ! والفأر حذر جداً لا يأمن لطعام يثير شكه أو ريبته . وحيث إن الطبيعة والإنسان يتآمران ضده فهو يحتال على هذا التآمر بكثرة التناسل ، فلو تصورنا زوجين من الفئران توالدا ثم توالد أولادهما وأحفادهما من بعدهما ، فإن الذرية سوف تتعدى ١٥ ألفا من الجرذان خلال عام واحد إذا لم يقتل أحدهما أو يموت .

ومما يقال إنه مقابل كل إنسان واحد على وجه الأرض يوجد فأر واحد ، ولكن عدم العدالة في التوزيع جعلت عشرة فئران مقابل إنسان واحد في الهند ، وفأراً واحداً مقابل كل اثنين من البشر في الولايات المتحدة !

فإذا أخذنا بإحصاء يذكرونه نجد أن خسارة الولايات المتحدة سنويا بسبب الجرذان تقدر بما بين ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ مليون دولار . فكم تكون خسارة أهل الهند ياترى؟

غير أنهم في الأونة الأخيرة وخلال التجارب النووية التي أجرتها الولايات المتحدة الأميركية عقب الحرب العالمية الثانية على جزيرة صغيرة نائية في المحيط الهادي تدعى «انجيبي» وجدوا أن الفأر يتمتع بالمقاومة والمناعة ضد الإشعاعات النووية ، حيث إن الجزيرة لايسكنها إلا شوارد القوارض ، ووحشي الحيوانات ، ولاينبت على أرضها سوى الحشائش البرية .

لقد أبادت القنابل النووية كل معالم الحياة على الجزيرة ، ولم يبق منها إلا الجرذان التي يبدو أنها احتمت بجحورها ، حتى أنها استحقت اللقب الذي أطلقوه عليها وهو «كلب الشيطان المدلل» .

غير أن الفأر ما إن ذكر اسمه اليوم عبر كل زمان ومكان ، فإن اسم الطاعون يقفز إلي الذهن مرادفاً له ، ويستحيل أن يغيب عن الذاكرة البشرية لما تركه من بصمات على تاريخ البشر عبر كل العصور .

وعلى الرغم من الأمراض العديدة التي ينقلها الجرذ إلى الإنسان ، فإن الطاعون

يطغى عليها جميعا رغم انحسار موجة الطاعون وانحصاره في بؤر صغيرة متناثرة في جنوب شرق آسيا ، وبعض من أواسط أفريقيا ، لهذا لا يشكل اليوم خطراً يستحق الهلع ، بل ربما كان طبيب اليوم يسمع بالطاعون ولكنه لا يراه إلا من خلال مصورات كتبه الطبية التي يطالعها !

من المؤكد أن إنسان العصر الحجري وإنسان الغابة القديم الصياد لم يألفا أوبئة الطاعون ، إذ ليس في بيئة أحدهما من مقومات الوباء ما يتوافر في البيئة الحضارية التي يؤرخون لها منذ عشرة آلاف عام ضمن مليون عام عاشها الإنسان على وجه الأرض ؛ لأن وباء الطاعون لابد أن تتوافر له من أسباب الاستقرار والعمران والاجتماع مايكفل للفأر عِشرة حميمة مع الإنسان ، ودائمة حتى ينقل له الداء .

لهذا يمكن القول إن وباء الطاعون ربما بدأ مع بداية وجود الإنسان المزارع الذي فرضت عليه الزراعة استقراراً أدى إلى قيام مجتمعات حضارية تعيش فيها الجرذان إلى جانب الإنسان .

ومن العسير على أي متابع لمسار الطاعون أن يحدد له تاريخاً لولادته ، أو أن يرسم له شكلاً ، إنما الشواهد هي التي تحكي لنا وترسم .

وقد تركت الكتب المقدسة لليهود فيما تركت نبأ معاناة الفلسطينيين من وباء أصابهم أيام ملك اليهود «صموئيل» عام ١٣٢٠ ق .م لأن الرب قد انتقم منهم (على حد زعم اليهود) لأنهم سلبوا التابوت المقدس فظهرت عليهم أورام في أماكن سرية من أجسامهم عقاباً لهم على فعلتهم . وحين ذهب بعضهم إلى تفسير هذه الأورام السرية قال إنها ربما كانت بواسير وهو أمر لا ينسجمْ مع المنطق الطبي السليم ، إذ لا يعقل أن تنتشر البواسير على هيئة وباء ، وإنما الأصح أن يكون هو الطاعون الدملي في أعالي أفخاذهم بسبب تضخم والتهاب العقد اللمفاوية الإربية ، هذا إلى أن الفلسطينيين كانوا من سكان السواحل . والطاعون أمره معروف بين سكان المدن الساحلية بسبب السفن التي تجلب لهم ركابا مرضى وجرذانا مريضة . وقد يكون هذا هو أول الأوبئة التي رصدها التاريخ وسجلها وأوصل إلينا أخبار الطاعون .

والوباء الذي سجله لنا التاريخ دونما أي تفصيل هو ما أصاب أهل ليبيا ومصر وسوريا عام ٢٠٠ ق .م ،أما الوباء الذي وصلت إلينا تفاصيله وكان منعطفاً في تاريخ الإمبراطورية الرومانية الشـرقية وخذلانهـا أمـام الغـزاة فهـو ماعـرف باسم طاعون جستنيان .

طاعون جستنيان

جستنيان هذا هو الامبراطور البيزنطي «جستنيان الأول» الذي اعتلى عرش بيزنطة فيما بين سنتي ٥٢٧ – ٥٦٥م وكان من معالم حكمةبناء كنيسة أيا صوفيا الفخمة والتي تقوم اليوم في مدينة «اسطنمبول» مسجداً يؤمه السواح من كل حدب وصوب ، بعد أن فتح السلطان محمد الفاتح هذه المدينة سنة ١٤٥٣م وجعلها عاصمة ملكه .

غير أن التاريخ يذكر لجستنيان الأول ماهو أهم من بناء كنيسة فخمة لأن سنوات حكمه تميزت بالإفلاس وسوء الإدارة والفساد السياسي ، بل وكثرة الفتن والقلاقل ، ولكن الأهم من هذا وذاك ، هو انتشار وباء الطاعون على أوسع نطاق ، واجتياحه بلاداً عديدة حتى أنه أصبح علامة مميزة في التاريخ السياسي والتاريخ الطبي ، على السواء إذ يقولون عنه إنه كان أحد عوامل انهيار الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) وزوالها !

ومما يرويه لنا مؤرخ من البلاط الإمبراطوري لجستنيان الأول اسمه «بروكوبيوس» عن هذا الوباء وهو الشاهد العيان :(بدأ الوباء بأرض مصر قرب قرية «بلونويم» عام ٥٤٠– هي قرية الفرما حاليا – لقد بدأ سريعاً في كل مكان وكل أرض وكل أمة وكل إنسان بل ، وكل عمر وجنس ، ثم سار عبر أرض فلسطين نحو بيزنطة ، فوصل إليها في العام التالي فصارت تظهر للناس أشباح على هيئة آدمي ، يضرب الناس على رؤوسهم فيصيبهم بالمرض ، ومن كان منهم لا يقابل الشبح في الطريق أو كان يعتصم في بيته يظهر له الشبح في منامه ليقول له لقد اختارك الموت) .

ثم يستطرد «بروكوبيوس» في الحديث فيقول :

(بقي الوباء أربعة أشهر في بيزنطة ، وكان يموت خلالها في كل يوم مابين خمسة

إلى عشرة آلاف إنسان ، لهذا ضاقت القبور ، وشح عدد الحفارين ، وصارت أجورهم باهظة ، ولهذا عمد الناس إلى نزع الأسقف من أبراج القلاع ليملأوها بالجثث ثم يعيدوا السقف حينما يمتلأ البرج ،وما إن انتهى المرض حتى انتشر الفساد والإباحية ، وكأن المرض لم يترك من الناس إلا الفاسدين فقط) .

تقرير بروكوبيوس طويل ولكنه جملة يصف معاناة تستحق التسجيل حين يقول :

(إن الناس كانوا يصابون بالحمى وهم نيام أو ربما وهم يعملون ، ثم تظهر دمامل في أعلى الفخذ لا يعيش معها الإنسان إلا أيام معدودات ، ويموت بعدها فلا يجد من يدفنه ، لأن الأحياء كانوا أقل من الأموات . فالمدن قد أقفرت من سكانها ، والقرى خلت من أهلها ، والحقول لا تجد من يعنى بها ،ولم يبق سوى الفقر والمرض والموت) .

هذا ما كتبه شاهد عيان ولكن التاريخ كتب شيئاً آخر . .إذ دون في قراطيسة أن طاعون جستنيان عمَّر ما بين خمسين إلى ستين عاماً كانت الإمبراطورية خلالها كلها تحت رحمته .

طاعون عمواس

كان ذلك أيام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، في عام يقدرونه بحوالي ٦٤٠م ، حين كانت جيوش المسلمين المتتابعة في غزواتها لأرض مصر والشام تتصدى لجيوش الروم هناك ، يقودها أبو عبيدة بن الجراح .

«وعمواس» هذه هي مدينة صغيرة متواضعة من مدن فلسطين ،لم يكن لها شأن في التاريخ ولا ذكر إلا عندما داهم وباء الطاعون جند المسلمين المعسكرين هناك ، فأصاب منهم من أصاب ، وقتل من قتل مما قدروهم بخمسة وعشرين ألف شهيد لداء الطاعون وليس شهيد قتال . كان من ضمن هؤلاء بعض قادة المسلمين الكبار وعلى رأسهم أبو عبيدة نفسه ،ومعه يزيد بن أبي سفيان ومعاذ بن جبل ، ومنهم أيضا الحارث بن هشام الذي كان يرافقه سبعون من أهل بيته ، أصيبوا وماتوا جميعاً باستثناء أربعة منهم فقط .

والقصة التي تروى في هذا الصدد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب تستحق أن ترصد هنا ، ففيها عبرة وعظة ، وفيها دلالة على عظمة عمر بن الخطاب واتساع أفقه ، إذ أنه كان قد عزم على أن يتفقد جيوش المسلمين المحاربة في الشام ، فتوجه إلى هناك مع جمع من المسلمين ، حتي إذا ما بلغ موضعاً من تبوك لقيه بعض أجناد المسلمين العائدين من الشام ، فأخبروه بما صار إليه حال الجيش من سوء وبلاء ، فماكان من عمر إلا أن جمع من معه من مهاجرين وأنصار ،ليستفتيهم في الأمر إذا ماكان عليه أن يواصل المسيرة أم يرجع .

وبعد أخذ ورد قرر عمر أن يرجع إلى المدينة ، فقال لهم : «أني راجع فأرجعوا» .

وما إن سمع أبو عبيدة بالذي صار حتى قال لأمير المؤمنين : «أفراراً من قدر الله ياعمر»؟

فأطرق أمير المؤمنين رأسه ملياً ثم أجاب :

«لو غيرك قالها ياأبا عبيدة !! .

نعم هو فرار من قدر الله ولكن إلى قدر الله» .

ومازالا يتجادلان حتى أقبل عليهما عبد الرحمن بن عوف وقد سمع بالخبر فقال :

«عندي من هذا علم . . . لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول :

إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً» .

بعدها عاد عمر إلى المدينة ، ولكن أبا عبيدة واصل المسيرة إلى الشام ليصاب هناك بالداء ويموت منه .

• طاعون لويس التاسع

«لويس التاسع» هو ملك فرنسا صاحب الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة على أرض مصر وتونس ، ولكنه عند قومه من الفرنجة هو ملك عادل وبطل مغوار ورجل زاهد ،لهذا استحق في تقديرهم أن يرفعوه إلى مرتبة القديسين . كان هذا عام ١٢٩٧م

.

حين أعلنوه القديس لويس ، وهو يحتفلون بعيده في اليوم الخامس والعشرين من شهر أغسطس من كل عام !

الملك لويس التاسع هذا هو الذي قاد عام ١٢٤٨م جيوشه لغزو مصر ، فاحتل مدينة دمياط ، وتقدم لاحتلال مدينة المنصورة ، فتصدت له جيوش المسلمين أيام حكم الملك الصالح الأيوبي وزوجته شجرة الدر .

ولكن التاريخ يذكر أنه كانت تساندهم جيوش من الجرذان قضمت دروع الملك ومتاعه ! ثم جاء فيضان النيل فتورط الفرنجة في وحوله ، وكانت مصيدة لا للفئران ولكن للملك وجيوشه ، ووقع لويس التاسع أسيراً في يد المسلمين الذين سجنوه في بيت القاضي «ابن لقمان» بالمنصورة عام ١٢٥٠م إلى أن افتداه قومه بمال وفير وأطلق سراحه ، ولكن الملك لويس التاسع عاود الكرة مرة أخرى ولكنه اتجه في حملته الصليبية الثامنة نحو تونس ، ليلقى هناك ماهو أشد من فئران مصر ، إذ كانت الفئران التونسية مريضة بالطاعون ، فأصابت الملك وجنوده بالداء ، فمات لويس وعاد من لم يمت من الجنود إلى فرنسا يجرون ذيول الخيبة ومعها الهزيمة والمرض أيضا !

ربما كانت هذه الكارثة الوبائية هي بداية النهاية لحقبة الحروب الصليبية التي تخلخلت من بعد لويس التاسع هذا عندما كتب الطاعون سطورها الأخيرة .

على أننا اقتصرنا في هذه العجالة السابقة على بعض الطواعين . .ولو تتبعناها لوجدناها سلسلة متصلة لاتنتهي،ولدى كل قوم منها أخبار بعد أخبار ، التكاثف السكاني في المدن الكبيرة خاصة كان يعطي الفرصة على مايظهر ، لكي ينتشر الطاعون بين الفينة والأخرى ، وليجرف مايجرف من الناس إلى القبور . .وبلادنا العربية مابين مصر والشام والعراق طالما عانت منه ثم عانت . لو أخذنا قطعة من تاريخها محدودة لوجدناها رعباً متصلاً مخافة الطاعون القاتل ، ولتكن هذه القطعة العصر المملوكي بين ٧٠٠-٩٠٠ للهجرة أي سنتي ١٣٠٠ إلى ١٥٠٠ للميلاد فالتاريخ يذكر لنا مثلاً :



الطاعون الموت الأسود

في سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٥م جاء وباء وقحط وجفاف شديد أصاب مصر حتى أكل الناس الجيف ، وكانوا يشيعون ١٥٠٠ جنازة في اليوم يدفنون في حفر جماعية ! .

وفي سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤١م بدأ الطاعون العالمي الأعظم من أواسط آسيا والصين والهند ، ثم انتقل غرباً إلى العراق والأناضول والشام ومصر وشمال أوروبا كلها ، وبلغ أوجه سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م فكان الطاعون الذي جرف ربع البشر ولم يسمع بمثله في سائر الدنيا ، وماتت حتى الطيور والوحوش والكلاب ، ومات الكثير من أهل العلم ، وفرغت بلاد عديدة بسببه مثل غزة وجنين وصفد والكرك ونابلس عدا بلدان مصر وبلاد الشام والعراق . . دام هذا الطاعون ثلاثمائة سنة يستفيق مرة هنا ومرة هناك . . . ويجرف معه مايجرف ، تكرر سنة ٧٦٢هـ وسنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦١م - ١٣٦٣م ثم تكرر سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٧٢م في الشام ، ودام الوباء ستة أشهر حتى بلغ الموتى في كل يوم مائتي نفس ، وفي حلب باع المقلون أولادهم وأكل بعضهم ولده ، وفنى الكثيرون حتى كان يدفن العشرة والعشرون في قبر واحد بغير غسل ولا صلاة ، دام ذلك في الديار الشامية ثلاث سنين ! ثم عاد مرة أخرى حتى بلغ الموتى كل يوم ألف نفس وهلك بدمشق في شهر واحد خمسة آلاف ! .

واستمر الطاعون يعود ثم يعود إلى الشام ويبقى في كل مرة سنوات ثم عاد

الطاعون إلى مصر والشام والعراق سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م وبلغ الطاعون إيران فلم يبق فيها إلا مانذر ، كما بلغ المغرب كله وأحصى من مات في شهر واحد فكانوا ستة وثلاثين ألفاً وكادت البلاد تخلو من أهلها . . .

وفيما بين سنتي ٨٢٥هـ- ٨٢٦هـ عاد الطاعون إلى الشام كله حتي بلغت جملة من مات في أيام يسيرة ، يزيد على خمسين ألفاً وامتد الطاعون إلى دمياط ، وفي سنة ٨٣٣ هـ عاد فضرب الشام حتي قال أحد المؤرخين إن مركباً خرج بخمسين نفساً من القاهرة فما وصل إلى الصعيد لأن جميع ركابه أخذهم الطاعون ! .

وعاد الوباء فشمل بلاد المسلمين والكفار على السواء ، ومات به من لا يحصى كثرة ، وفشا في إيران فبلغ عدد من مات ، هناك ثلاثمائة ألف ، وفشا في اليمن فأخذ معظم أهلها ، وفي المغرب فعل مثل ذلك هل نتابع الأخبار؟ لقد عاد الطاعون إلى الشام ومصر والعراق سنة ٨٤١ هـ وسنة ٨٤٨هـ وسنة ٨٦٤هـ وسنة ٨٧٢هـ وقبل أن ينتهي القرن التاسع ، وفي سنة ٨٩٧هـ كان الطاعون العام الذي شمل أرض البشر كلها والذي لم يسمع به أحد يغزو - كما قالوا - ربع سكان الأرض أو مايزيد على ذلك . . . واستمر يثور ويخبو سنوات طويلة بعد ذلك . مع ذلك فهذا قيض من فيض أصاب منطقة واحدة من الأرض خلال فترة قرنين ، فماذا لو جمعنا إليه أوبئة الطاعون المحلية الأخرى من أقصى أندونيسيا والصين إلى أقصى أوروبا؟ أليس يحق للبشر أن يصيبهم الرعب إن ذكرت كلمة الطاعون .

على أي حال فالطاعون في الأزمنة السابقة كان يحتكر لقب الوباء فلا وباء إلا الطاعون ولا طاعون إلا الوباء ، لهذا كان الاسم العلمي المعبر عن ميكروب الطاعون هو ميكروب الوباء لان «Pestes» بستس التي تلحق باسم الميكروب تعني في اللغة الأعجمية اسم الوباء ، وحتى منظمة الصحة العالمية عندما تراءى لها تغيير اسم الميكروب المسبب للطاعون عام ١٩٨١م من «Yersina Pestes» أي وباء «يرسن» وهو اسم مكتشف الميكروب السويسري أو باستيوريلا بستس «Pasteueall Pestes» استبدلت اسم ميكروب وباء السل الكاذب «Pseude Mycobecterium» مؤكدة أنه الوباء ولا وباء غير الطاعون ! .

الفصل الثالث

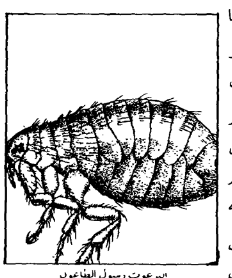
الطاعـون (٢)

الطاعون (٢) PLAGUE - 2

الموت الأسود

الخط البياني لأوبئة الطاعون رسم متذبذب يتراوح بين الفوعة الشديدة والسبات العميق، يهب فيكتسح بقعة من الأرض، ثم ينام إلى حين يستيقظ كرة أخرى!.

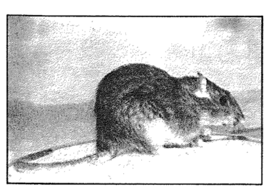
فوعات الطاعون كانت تستظل دوماً بمظلة الجهل الذي لم يميز الإنسان خلاله طريق الخلاص وقاية كان أو علاجاً؟ فيما ذهبت أوبئة الطاعون في دور النوم حين كشف الإنسان سرها وعرف أن الطاعون هذا ليس من أمراض الإنسان في الأصل، إنما هو من أمراض القوارض التي يتزعمها الجرذ، وعندما تموت الجرذان بسبب وباء يصيبها فلا تجد براغيثها فيما حولها جثة دافئة تمتص منها الدم، فتقفز إلى أقرب إنسان إليها ليكون هو الضحية الأولى في عالم البشر! ومن ثم يتولى المهمة بعد ذلك برغوث الإنسان الذي يتخثر الدم الملوث في معدته فتنسد فلا تحتمل امتصاص مزيد من الدم، فيتقيأ دماً يزخر بالميكروبات المرضية وكأنه بهذا يحقن ضحيته بالجراثيم، فيكون مايسمى بالطاعون الدملي الذي يتشكل على هيئة أورام متقيحة في أعلى الفخذ أو تحت الإبط، والبرغوث في هذا يزداد جوعا وجنوناً بسبب معدته المسدودة، فيزداد المرض انتشاراً، ولكن الأخطر من الطاعون الدملي هو الطاعون التسممي الذي تسبح فيه الميكروبات في دم ضحيتها فيموت لا محالة.



البرغوث رسول الطاعون

والأخطر من هذا وذاك هو الطاعون الرئوي الذي تصل فيه الميكروبات إلى الرئتين فينفثها المصاب في هواء زفيره، ولعل هذا هو أخطر أنواع الطاعون شدة و فوعه، وهو

مايصير إليه الحال في الأوبئة الكبرى . . . ولكن الناس كانوا لا يعلمون بل هم يموتون فقط . . . وبعضهم كان يتقي المرض بتغطية أنفه . . . ولكن هل كانت التغطية وقاية كاملة؟ وما علاقة ذلك بالجرذان؟ ظاهرة الوباء الذي يفتك بالجرذان قبيل فوعته بين البشر هي ملاحظة قديمة جداً ، تعود إلى عام ٥٠ قبل الميلاد ، حين لاحظ «سترابو» في أسبانيا هذه الظاهرة الغريبة ، ولكن لم يعرها أحد أي اهتمام منه إلاطبيبنا الإسلامي الكبير ابن سينا ،الذي أدلى بدلوه هو الآخر بل وكان أقربهم إلى الصواب حين وصف الجرذان وهي تخرج من جحورها مترنحه لتموت في الطرقات ، وهذا يكون نذير شر مستطير يسبق المرض الفتاك والموت الزؤام لأنه مقدمة الوباء ، على أية حال فالأمر لم تتضح معالمه إلا مع إطلالة القرنين التاسع عشر والعشرين حين اكتشفت الحلقات المفقودة الفأر - البرغوث - الإنسان .



قبل هذا كان يعم البلاء ويسود الدمار مما استحق معه الوباء أن يحمل اسم الموت الأسود .

كيف ولماذا يكون الموت أسود؟ بعضهم يقول لعلها ترجمة خاطئة لمعنى شديد فجرى على اللسان خطأ شائعاً ، وآخرون يعزونها إلى بقع سوداء تملأ الجلد إثر النزيف . . . لايهم فهو موت أكيد على أية حال مهما كان لونه . ولكن أهل العصور الوسطى لم يجدوا في جعبتهم سوى تلوين الأمراض ، فكان الموت الأسود للطاعون ، وكان الموت الأبيض للسل ، والموت الرمادي لمرض الزهري وهكذا لأمراض دفعوا ثمنها ضحايا وهم لا يعرفون لها سراً ، وكما قال الشاعر :

من لم يمت بالسيف مات بغيره   تنوعت الأسباب والموت واحد

غير أن الذاكرة البشرية إن نسيت فلا يمكن لها على الإطلاق أن تنسى الموت الأسود الذي عم العالم قاطبة في القرن الرابع عشر ، وحكم أوروبا ثلاثمائة عام

متواصلة ، أباد فيها ربع سكانها بما يقدرونه بخمسة وعشرين مليونا من البشر دفعوا حياتهم قرباناً لهذا الشيطان عدا ملايين أخرى ربما هربت من براثنه ولكنها دفعت الثمن معاناة وعذابا ، يقدرهم المؤرخون بثلثي سكان أوروبا كلها عدا سكان باقي العالم من حوض البحر المتوسط إلى بحار الصين البعيدة ! .

الطاعون الأعظم

كانت البداية عام ١٣٤٣م حين كان جمع من تجار «جنوا» قادمين من أرض الصين ، يحملون معهم بضائعهم من الحرير والتوابل على ما اعتاد عليه تجار إيطاليا في ذلك الزمان ، فإذا بفرقة من جند التتار تلاحقهم طمعاً فيما حملوا ، فلم يجدوا لهم بداً من الالتجاء إلى ميناء «كافكا» القريب من شبه جزيرة القرم على ساحل البحر الأسود ، وكان أن حاصر جند التتار مدينة «كافكا» ثلاث سنوات متواصلة ، ولكن دون جدوى ، وماهو إلا يوم توقف فيه التتار فجأة عن رشق المدينة بالحجارة بواسطة المجانق لكنهم بدأوا بدلاً منها يرشقونها بالجثث الميتة بسبب الطاعون .

ربما كانت هذه أولى صور الحرب الميكروبية في التاريخ ، ثم رحلوا بعدها وفكوا الحصار بعد أن أباد الطاعون منهم الكثير ، غير أن أهل مدينة «كافكا» أصابهم الذعر الشديد والهلع ، فما كان من التجار الطليان إلا أن اعتلوا سفنهم الثلاث الباقية ، ورحلوا إلى بلدهم «جنوا» .

لقد كانوا آلافاً مؤلفة ، ولكن الذي وصل أهله سالما هم عشرة فقط من هذه الألاف ! ! ولكن أهل «جنوا» رفضوا استقبالهم ، فحمل بعضهم متاعه إلى مرسيليا وآخرون إلى أيسلنده والبقية إلى جهة لم يعلمها أحد . . ربما ماتوا في الطريق . . . لا أحد يدري سوى الله ؛ لهذا لا عجب أن عمت الكارثة كل أوروبا عام ١٣٤٨م ، وماهي إلا ثماني سنوات فقط حتى كان الموت قد حصد منهم ٢٥ مليونا حتى أن محررا في النشرة الإيرلندية كان اسمه «جون كلاين» كتب يقول في نشرته :

(لقد أقفرت المدن والقرى ، فلا تجد أحداً من أهلها ، لأن بعضهم مات من الدمامل

«طاعون دملي» وبعضهم الآخر كان يبصق دما «طـــاعـــون رئوي») .

Carts full of dead to bury.

الأجراس تقرع عند دفن الضحايا نقل الضحايا بالعربات

لقد توقف الكاتب عن الكتابة عند جملة خالدة هي «إنني انتظر الموت» ثم وقف القلم عن الكتابة لأنه مات حقا . ربما كانت الإحصائيات لا تتسم بالدقة ، فهي مستقاة من وثائق الكنائس التي كانت تضطر إلى تغيير قساوستها باستمرار بين حين وآخر بسبب موتهم ، وهكذا عاش العالم ثلاثمائه سنة متواصلة في رعب وخوف وهلع وموت .

حتى أن النظام الإقطاعي الذي كان سائداً في حينه لم يعد يجد مقومات البقاء بعد أن مات العمال والفلاحون في الإقطاعيات في أوروبا ، وأصبحت أجور من بقي منهم باهظة ، لهذا زالت دولة الإقطاع وسار النظام الاجتماعي نحو الرأسمالية يحدوه التقدم الصناعي الذي هلت تباشيره ، وما كان باقي العالم من الوطن العربي إلى أقصى الهند والصين في منجاة في تلك الأيام ، من هذه الكارثة المتجددة بين حين وحين ، فالناس كلهم كانوا سواء أمام الموت الداهم ولكن ماهو السر في هذا البلاء الأعظم؟ .

كان هذا هو السؤال الذي لم يعرف له أهل ذلك الزمان جوابا .

- كان بعضهم يقول بالميازما وهذه هي نظرية الهواء الفاسد لهذا كانوا يضعون الأربطة على أنوفهم !

- قال بها «وليام بورجست» وهو صاحب الفكرة الذي أعلن « الطاعون سببه براز الأرض يتشبع به الهواء بسبب حرارة الشمس ، ثم تنقله الرياح من مكان لآخر فمرة يأتي عاصفاً ومرة أخرى يأتي على مهل» .

- بعض آخر يؤكد أنها أرواح شريرة بل ذهب بعضهم إلى أنه وحش سموه «بازيليك» له جسم ثعبان ورأس تنين فأنفاسه سموم ، وفحيحه شلل ، ونظراته موت زؤام .

كما ذهبت القناعة بأن نظرات المريض نفسه تنقل المرض ؛ لهذا كانوا يتحاشونها ويضعون على عينيه عصابة حتى لايرى الآخرين ، بل إن رائحته النتنة هي السبب ، فكان محور علاج الأطباء هو إغراقه بالعطور من بخور وماء الورد وكافور ، حتى إنه قيل أن ماء الكولونيا المعروف ظهر كاختراع لتلبية حاجة الناس في ذلك الزمان إلى العطر ، ولكنهم قصروا العنبر والمسك على مقام صاحب الجلالة الملك وزوجته جلالة الملكة لايجوز لأحد غيرهما أن يتعطر بهما ! !

لقد تبنت الكنيسة في حينها نظرية تؤكد أن المرض هو عقاب الله لإثم قد اقترفه الإنسان ، ولكن الغريب أن رجال الدين كانوا يصابون بالوباء ، فيموتون به بمثل مايصاب ويموت الداعرون والمجرمون والآثمون ! ! على أية حال فقد أعلن البابا كليمنت السادس مبدأ العلاج بالإيمان ! .

ثم قرر تحديد عام ١٣٥٠م لكي يكون موسما للحج لهذا الغرض ، وبهذا الهدف ، وعلى المؤمنين أن يلتزموا به ، ومن يموت منهم فإن له الجنة ثواباً مؤكدا بعد أن يغفر الله له ذنوبه كلها دون استثناء ما تقدم منها وما تأخر .

لقد قدروا من ذهب إلى الفاتيكان لاداء فريضة الحج ذلك العام تلبية لنداء البابا بما يفوق مليوناً ومائتي ألف ١,٢٠٠,٠٠٠ حاج ، ولكن من عادوا من أداء الفريضة كان مائة وعشرين ألفا فقط ! لأن تسعة أعشار الحجاج قد مات ولم ينج منهم من الموت إلا العشر فقط .

والغريب المضحك في الأمر أن البابا نفسه لم يحضر مراسيم الحج ، بل اعتزل واعتكف في قصره ، ورفض أن يقابل أحداً أو أن يتصل بأحد خوفاً من الوباء ! ! ففي تلك الأيام كان الناس يتحاشى بعضهم بعضاً، وكان الطبيب يلبس زياً غريباً ، ويضع على وجهه قناعاً على هيئة منقار حتى يتقي العدوى ، ثم يتبعه الخدم ليشعلوا النيران ، ويحرقوا البخور ، ويرشوا العطور لقتل الداء ، وهم في علاجهم لا يتعدون تعطير المرضى وحجامتهم وإعطائهم المسهلات وشراب الترياق .



طبيب الطاعون ولباسه الغريب الواقي في القرون الوسطى

بل شطحت قناعتهم إلى حد صناعة صابون يحتوي على صديد دمامل من مرضى الطاعون يستغلونه للوقاية منه عملاً بالحكمة «وداوني بالتي كانت هي الداء» ! ! ! .

ولقد شكلوا فرقة من الجند أطلقوا عليها اسم شرطة الطاعون ، تمارس صلاحيات مطلقة بلا حدود ، فهم يغلقون أبواب البيوت على من فيها إذا كان هناك مريض ، فيمنعون خروج أي إنسان ولو كان زائرا ، ثم يرسمون على الباب صليبا أسود أو يضعون حزمة قش عليه ، ويكتبون عبارة «فليرحمنا الله» يطلبون بها الوقاية والحماية من الرب . . . لقد كرههم الناس أيما كره ؛ لهذا كانوا يعمدون إلى التحايل للخروج أو الهرب أو ربما كانوا يعتدون على الحارس المكلف بتنفيذ الأوامر الصارمة .

فيما كان الحراس أيضا يقتلون كل من يحاول الهرب أو الإفلات من قبضة الإقامة الجبرية اللاإنسانية ، أما على نطاق المدن فقد كان يمنع من دخولها أي إنسان إلا من يحمل شهادة طبية تثبت أنه قادم من منطقة غير موبوءة، ومن يتحايل على هذا الأمر ينال عقوبة الإعدام ، أما القادمون على السفن التجارية فيلزمون حَجراً صحياً مدته أربعون يوما ، يقيمون خلالها تحت المناظرة والمراقبة في أكواخ أقيمت لهم خصيصاً خارج المدينة غير أن هذا كله لم يمنع النار من أن تستشري ، وعندما يثور السؤال عن السبب فعادة ما تُلقي التهمة على اليهود الذين يسممون الآبار ، ويلوثون المياه ويطلقون الأبخرة السامة بغرض التخلص من المسيحيين الصالحين ! ! وحين اتهموا يوماً طبيباً

يهوديا معروفا بتسميم المياه عذبوه عذابا شديدا حتى اضطر أن يعترف بجريمته للخلاص من وسائل التعذيب الوحشية بأنه سمم المياه فعلاً بخليط من سم الأفاعي والعقارب والضفادع ومسحوق قلوب المسيحيين ! لهذا فقد أحرقوا بعدها أحياء اليهود عن بكرة أبيها بمن فيها وهم أحياء بعد هذا الاعتراف الملفق بل فرضوا على اليهود في مدينة فرانكفورت ضريبة سميت باسم ضريبة الفئران ومقدارها ٥٠٠٠ ذيل فأر في كل عام . وهكذا كانت الأمور تسير ، غير أن بعضاً آخر ذهب إلى اتهام شرطة الطاعون أنفسهم والمتحالفين معهم من حفاري القبور الذين يتكسبون من عملهم مادام المرض مستشرياً .

الطاعون

بل ذهب الخيال ببعضهم إلى اتهام بعضهم الآخر بتلويث الحوائط بفضلات المرض ، أو وضع الطعام في أفواههم ، ثم بيعه للناس حتى يصابوا بالوباء . . . إنه عمل يستحق عقوبة القتل أو الإغراق في الماء . لقد كانت الحياة ظلاما دامسا أعطى الفرصة للمرض كي يستشري ؛ لهذا لا غرابة أن كانوا يجمعون الموتى من أمام أبواب المنازل بمثل ما نجمع اليوم أكياس القمامة كل يوم في الصباح ليدفنوهم في مقابر جماعية خارج المدينة وبعدها يحرقون البيت خلاصا من شبح الموت .

وباء الموت الأسود

جدث هذا الوباء في لندن عام ١٦٦٥ م ، وقد فتك بأهلها وأباد آلافاً مؤلفة منهم

يقدرهـم البعض بثلاثين ألفاً فيما يذهب آخرون إلى أنهم يتراوحون بين التسعين والمائة ألف .

بدأ الوباء في شخو سبتمبر من عام ١٦٦٥م ، ولم يكن هناك غير مستشفى واحد للطاعون في لندن كل مهامه تتلخص في إغلاق أبواب المنازل ، ورسم الصليب الأحمر عليها ، وتعيين حارس يمنع احتكاك السكان بالناس خارجه لمدة أربعة أسابيع . . . وتوقفت الحياة في لندن تماماً وأصبحت بلا مواصلات ولا بيع أو شراء ، واقفرت الشوارع حتى من المشعوذين إلى أن شب حريق لندن الكبير عـام ١٦٦٦م فتقهقر الوباء وتراجع المرض .

إن «شكسبير» شاعر انجلترا الأشهر عاصر هذا الموت الأسود ، والذين يقرأون له ، يقرأون عن قناصي الجرذان الذين كانوا يعدون أنفسهم من الفنانين ، ويعاملون على أنهم من كبار رجالات الدولة المرموقين ذوي الشأن ، غير أن الجميع قد مات . . . مات ابن الشارع كما مات الطبيب ومات معهم قناصو الجرذان أيضاً إلى أن رحل الداء في خريف سنة ١٦٦٦م .

ومما يحكي أن سفينة محملة بالبضائع تركت ميناء لندن ، فمات كل من فيها ولم يبق من يوجهها ، فسارت هائمة في البحر إلى أن وصلت إلى ميناء «بيرجن» النرويجي حيث صعد المسؤولون هناك على متن السفينة الهائمة يستطلعون الأمر فلم يعودوا لأنهم ماتوا بالطاعون هم أيضاً .

يبدو أن الطاعون قد أرهقه العمل فنام عام ١٧٢٠م إلى أن استفاق مرة أخرى في الصين في مقاطعة هناك اسمها «يونان» Yunan .

كان هذا قبل أن يلفظ القرن التاسع عشر أنفاسه . وفي حوالي عام ١٨٧٠م ، وصل الوباء إلى مدن الساحل ومنها رحل عام ١٨٩٤م إلى «هونج كونج» و «كانتون» ثم شاع عام ١٨٩٨م في كل أقطار الدنيا بعدها . . . حتى قيل إنه مات به مابين أثني عشر ١٢ إلى ثلاث عشر ١٣ مليونا من الخلق ، وكان الناس في مدينة «بومباي» ينامون في

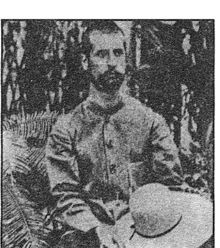
الشوارع هرباً منه ، ومن فوعة الجرذان التي امتلأت بها المدينة .

وما أن حل عام ١٩٠٠م حتى كان الوباء قد وصل إلى الحي الصيني في مدينة «سان فرانسيسكو» الأمريكية ، ثم تسرب منه المرض إلى باقي أنحاء المدينة ولم يتوقف إلا مع حريقها المشهور .

مرة أخرى عاد الطاعون إلى الصين عام ١٩١٠م حين شاعت في العالم صرعة استعمال الفراء في أزياء السيدات ، وكان أفضلها وأرخصها فراء المرموط ذلك الحيوان القارض الذي اشتهرت به مقاطعة منشوريا ، فأقبل على صيده كل من هب ودب ، وكان الطاعون على مايبدو متوطناً بين هذه الحيوانات القارضة فأصيب به الصيادون الذين نقلوه ليخلف وراءه ستين مليون ضحية .

ربما كانت هناك هواجس تدور حول دور الجرذان والفئران ولكنها لم ترق إلى مرتبة الحقيقة العلمية إلا بعد أن أجريت تجارب عديدة على الجرذان ، إذ كانت تحقن الجرذان السليمة بدماء مريضة ، كما أجريت التجارب نفسها على المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام .

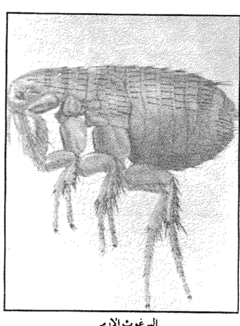
وإذا ما ذكر أحد في هذا الصدد فلنذكر طبيبين فرنسيين هما «كلوت بك» الذي بنى القصر العيني في مصر و«بولارد» في عام ١٨٣٥م فقد كان لهما في كشف سر الطاعون فضل ،أما اكتشاف الميكروب نفسه فالفضل فيه لطبيبين كشفاه «كل على حده» في مدينة «هونج كونج» عام ١٨٩٤م أحدهما ياباني يدعونه «كيتاسوتو» وهو من تلاميذ «روبرت كوخ» الألماني والثاني سويسري واسمه «يرسن» من تلاميذ «باستير» وبالرغم في أن «كيتا سوتر» قد سبق «يرسن» بقليل من الوقت في



الكسندر يرسن أحد أعمدة علماء الطاعون ولد بسويسرا

اكتشافه الميكروب إلا أن «يرسن» هو الذي حظى بالاسم فأصبح الميكروب يعرف باسم ميكروب وباء يرسن Yersina Pestes .

هذه الاكتشافات بالرغم من أهميتها فأنها لم توضح لنا دور الفأر أو البرغوث في الأمر ، وإن تأكد الناس من الميكروب إلى أن جاء طبيب استرالي مات المسكين بدوره بالطاعون في هونج كونج خلال وباء يونان وتبع دربه كل من «يرسن» السويسري و«رو» الفرنسي في تحديد دور الجرذ في القضية عام ١٨٩٨م ثم كان دور مدير الصحة في طوكيو الطبيب «أوجاتا» من بعدهما وهو الذي أثبت وجود العلاقة الوثيقة بين الفأر وبرغوثه في عملية نقل الداء ، ثم كشفها علىّ حقيقتها ، وأزال القناع عنها طبيب فرنسي آخر اسمه «سيمون» ،وأكد أن البرغوث هو حقاً ناقل الداء ولكنه لا يمرض به ، غير أن البرغوث يقضي نحبه من انسداد معدته بسبب تكاثر الميكروبات التي تخثر الدم وتكتله وقد كشف هذا السر الأخير عام ١٩١٤م كشفه «جوتير» و «ريبود» الانجليزيان .


البرغوث الارمي

بعد هذا حق على الطاعون أن يتراجع إلى مواطنه الأصلية ، يقبع فيها وخاصة في فيتنام وبعض من بلاد جنوب شرق آسيا .

وهكذا قلب الطب صفحة من صفحات التاريخ الأسود للبشرية عبر العصور بعد أن انسحب الطاعون من ساحة معركة الأوبئة الكبرى ، ليصبح من الأغوال المرعبة التي انكشف سرها فهي مجرد ذكرى !

الفصل الرابع

المـلاريـــا

الملاريـا MALARIA

ملك الأمراض

أسطورة فيتنامية عتيقة من جنوب شرق آسيا ، تحكي أنه كان في قديم الزمان شابان متحابان جداً لا يطيقان عن بعضهما فراقاً ثم كان أن تزوجا وعاشا معاً في سعادة وهناء ، يتمتعان بعيشة رضية ، إلى أن كان يوم ماتت فيه الزوجة الحلوة الشابة مما أحزن زوجها كثيراً لدرجة أنه لم يطق البقاء دونها ، فرحل عن القرية ليعتكف على شاطىء النهر يجتر ذكرياته وأحزانه وهمومه ، وهو يتسول طعامه صباحاً ، ويعيش وينام في المساء داخل زورقه الصغير القابع على ضفة النهر .

وفي يوم من الأيام ظهر له جني يواسيه ويصبره قائلاً له : «لا تحزن ياعزيزي هكذا فإنك لو علمت الغيب لاخترت الواقع» . ولكن هذا القول ل يقنع الشاب ، ولم يذهب بأحزانه ، وتمنى لو تعود حبيبته وزوجته الشابة مرة أخرى ، فوعده الجني خيراً على شرط أن يتحمل هو مسؤولية ما يحدث له بعد ذلك . .

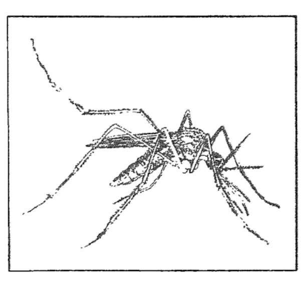
فأخذ الجني قطرة من دم أصبعه ونثرها فوق جثة الزوجة ، وماهو إلا بعض وقت حتى استفاقت زوجته أمامه ، وصارت جسداً نابضاً بالحياة والسعادة والمرح ، فسعد الشاب بها كثيراً ، وعاشا في هناء وسرور ، وبعد مدة من الزمن ذهب الشاب إلى القرية لقضاء بعض أعماله ، وحين عاد لم يجد زوجته الشابة في الزورق ، ولم يطل به البحث والتفتيش حتى وجدها مع رجل آخر في زورق مجاور تطارحه الغرام ، فعاتبها الزوج المخدوع غاضبا : «من العيب أن يكون نكران الجميل على هذه الصورة ، فأنا الذي وهبتك الحياة من دمي» .

فما كان من الزوجة الخائنة إلاأن استلت دبوسا من شعرها ، ووخزت أصبعها ، وألقت في وجهه بقطرة الدم قائلة : «هذه هي قطرة الدم التي تمن علي بها ، لا حاجة لي بها» . ولكن القطرة وقعت منها على صفحة الماء ، واختلطت به وأصبحت على هيئة لؤلؤة .

فإذا بالزوجة الخائنة تعود جثة هامدة مرة أخرى ، وإذا بقطرة الدم على صفحة الماء تتحول إلى هيئة بعوضة .

ولما حاولت هذه البعوضة أن تعود امرأة بصورة البشر مرة أخرى فشلت ، فاستشاطت غضباً ، وامتلأ قلبها غيظا ، وحقدا على بني البشر كلهم ، ومن يومها أخذت تلدغهم ، وتمتص دماءهم ، لتعود ثانية إلى صورتها البشرية . . . ولكن هيهات . . .

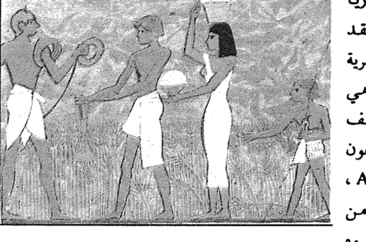
إن الأسطورة على هذه الصورة لم تحدد لنا متى حدث ذلك ، كما لم تذكر أى نوع من البعوض كانت تلك البعوضة ، وأنواع البعوض يعد بالمئات ، ولم تحدثنا الأسطورة أيضاً عن الأمراض التي تنقلها البعوضة ، كي تنتقم بها حقا من بني البشر سواء أكان منها الملاريا التي تنقلها بعوضة «الأنوفيليس» أم الحمى الصفراء التي تنقلها بعوضة «الايدس ايجيبتاى» التي يحلو للبعض أن يترجم اسمها إلى اللغة العربية «عايدة المصرية» ، أو هو «مرض الفيل» الذي تنقله بعوضة «الكيوليكس» وهكذا . . .



على أية حال يقول قائلهم : إن الملاريا هي أقدم مرض سجله التاريخ .

نحن لا ننكر أن الملاريا مرض عانى منه إنسان ما قبل التاريخ ، وما قبل الحضارات ، بل قبل ذلك منذ أن كان هناك مخلوق أول يقف على قدمين قبل حوالي مليون عام ، وأطلقوا عليه اسم «هوموسابين» وربما كان قبل ذلك أيضا ، حين كانت الملاريا شائعة بين القرود ، وللأسف إنه لم يكن هناك أحد على الأرض يترك لنا أثرا نهتدي به إليها .

منذ الحضارات الأولى التي قامت في العشرة آلاف سنة الأخيرة من حياة الإنسان على الأرض ، بدأنا نتلمس للملاريا أثراً نهتدي به ، فقد كانت الحضارة المصرية القديمة في البداية هي التي تركت لنا وصف مرض سماه قوم فرعون باسم «آت» AAT ، كان على مايبدو من العرض الذي دونوه على أوراق البردي ، أنه مرض الملاريا ولاغيره .!



وأهل التاريخ فيما بين سطورهم يؤكدون أن البعوض في مصر القديمة كان مشكلة ، سببتها لهم مستنقعات الماء التي كان يخلفها فيضان النيل على الأرض من حوله ، لهذا نجد «هيرودوتس» يقول في معرض حديثه عن أهل مصر : إنهم كانوا ينامون في أبراج عالية ، حتى يكونوا بمنأى عن لدغات البعوض ، لئلا يستطيع الوصول إليهم في طيرانه .

وعندما تناولوا حياة «كليوباترا» المشهورة في التاريخ ، تحدثوا عن عادتها في النوم تحت ناموسية تحتمي بها من لدغ البعوض اللاسع ، الذي كان منه الكثير في الإسكندرية بسبب المستنقعات الكثيرة ، ومياه البرك الآسنة التي تحيط بها .

ولقد عرف أهل الصين القدامى وجيرانهم من الهنود مرض الملاريا أيضاً ، كما عرفوا معه ولاشك لدغات بعوض «الأنوفيليس» ، لهذا فقد ترك هذا البعوض بصماته على نمط تفكيرهم ، وعلى لفائف قراطيسهم التي تدون تاريخهم وعاداتهم ، فقد كانوا في الصين القديمة يعتقدون بثلاثة أرواح شريرة تتحالف ضد الإنسان وتصيبه بالمرض أولها تسبب له الصداع ، ويتوهمونها مخلوقاً يحمل في

يده مطرقة تدق بها على رؤوس ضحاياها ، والثانية تسبب البرودة ؛ لهذا فهي تحمل في يدها دلواً مملوءاً بالماء البارد تصبه على رأس ضحيتها ، فيما الروح الشريرة الثالثة تحمل معها موقداً تحرق به ضحاياها .

وهذا هو كما ترى التسلسل الطبيعي لأعراض حمى الملاريا ، من صداع ، وبرودة مع رعشة ، يعقبها حرارة شديد ، يخلع معها المريض ملابسه ويرفض كل أغطيته التي كان يطلب منها مزيداً في مرحلة البرودة والرعشة . . . إنها صورة الملاريا ! .

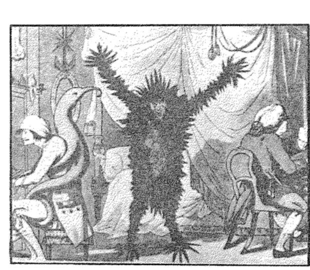
أما أهل الهند فقد أطلقوا اسم ملك الأمراض على معاناة تداهم صاحبها على هيئة برودة شديدة ، تصاحبها رعشة ، ثم تعقبها حرارة شديدة ، وذلك في تكرار يومي أو هو يأتي يوما بعد يوم ، وما هذا إلا حمى الملاريا التي كتب عنها كاتب هندي قديم في سنوات ماقبل الميلاد يقول :

«إن البطن في ناحيتها اليسرى تكون قاسية كالحجارة ، ومنحنية مثل قوقعة سلحفاة» ، لعله في وصفه هذا يتناول الطحال التي تتضخم عند الإصابة المزمنة بالملاريا ، وهذه هي علامة يستدل بها الأطباء في يومنا هذا على مدى انتشار الإصابة بالملاريا ، وتوطنها في موقع ما ،حيث إن تضخم الطحال يعد مقياسا لاستيطان المرض في أوض ما ، وانتشاره بين أهلها .

ولعل بداية وصف المرض بصورة تتصف بالدقة ، مع ربط تضخم الطحال بالمستنقعات وتجمعات المياه الآسنة دون تعليل للسبب ، كان على يد الطبيب الإغريقي القديم في القرن الثالث قبل الميلاد ، وهو «أبقراط» الذي لقبوه بأبي

الطب صاحب قسم الأطباء المشهور ، وبمناسبة ذكر التاريخ الإغريقي فقد سجلت الملاريا منعطفا تاريخيا خطيرا ، عندما أصابت «الإسكندر المقدوني» ، الذي كان يحلم بتوحيد العالم بإقامة امبراطورية عالمية موحدة ، تكون أرض اليونان محورها الرئيس ولا يخفى على جميع قراء التاريخ غزوات الإسكندر غرباً وشرقاً ، إنه اكتسح أرض آسيا الصغرى والشام ومصر وفارس ، إلى أن وصل مشارف أرض الهند ـ حيث تقوم باكستان اليوم ـ وقد عبر رجاله من الهند إلى الخليج ، وحطوا الرحال في جزيرة فيلكا ، غير أنه – على مايبدو – لم ترهب بعوضة هندية مريضة كل قوى الإسكندر الأكبر ذي القرنين ، ولا جيوشه الجرارة . ، بمثل ما يرهبه عامة الناس . وهكذا كانت لدغة الموت فأصيب بالملاريا ، ومات بها في مدينة بابل أثناء عودته عام ٣٢٣ قبل الميلاد وهو لم يتجاوز الثالثةوالثلاثين من عمره .

لقد مات الإسكندر الأكبر مخلفا وراءه طفلا صغيرا ؛ ليرث عرش الإمبراطورية الكبيرة التي فتحها ، ومن حوله قادة جيشه الذين امتلأت قلوبهم طمعاً وكراهية في وقت معاً ، فاختلفوا فيما بينهم ، ولم تقم من بعده تلك الأمبراطورية الواحدة الضخمة ، التي كان يحلم الاسكندر بقيامها ، ولهذا لم تسجل لنا صفحات التاريخ قيام إمبراطورية إغريقية ، بل قفز بنا منها إلى دويلات صغرى مقسمة ما لبثت أن قامت بعدها الإمبراطورية الفارسية ، والإمبراطورية الرومانية دونما توقف على أرض الإغريق كما كان متوقعاً ، ترى ماذا سيسجل التاريخ؟ وكيف كان سيناريو الأحداث سيجري لو لم تلدغ تلك البعوضة المريضة جسد الإسكندر ، ومن ثم لم يمت



بالملاريا في بابل ، وقد عمر بعدها طويلا ليحقق حلمه في إمبراطورية كبيرة؟.

لاشك أن قيام الإمبراطورية الرومانية ، وما بعدها من ممالك ، كان قد تأخر على الأقل توقيتها . وبالتالي تغيرت الوجوه التي يسجل التاريخ اليوم أخبارها وحكاياتها . . . إنه أمر في علم الله .

ثم شاء الله أن تقوم امبراطورية روما ، التي لم تستثنها الحمى من ضرباتها الموجعة ، والتي لا يعرف الناس لها سببا في ذلك الزمان ، لدرجة أنهم آمنوا بأن هناك آلهة متخصصة في أمر هذه الحمى ، كما كان للحرب آلهة عندهم ، وللجمال آلهة ، وهكذا كان أن أطلقوا عليها : اسم «فيفوس» بوصفها هي التي تصيب ، وهي التي تشفي على هواها ، ومن اسم «فيفوس» هذا نجد في قواميس اللغة الأعجمية اسم «فيفر» fever تحمل معنى الحمى . وكعادتهم مع كل آلهة في تقديم فروض الطاعة والولاء لها والقرابين في هيكلها خوفاً من غضبها وطلبا لرضاها ، كان عليهم تقديم مثل تلك الطقوس لآلهة هذا المرض ، غير أن هذا كله لم يمنع الحمى أن تعمل بمعول الهدم في إمبراطورية روما ، فكانت الملاريا أحد عوامل انهيارها وزوالها جنبا إلى جنب مع عوامل أخرى عديدة ، بعد أن أضعفت الجند ، وأهلكت المواطنين الأبرياء ، فتلاحقت الهزائم ، وعم الفقر والدمار بين الناس . لم تعدم الإمبراطورية أناساً أذكياء ، حاولوا تدبر الأمر ، وإيجاد الحلول في نطاق فهمهم لمدلول الحمى وأسبابها ، إذ كانت قناعة أطبائهم في ذلك الزمان هي أن المستنقعات تطلق روائح عفنة سموها «الميازما» ، كانت هي السر عندهم في إصابة الناس بالحمى التي سموها بحمى المستنقعات .

كانت قناعة الرومان بأن هواء المستنقعات الفاسد هذا هو سر البلية الذي كانت تسخره الآلهة فيفوس ، ولهذا قام أباطرتهم بتصريف مياه المستنقعات ، وفتح قنوات لها ، أو ربما تجفيفها خلاصاً من حمى المستنقعات هذه .

والتاريخ يسجل فيما يسجل من أحداث القرن الخامس قبل الميلاد ، حكاية «امبيروكل» الذي حكم مدينة «سيلينيوس» المشهورة في صقلية ، حين قام بتصريف مياه المستنقعات من حولها بواسطة قناتين لتصريف المياه ، عمد بعدها

إلى استحداث فجوة في الصخر خلف المدينة ، طلبا للريح الطيبة التي تدفع بالأبخرة السامة الجالبة للحمى نحو البحر !! .

وذكرى لهذا العمل المجيد ، فقد صكت نقود خاصة لازالت تحتفظ بها بعض المتاحف حتى يومنا هذا ، كما أقيمت النصب والأعمدة التذكارية تخليداً لهذه الخطوة الصحية الجبارة واحتفالا بها .

في مشرقنا العربي الإسلامي لم تكن حالنا مع الملاريا بأحسن مما كان عليه أهل الغرب ، فقد كانت الحمى عندنا تعني الملاريا ، وإن كنا نسميها في بلادنا باسم البرداء ، لأنها متتابعات من شعور بالبرد ، تعقبه حمى تداهم تباعا كل ليلة ، أو هي كل ثالث ليلة وهكذا ، ولعل الدليل على هذا ماسجله لنا شاعرنا العربي المتنبي في قصيدة له باسم الحمى التي أصابته وهو بمصر عام ٩٥٩ ، حين كان في كنف كافور الإخشيدي حاكم مصر ، الذي يقال إنه قد وعده بولاية لكنه أخلف معه وعده . .؟ يقول المتنبي في بعض قصيدته هذه :

عليل الجسم ممتنع القيام
شديد السكر من غير المدام
وزائرتي كأن بها حياءً
فليس تزور إلا في الظلام
بذلت لها المطارف والحشايا
فعافتها وباتت في عظامي
يضيق الجلد عن نفسي وعنها
فتوسعه بأنواع السقام
إذا ما فارقتني غسلتني
كأنا عاكفان على حرام
كأن الصبح يطردها فتجري
مدامعها بأربعة سجام
أراقب وقتها من غير شوق
مراقبة المشوق المستهام
ويصدق وعدها والصدق شر
إذا ألقاك في الكرب العظام

أبنت الدهر عندي كل بنت
فكيف وصلت أنت من الزحام

إننــا لا نظن أن هناك وصفــا طبيا يفوق وصف المتنبي ، الذي صاغه عن تجربة حية لا يستطيعها غيره ، بالرغم من شيوعها وانتشارها بين الناس في ذلك الوقت ، والذي يستحق أن يسجل في هذا المقام «ريكاردوس» قلب الأسد الذي كان أصحابه الإنجليز يسمونه ريتشارد صاحب صلاح الدين الأيوبي ، وغريمه في الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩٠م ، فالتاريخ يذكر لنا فيما يذكر تأكيداً لأخلاق صلاح الدين عيادته سراً لغريمه وعدوه قلب الأسد في أثناء مرضه ، ولكن أحداً لم يذكر لنا أي تفصيل أبداً عن طبيعة هذا المرض الذي أصاب الملك الصليبي ، لكن الشواهد التاريخية التي تروي سيرة الملك الإنجليزي تؤكد إصابته بالملاريا عبر بعوضة فلسطينية موتورة ، انتقمت من الملك الغازي ، ولهذا أصابه الضعف والهزال الشديد لدرجة أنه قتل أثناء اشتباك طفيف مع «فيليب» ملك فرنسا الذي كان يشاركه الحملة الصليبية عام ١١٩٩م ، ولم يتجاوز من العمر ٤٢ عاما . فقد كان ريكاردوس يعاني من حمى الملاريا منذ أن كان في الأراضي المقدسة .



وما دام الحديث عن التاريخ الإنجليزي ، فلنذكر هنا ضحية أخرى للملاريا ، هو أول وآخر رئيس لجمهورية انجلترا ، ونعني «أوليفر كرومويل» الذي مات بالملاريا عام ١٦٥٤م ، بعد أن رفض أن يعالجه الأطباء بمنقوع الكينا التي أخذ الناس يستخدمونه دواء لهذه الحمى ، بعد أن تعلموا ذلك من الهنود الحمر ، وصار الأسبان وأطباؤهم من الكاثوليك



يستوردون هذه المادة عام ١٦٤٥م من بيرو ، وكروميل رجل بروتستنتي متعصب لمذهبه ، وقد اعتبر منقوع الكينا هذا دجلاً بابويا ، والخير له أن يموت بروتستنتياً نقياً من أن يشفى على يد الكاثوليك من أعدائه ! ! .

وعلى ذكر منقوع الكينا وسيرتها ، فالأمر له قصة تستحق أن تروى وأن تسجل في هذا المقام ، فقد كانت «بيرو» في أوائل القرن السابع عشر مستعمرة تقع تحت حكم الأسبان ، وكان عليها نائب للملك اسمه «دون لويس جيرو نيمو فرناندز دي كابريرا بوبا ديلا» ويلقبونه اختصارا «بالكونت كينكون» .

وقد أصيبت زوجته الكونتيسه كينكون المسماه «دونا فرانشيسكا هنريك دي ريبير» بالملاريا إصابة شديدة ، ولم ينفع معها دواء لعلاج هذه الحمي التي ألمت بها عام ١٦٤٠م وعندها أشار عليها بعضهم بشراب منقوع لشجرة يستعملها الهنود الحمر في بيرو ، ويطلقون عليها اسم شجرة الحمى ، وقبلت الكونتيسة بالنصيحة نتيجة ليأسها ، وشربت منقوع لحاء الشجرة فشفيت زوجة نائب الملك ، مما دفع الحماس بها إلى نقلها إلى أسبانيا ، حيث أهدتها إلى أحد الأديرة الكاثوليكية هناك ، فزرعوها ونشروها باسم الكونتيسة كينكون ، غير أن الناس وقد تداولوها وحرفوا الاسم من كينكون إلى كينا ، ومن ثم شاع الاسم وانتشر وسار مع الأيام حتى زماننا هذا باسم الكينا .

لقد سجلوا هذه الرواية على حائط مستشفى «سانتا سبيربينو» في روما ، غير أن أحد المؤرخين فجع القوم برواية أخرى تقول : إن «الكونت كينكون» كان نائبا للملك على بيرو حقا ، ولكنه كان دون زوجة معه لسبب بسيط هو أن زوجته كانت قد ماتت قبل ذهابه إلى بيرو بسنتين ، لهذا فالقصة كلها محض اختلاق وتزييف ، ونحن هنا لانملك إلا أن نقف موقف الحذر من هذا وذاك ، وموقف الحياد من الروايتين ، وعلى أي حال فقد وفق الناس إلى علاج لهذا المرض قبل أن

الفونس لافيران ١٨٨٠

يعرفوا أسبابه بل قبل أن يعطوه اسماً محدداً ، وهذا الاسم إنما جاء من وضع طبيب إيطالي في سنة ١٦٩٠م اسمه «فرانسيسكو تورتي» ليطلق علي هذا المرض اسم مالاريا ، وقد اشتقه من كلمتين ايطاليتين هما مالا ايريا وتعني الهواء الفاسد بدلا من اسم حمى المستنقعات الذي كان سائداً فيما قبل عند أغلب الشعوب . ربما كانت الملاريا تنفرد عن بقية الأمراض بأنها وجدت علاجا لها قبل أن يعرف الطب لها سببا ، لهذا كانت السنوات التالية تدور حول محور دراسة أسباب الملاريا ، وكيفية انتقالها والأصابة بها؟ .

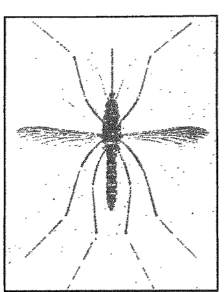
باتريك مانسون

وهنا لابد لنا أن نسجل الفضل لطبيب فرنسي اسمه «الفونس لافيران» لأنه الرجل الذي كان أول من كشف عن طفيلي الملاريا عام ١٨٨٠م في دم مريض بها ، فإذا به طفيلي وحيد الخلية يسبح في الدم متوطنا في الخلايا الحمراء منه ، حيث يتكاثر ويكتمل نضوجه وتنفجر ، فإذا انفجرت بما تحوي من طفيليات صغيرة ، جاءت مع انفجارها نوبة الملاريا المعروفة ، تداهمه بسبب مافيها من سموم وتختلف النوبة حسب اختلاف نوع الطفيل الذي عرفوا منه أربعة أنواع ، فبعضها يبلغ في يوم ، وبعضها الآخر في يومين أو ثلاثة ، ومن ضمن قافلة العلماء الذين ساهموا في رسم الطريق الصحيح لمعرفة الملاريا يمكن أن نذكر اسم الدكتور «باتريك مانسون» عام ١٨٩٢م وهو الذي حدد دور البعوض في نقل المرض من إنسان مريض إلى إنسان آخر سليم .



رونالد روس

كما نذكر معه الدكتور «رونالد روس» الطبيب العامل في الجيش الهندي ، وهو الذي كشف في عام ١٨٩٥م عن صورة الدور الذي يقوم به البعوض في نقل



المرض وبعد أن كشف هذه الحقيقة في مدينة «سندر أباد» الهندية عاد مرة أخرى عام ١٨٩٧م فاكتشف أن هناك أطوارا جنسية للملاريا، منها المذكر ومنها المؤنث، تتزاوج معا داخل جدار معدة البعوضة، وتخرج منها أشكالا صنوبرية تسبح نحو الغدد اللعابية للبعوضة، حيث تحقنها في دم الإنسان الذي تلدغه، عندما تبصق على الجرح حتى تسبب احتقانا في موضع اللدغ بفضل مواد مثيرة في لعابها، فإن كانت البعوضة مريضة فان صنوبريات الملاريا تدخل مع اللعاب إلى دم الضحية .

ويبدو أن هذه الخطوة في كشف أسرار الملاريا كانت أهم الخطوات، لهذا اعتبروا يوم العشرين من أغسطس وهو يوم كشف «روس» لهذه الحقيقة عيدا يحتفل به العالم كله تحت اسم يوم البعوض، تخليدا لذكرى يوم ٢٠ أغسطس عام ١٨٩٧م المجيد .

على أية حال لقد بقى اسم الملاريا شائعا في كل أقطار الدنيا، وعلى لسان كل الشعوب، بالرغم من الخطأ الذي وقع فيه الطبيب الطلياني الأول «تورتي» وقبعت الأسماء الأخرى في زوايا النسيان . فلا أحد يسمي اليوم الملاريا بالبرداء عند الناطقين بالضاد، ولا أحد يسميها «أيج» بالإنجليزية، وهو الاسم الذي أطلقه عليها الناس في انجلترا مما أثار الطبيب الفرنسي «فولتير» عليهم حين اكتشف أن اسم «أيج» Ague يتكون من مقطعين اثنين بالرغم من قصر طوله فيما اسم الطاعون الخطير Plague يتكون من مقطع واحد فقط فقال قولته الساخرة :

«ليت الطاعون يفتك بنصف القاموس الإنجليزي فيما تفتك الملاريا بنصفه الآخر!» .

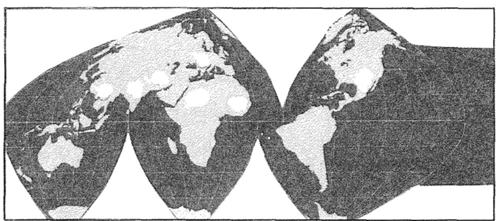
الفصل الخامس

الحمى الصفراء

الحمى الصفراء YELLOW FEVER

التيفوس الأصفر

جميع الداخلين إلى ميناء بورسعيد في شمال قناة السويس ، التي تربط البحر الأحمر مع البحر الأبيض المتوسط بشريط مائي طوله ١٧٣ كيلو متراً ، يستقبلهم تمثال المهندس الفرنسي فرديناند دي لسبس الذي حفر قناة السويس في عهد الخديوي سعيد ، ثم الخديوى إسماعيل فيما بين سنتي ١٨٥٩م وسنة ١٨٦٩م رمزاً لعظمته وإجلالاً لانجازه الهندسي العظيم .



هذا الرجل « دى لسبس » حاول مرة أخرى عام ١٨٨١م أن يكرر إبداعه في ربط مياه المحيط الهادي(الباسيفيكي) بمياه المحيط الأطلسي عبر قناة أخرى تمر في أراضي«بنما» . غير أن بعوضة صغيرة تدعى « ايدس ايجبتاي» يترجمونها باسم « عايدة المصرية » ، أنكرت عليه أن يقتحم عليها معاقلها ، وأن يعكر هدوءها ولم يستمع إلى نصيحة أحد الفرنسيين المهاجرين حين علم بتطلعاته إذ قال له : « إذا حاولت أن تحفر قناة فلن يكون هناك في بنما شجر يكفي لصناعة الصلبان لتضعها على قبور الموتى من رجالك» . وقد صدقت نبوءةالرجل ، فانتقم منه البعوض خلال ثماني سنوات من المحاولة الفاشلة ، وقتل من رجاله مايقدرونه بعشرين ألفاً ، أصيبوا بالحمى الصفراء والملاريا ، إذ كان

يموت في كل يوم مابين الثلاثين والأربعين عاملاً ،مما ملأ قلبه يأساً لم يجد معه بداً من الرحيل والعودة إلى بلاده .

الحمى الصفراء مرض كما يوحي اسمه يتميز بارتفاع درجة حرارة الجسم ، واصفراره مما يسمونه باليرقان ، واليرقان هذه كلمة إغريقية عتيقة ، تدل على دودة تعيش على أوراق الأشجار الخضراء ، تتغذى عليها فتحيل خضرتها إلى صفرة ، وقد أطلق الأوروبيون اسم « الاكتيروس » على لون الجسم الأصفر والعيون الصفراء ، كانوا قد أطلقوه على طائر يتوطن غابات البرازيل ،يختلط لون ريشه الأصفر باللون الأخضر ، ويتميز بصوت عذب جميل ، وكان أصلح الأسماء له هو « الصافر الذهبى » أو طائر «الاكيتروس» على التسمية الإغريقية ، يقابل هذا وذاك اسم« الجوندسي» jaundice عند الإنجليز الذين اقتبسوه من جيرانهم الفرنسيين ،وكان هؤلاء قد اصطلحوا على اسم «الجونيس» jaunice فأخذه الإنجليز وحرفوا الكلمة فأضافوا لها حرف الدال،فصارات «جونديس» لتقابل اليرقان الإغريقية أو لون طائر الاكتيروس البرازيلي .



على أي حال فالحمى الصفراء التي حاروا فيها في مطلع الأمر ، وسماها كل قوم بما كان يهوى ويشاء ، فأطلقوا عليها مثلاً اسماً لاتينياً هو « التيفوس الأصفر » فيما سماها الإنجليز بأسم (جاك الأصفر) فيما ذهب الأسبان إلى إطلاق اسم (قيء الزنجي) لتميزها بقيء مدمم يصيب ضحيتها قبل أن يموت . والمتفحص لهذه الأسماء يجد في كل منها د لالة تشير إلى واقع الداء ، فهو وباء يتميز بصفرة الجلد ، وصفرة العينين ، تصاحبه حرارة مرتفعة وتنتهي بقيء دموي يسبق الموت .

أما صفة الزنجي الأسبانية فربما كانت هي الأقرب إلى حقيقة الحال ، لأن الحمى الصفراء لم تعرف سكان الأراضي الجديدة إلا بعد مقدم كريستوفر كولمبس إليها عام ١٤٩٢م وبعد أن بدأت التجارة المحرمة الدنسة تجارة العبيد ، ممن كانوا يحتال

الأوروبيون (من أسبان وبرتغاليين وهولنديين وانكليز وفرنسيين) على جلبهم من غرب إفريقيا ، حيث كانت تتوطن الحمى الصفراء في الشريط الإستوائي ، والمداري للقارة الإفريقية السوداء منذ زمن طويل ، ربما كان أطول من عمر الإنسان نفسه على وجه الأرض حيث كانت تعشش القرود وهي الضحية الأولى للحمى الصفراء قبل أن يكون للإنسان وجود ، واتخذت هذه الحمى من ظلمة القارة الإفريقية وأحراشها ، ستاراً يخفيها عن بصر التاريخ ، إلى أن جاء المستعمر ليمزق هذه الستارة ،فيدفع ثمن فعلته النكراء على صورة ضريبة الشيطان . . داء الحمى الصفراء الذي حملته السفن مع من حملت من عبيد من الساحل الإفريقي إلى الساحل الأميركي ، ولاندري هل كانت السفن تحمل المرضى من البشر أم هي تحمل البعوض المريض أو كلاهما معاً ؟ ! .

على أن أول وباء رصده التاريخ من أوبئة الحمى الصفراء كان عام ١٦٤٨م حين أصاب إحدى القبائل الكبرى من الهنود الحمر يدعونها ألمايا ، وكانت تقطن منطقة بالمكسيك تدعى «يوكاتان» على هيئة شبه الجزيرة داخل شواطىء المحيط الباسيفيكي ، وقد كتب عن الوباء أحد الذين عاصروه فقال :



(في شهر يونيو انتشر فوق البلاد ضباب كثيف ،وكان الهنود الحمر القدامى يؤمنون أن مثل هذا الضباب هو علامة أكيدة للموت ، وقد ظهر حقاً في مدينة«كاجيشي» فاجتاحها وشل فيها كل حركة . .)

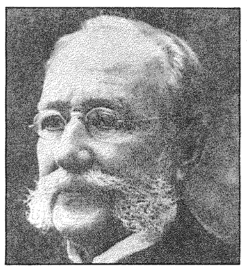
لقد فرضت حراسة مشددة على كل الطرق لمنع الأهالي من المغادرة ،ولكن المرض مع هذا شاع وانتشر ، فما كان شهر اغسطس إلا والداء قد اجتاح الجميع صغيراً كان أم كبيراً غنياً كان أم فقيراً ، فوصل إلى «مريدن» وعم الناس كافة في ثمانية أيام ، ثم وصل بعدها إلى كوبا في السنة التى تلتها ، حيث قتل ثلث سكانها .

أما في عام ١٦٦٠م فقد أصاب وباء الحمى الصفراء أفراد الحامية البريطانية ؛ التي كانت ترابط في جزيرة «سانتا لوتشيا» وقوامها ألف وخمسمائة جندي ، أصيبوا جميعاً ففتك بهم باستثناء تسع وسبعين منهم .

حتى ذلك الحين كان الناس يظنونها فرعاً من التيفوس ، إلى أن كان عام ١٦٦٧م فوصف الحمى وأعراضها وعلاماتها كاهن فرنسي يدعونه « جين دى تيرتري » أثناء فوعة أصابت «جواديلوب» المدينة المكسيكية وجزيرة «سانت كيتس» .

ولم يطلقوا عليها اسم الحمى الصفراء إلا عام ١٧٧٥م وكان صاحب الفضل فيها عالم طبيعي يدعونه «جريفيث هو جيز» أثناء عرضه لتاريخ المنطقة الطبيعي ، في كتاب سماه « التاريخ الطبيعى لبربادوس» وهي جزيرة من جزر الهند الغربية !! .

وفي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تواترت أوبئة الحمى الصفراء على هواها دونما رقيب أو حسيب ،تتحكم في مصائر البشر ، وتكتب لهم تاريخهم ، وتتابعت موجاتها حتى أنهم عدّوا منها مابين سنتى ١٧٠٢ - ١٨٧٨م مائة واثني عشر وباء عام ١٧٩١م الذي أصاب «فيلادلفيا »بجنوب الولايات المتحدة الأمريكية ، فكان الناس يخاف بعضهم بعضاً فيغلقون على أنفسهم الأبواب ، ويتجنبون السلام والمصافحة فيما بينهم ، ومع هذا فالإحصاءات ترصد وفاة عُشر سكان ولاية



«نيو أورليانز »فمات مايزيد عن ثمانية آلاف شخص ،بل ويقال إن الإمبراطور «نابليون الثالث »حين فكر في غزو المكسيك بعد أواسط القرن التاسع عشر سنة ١٨٦١ - ١٨٦٧م ، حط رحال جيشه في المستعمرة الفرنسية «سانت دياجو» فكانت الحمى الصفراء له بالمرصاد ،فلم تبق له من جيشه ولم تذر إلا الجزء الضئيل ، مما اضطره إلى

أن يبيع للولايات المتحدة ولاية « لويزيانا » ويحمل متاعه ويرحل ، وتبخرت أحلامه في إمبراطورية المكسيك التي كان يخطط لها منذ زمن ويحلم .

لقد كان الحمى الصفراء شغل الجميع الشاغل ، وهموم الناس كلهم ، حتى أن أديباً كبيراً مثل «نوخ ويبستر» « مؤلف قاموس ويبستر الشهير » كتب في الأيام الأوائل لإنشاء الجمهورية الأميركيةفي نهاية القرن الثامن عشر يقول :

« في عام ١٧٩٥م عندما اشتدت الحرارة والرطوبة ،انتشرت معها الحمى الصفراء في نيويورك ،عندها اختفى الذباب وظهر البعوض بكميات ضخمة ، فالذباب يتكاثر في الجو الحار الجاف فيما يفضل البعوض جواً حاراً رطباً ،ومن المعلوم أن تكاثر البعوض يجعل الهواء غير صحي » .

حقاً لقد كانت قناعة الناس أن الهواء الفاسد هو سبب المأساة ، ولكن مالذى يجعل الهواء فاسداً ؟

بعضهم يؤكد أن جثث الكلاب والقطط والخيول المتعفنة هي السبب ، فيما يذهب بعضهم الآخر إلى أن القطط بالذات منها أنواع معينة هي السبب في المأساة ، ولكن آخرين يؤكدون أن البرتقال والموز منها أنواع هي التي تفسد الهواء .

ولكن اتجاهاً آخر كان يحمل سر الوباء إلى تيار الخليج الدافىء القادم من الجنوب ، والذي يخالط مياه الشواطىء الأميريكية ، فيرد عليهم آخرون بقولهم ، إن الطين الملوث في أحواض السفن هو أصل المأساة هكذا . .

في جو من الجهل المطبق كهذا الجهل وتحت مظلة من الخرافات والقناعات الخاطئة كانت تترعرع الأوبئة ،فلا يعرف لها الإنسان لوناً ولارائحة ولاطعماً كماهو الماء ، اللهم إلا الحمى والاصفرار والقيء المدمم ثم الموت بعدها ، لهذا نصحوا بحبوب الخردل ، وشرب السيجار مع قليل من الخمر !! .

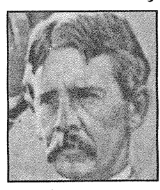
ولم يتورعوا عن إطلاق المدافع الكبيرة في الشوارع لطرد الهواء الفاسد المسمم !! .

وفي كوبا يؤمنون أن عقداً من الثوم به ثلاثة عشر فصاً يلف حول العنق لمدة ثلاثة عشر يوماً ثم يلقي به صاحبه من خلف ظهره في منتصف الليل دون أن ينظر إليه عند التقاء ناصية شارعين ، هو ضمان أكيد للشفاء من اليرقان .

بل ربما ذهب بعضهم إلى وصف ابتلاع عنكبوت حي لمن يطلب الشفاء من اليرقان !! .

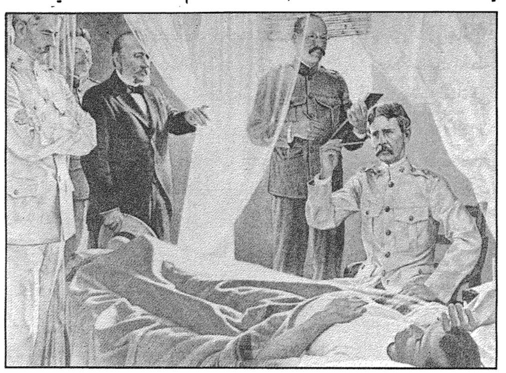
هذه كانت قناعات الناس في القرنين السابع عشر والثامن عشر بل وفي القرن التاسع عشر إلى أن انتهت الحرب الأميركية الأسبانية عام ١٨٩٩م التي شغلت القوم ، فإذا بهم أمام عدو مشترك فتاك يبدأون الحرب معه متكاتفين متحالفين ،ذلك هو الحمى الصفراء التي أفشلت تطلعات المهندس الفرنسي « فرديناند دي ليسبس » قبل ربع قرن تقريباً .

وكان هناك طبيب كوبي اسمه «فنلي» على دراية بالحمى الصفراء في حدود ماكان عليه أهل زمانه ، وزاد عنهم بقناعته أن بعوضة «الايدس ايجبتاي» مما عربوها فصارت بعوضة «عايدة المصرية» هي ناقلة أسباب المرض من إنسان لآخر ! . .ربما لم يكن يملك الدليل القاطع الذي يقنع الوسط الطبي بما ذهبت إليه قناعته ، ولكن اهتمام الولايات المتحدة الاميركية بشق قناة بنما ، وشراء حقوقها من حكومة بنما كان لابد أن يسبقه استعداد صحي ، حتى لايقع الأميركان في الخطأ نفسه الذي وقع فيه الفرنسيون من قبل ،فأرسلوا الرائد «ولتر ريد» لتقصي أسباب الحمى الصفراء ودراستها ، وتمهيد الطريق أمام المهندسين وعمالهم ممن يقومون على شؤون الحفر .



ويبدو أن «ريد »كان يميل إلى قناعة الطبيب الكوبي« فنلي » الذي قضى عشرين سنة من حياته في تربية البعوض ودراسته لإثبات نظريته ، ولكن دون جدوى ، لهذا قام الرائد «ريد »بالمهمة مع فريق من الأطباء العاملين في مدينة «هافانا »في كوبا ،وأجروا تجاربهم على المتطوعين الذين كان منهم طبيب اسمه (لازير) أجرى

التجربة على نفسه ،إذ سمح بأن تلدغه بعوضة مريضة ،فأصيب بالمرض ومات بسببه في الخامس والعشرين من سبتمبر عام ١٨٩٠ ، لهذا لم يتردد «ولتر ريد» في إعلان



قناعته بدور بعوضة «الايدس» في نقل مرض الحمى الصفراء ،غير أن هذا كله لم يمنع جريدة مرموقة مثل «الواشنطن بوست» ،من أن يطلع رئيس التحرير فيها بافتتاحية عدد يوم ٨ نوفمبر عام ١٨٩٠م ليقول : «كثر الكلام أخيراً عن موضوع الحمى الصفراء إلى درجة كبرى ، ولكننا لايمكننا أن نجد فيما نشر أو قيل أسخف أو أحمق من هذا الهراء الذي يدعى بأن البعوضة هى سبب هذه الحمى» ! .



كما علقت الصحف الأسبانية على أمر المتطوعين بقولها «أمر رهيب حقاً ، ومع هذا فهو قتل مع سبق الإصرار» .

على أي حال فإن هذه المعارضات هي أمر مألوف لكل ماهو جديد في العلم ،لهذا فإن النقد والمعارضة اللذين لاقاهما «ريد» وصحبه لم تقل

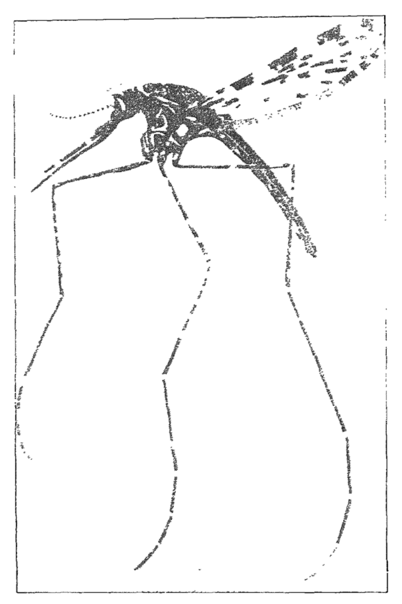
من همتهم، وعقدوا العزم على حرب البعوض ماداموا يتطلعون إلى إعلان الحرب على الحمى الصفراء .

وقد قام بهذه المهمة طبيب في الجيش الأميركي يدعونه «وليم جورجاس»، بدأ بالتجربة في مدينة «هافانا» عاصمة كوبا عام ١٩٠١م فما نجحت الخطة خلال ثلاثة شهور اتبعها بالحملة على البعوض في منطقة أعمال حفر القناة في «بنما» عام ١٩٠٤م ومن الطبيعي إنها لم تسر في هدوء ، وكان لابد من المعرضة المعتادة التي كانت تعترض المسيرة الطبية بين حين وآخر ، إلى أن تم حفر القناة في عام ١٩١٤م بطول يتراوح بين خمس وستين كيلو متراً واثنين وثمانين كيلو متراً .

ولعل من أطرف ماصادفته حملة استئصال البعوض أنه كان يعشش في مستشفى «إنكون» بمدينة «بنما» بغزارة ، واتخذ منه وكراً ، لهذا كان المرضى الذين يدخلون المستشفى لأمراض هينة خفيفية يخرجون منه مرضى بالحمى الصفراء ، ولقد اكتشف فريق المكافحة أن المنطقة تعج بالنمل الأبيض لهذا كانت إدارة المستشفى تضع أرجل أسرة المرضى في علب مملوءة بالماء ، وكانت هذه العلب هي المكان المفضل ليبيض فيه البعوض ويتناسل ، لهذا كانت أسِرة المرضى مستودعات لبعوض «الإيدس ايجبتاي» المشحون بأسباب المرض وكأنها قنابل موقوتة .

لقد ثبت أن بعوضة الأيدس هي ناقلة المرض حقاً ولكن ماهو سببه ياترى ؟

لقد قال الرائد «ريد» إنها أحياء دقيقة وصغيرة جداً ، فطلع طبيب ياباني الأصل أميركى الجنسية اسمه «نوجوشي» بإدعائه أنه قد كشف السبب ولكنه لم يكتشفه بل اكتشف لولبيات لمرض آخر يسبب اليرقان يدعونه مرض «ويل» ، والغريب أن نجوشي هذا قد مات بالحمى الصفراء فيما بعد أن ادعى أنه عرف سببها ، ولم يكتشف السبب حقاً سوى طبيب انجليزى اسمه «سنوكس» كشفه عام ١٩٢٧م في أفريقيا ومات به في العام التالي ، والسبب فيروس من الفيروسات ، غير أن هذا كله لم يكن يعنى شيئاً



بالنسبة للناس ، لأن وقايتهم من المرض هي الأكثر شأناً ،وهي ضرورة تحتمها الحقيقة التي اكتشفها العلماء وهي أن البعوض يعشش في الغابات ،وهو من نوع «هومو جوجاس» بمثل مايعشش بعوض «الأيدس ايجبتاي» داخل المنازل أو قريباً منها ، وضحاياه في المدن يقابلهم القرود في الأدغال سواء بسواء ، لهذا كان ابتكار التطعيم عام ١٩٣٦م نصراً للطب ضد الداء الوبيل ، وهو طُعم بفيروسات مروضة

تسمى «١٧-د» «D-17» أخذوها من مريض أفريقي اسمه «اسيبي» ، وقام على تحضير الطعم طبيب أفريقي من جنوب أفريقيا اسمه «ماكس ثيلر» روضه بتكرار زراعته حتى فقد ضراوته فيما هو لا زال محتفظاً بقوة تمنعه ، لهذا استحق جائزة نوبل لعام ١٩٥١م . وقد يكون طريفاً لو عرفنا أن أنثى البعوضة وليس الذكر هي التي تقوم بالمهمة في لدغ الناس وإمراضهم بعد تلقيحها ، وتكون ناقلة للمرض بعد أسبوعين تقريباً لتبقى خطره ، ناقلة له بقية حياتها على مدى شهر أو شهرين فيما مدة الحضانة للفيروس عند الإنسان تتراوح بين ٣-٩ أيام ، لهذا كان التطعيم فعالاً بعد أسبوع من تعاطيه ، ثم تبقى مناعته فعالة عشر سنوات متتالية ، فيما مناعة المرض الطبيعي هي أبدية مدى الحياة .

بعد هذا يبقى السؤال حائراً هو : هل انتهت قصة الحمى الصفراء ؟

والجواب يأتينا من السودان ليقول إنه في عام ١٩٤٠م أصيب بها خمسة عشر ألفاً ، يأتينا من أثيوبيا ليؤكد أنه فيما بين سنتى ١٩٦٠ و ١٩٦٢م شاعت الحمى الصفراء في أثيوبيا ، وأصيب بها مائتا ألف مات منهم عشرون ألفاً .

إنها الحقيقة الصارخة بأن الحزام الاستوائي والمداري في أفريقيا وأميركا فيما بين خطي ١٢ درجة شمال خط الاستواء و ١٠ دوجات جنوب خط الاستواء ، لا زال موبوءاً بالحمى الصفراء وبعوضها المميز . لهذا كان التطعيم واجباً وقائياً لاحيلة لإنسان أن يتجنبه إذا ماطلب الأمان لنفسه ولأهله ووطنه ، وذلك إذا كان طريقه يمر بين هذه الخطوط الصفراء .

الفصل السادس

التيفوس

التيفوس TYPHUS

مرض القمل

لقد اختلطت الأوراق في ماضي الزمان ، وكان صعباً على الناس تمييز هذا الوباء من ذاك ، إذ كانت الأمراض عندهم عقاباً لهم على أعمالهم ، يتزعمها جميعاً وباء الطاعون ، حتى أصبح اسم الطاعون عندهم مرادفاً لكلمة وباء والعكس هو الصحيح أيضاً .

لقد غلف الجهل عقول أناس ذلك الزمان ، فلم يكونوا يميزون بين الحصبة والجدري ، والتيفوس والطاعون ، وفي هذا يبدو الأمر صعباً علينا نحن وإياك ، أن نرصد التيفوس منذ بدايته من بين أسرة الأمراض ، ولكننا نؤكد عن يقين أن وجوده كان قديماً قدم الزمان ، مادام هناك قمل ، وكان هناك أوبئة .

ربما لم ترصد أوراق الطب ولا تاريخه، بالرغم من تناولها أوبئة عديدة ، فتكت بالناس ، وأهلكت منهم خلقاً كثيراً مثل مرض التيفوس .

ولكن الرواة القدامى لم يأتونا بوصف لصورة الوباء التي تميز التيفوس عن غيره ، ولعل أول إشارة نتبين فيها ملامح وجه التيفوس ، الذي تميزه أعراضه وعلاماته من صداع وحمى وطفح نزفي صغير تحت الجلد ، إنما كانت في القرن الخامس عشر وما بعده ! .

من هنا تجدنا عاجزين عن رصد حركات هذا الوباء الوبيل ، ولاحيلة لنا إلا في أن نرصد تاريخ القملة والبرغوث والفأر ، فهي رسل المرض والشقاء التي نقلته إلى الإنسان .

ومادام هناك قملة وبرغوث وبرغوث وفأر منذ قديم الزمان ، فلابد أنه كان هناك التيفوس في صحبتهم ، وإن كان جهل أجدادنا الأوائل قد ألبسه قناعاً كان يخفي علينا ملامحه .

لهذا تكون القملة والبرغوث أدلاءنا على درب التاريخ في بداية الأمر ، حتى نصل إلى مشارف القرن الخامس عشر ، لنسير على درب لــه ملامـح واضحة وراء وباء التيفـــوس .

لو أخذنا برأى القائلين بالتطور فإننا نجد الحشرات جميعاً أقدم من صاحبها الإنسان بملايين السنين ، فقد كانت الحشرات تسود وجه الأرض على مايقولون ، منذ ثلاثمائة مليـون عـام ، فيـما بدأ أول مخلوق يتحلى بملامح بشـرية ، أطلقـوا عليـه اسم «هوموسابين» (الإنسان العاقل) منذ مليون عام واحد فقط أو أقل بقليل .

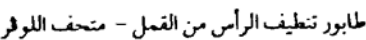
الذين يجتهدون في أمر الأحياء يؤكدون أن الحشرات تسجل ثلاثة أرباع عالم الأحياء على وجه الأرض ، إذ تبلغ أنواع الحشرات ٧٥٠ ألف نوع ! ألفان منها من أنواع البراغيث ، و ٣٢٥٠ من أنواع القمل ، ولكن الأنواع البشرية منها لاتعد إلا ثلاثة فقط ، هي قمل الرأس ، وقمل الجسد ، وقمل العانة .

يقولون أيضاً فيما يقولون ، إن القمل في مطلع حياته الأولى كان طياراً بجناحين ، وحين عرف صحبة الإنسان تخلى عن أجنحته ، بعد أن وفر الاستقرار له حياة طفيلية سهلة على جسم ، تكفيه مشقة الكفاح ، وكما كان في بدايته عضاضاً ، صار بعض منه حين تطور فيما بعد ، مصاصاً للدماء .

لقد اختلف أصحاب العلم حول صحبة القملة للإنسان ، وحول معرفة البرغوث للمخلوقات البشرية ، ولكنها ولاشك أمر قديم .

فالموميات المصرية قد تجد على بعضها هياكل حشرية ، تؤكد أن





طابور تنظيف الرأس من القمل - متحف اللوفر



بعض الناس كانوا مقملين ، ولكنهم يتهمون بني اسرائيل ، ويحملونهم وزر العدوى لأهل مصر بالقمل .

على أية حال فلم يكن المصريون على قناعة بالقمل كغيرهم من الشعوب ، لأن كهنتهم كانوا يعمدون إلى حلاقة رؤوسهم دوماً ، وإلى الاستحمام أربع مرات في اليوم الواحد ، مرتين منها صباحاً ، ومرتين مساء ، كل هذا خوفاً من القمل ومن لعنته . هذا هو ماقاله المؤرخ « هيرودتس » ، وماسجله في قراطيسه ، غير أن الاغريق أو الرومان من بعدهم لم يتركوا لنا أثراً نستدل به على هذا الأمر ، سواء عن أخبار الحشرات ، أوعن أخبار التيفوس ، لهذا سنقفز معك إلى القرون الوسطى ، لنجد أن الناس جميعاً في ذلك الزمان كانوا كلهم مقملين كبيرهم وصغيرهم ، ملوكهم وصعاليكهم ، لهذا لاغرابة إذن أن تكون العصور الوسطى هي العصور الذهبية لأوبئة التيفوس ، ويكون لها من الضحايا خلق كثير ، حتى قيل فيه إنه المرض الذى رسم خارطة الأمم والشعوب ، وكتب تاريخ الدول والمماليك .

في البداية ، علينا أن نعترف أن التيفوس كان في ماضي الزمان مرض القوارض التي تتزعمها الفئران والجرذان ، وكان في يوم ما أن حمل برغوث الفأر أسباب المرض لأقرب إنسان إليه ، ومن بعده تولت المهمة قملة الإنسان ، تنقل المرض من مريض إلى آخر سليم ، لهذا تبدأ القصة بمرض تيفوس القوارض أو التيفوس المتوطن كما يسمونه ، ثم تنتهي بالتيفوس الوبائي بين الناس ، تنقله القملة فيما بينهم ، إذ تتبرز على جسم عائلها ، وبهذا تبذر برازها الملوث على خدوش الجلد ، التى يفتعلها الإنسان بالحكة والهرش بواسطة أظافره الطويلة القذرة .

وإذا كنا لم نميز ملامح التيفوس في ماضي الزمان لجهل أو إغفال عانى منه قدامى المؤرخين ، فإن حصار غرناطة في نهاية القرن الخامس عشر ، يسجل لنا أول إشارة مدونة عن وباء التيفوس ، الذي أصاب الأسبان من جيش فرديناند وايزابيلا ، كما أصاب المسلمين المحاصرين معهم أيضاً ، وبهذا ربما كان التيفوس من أهم عوامل سقوط المدينة الإسلامية العريقة في اليوم الثاني من شهر كانون الثاني (يناير) عام ١٤٩٢ ،

ولكن البلية وشر البلية مايضحك أن الملك فيليب الثاني أمر بهدم حمامات المدينة فيما بعد ، قناعة منه بأن حمامات المسلمين كانت السبب في هذا الداء القاتل ، وكان الأسبان ينصحون الناس بعدم الاستحمام حتى لايعود الداء إليهم ، وينتشر الوباء بينهم بعد أن مضى وولى .


يوم النظافة للفنان موريللو ١٦١٨ - ١٦٨٢م - في محفوظ بمدينة ميونخ

هذه القناعات ليست غريبة على قوم استوطن الجهل عقولهم ، إذ كانوا يعتقدون في ذلك الزمان أن القمل يمنح الصحة والعافية ! لهذا كانت كل أم تعمد إلى عدوى أطفالها بالقمل طلباً لصحتهم وعافيتهم .

ولعل أطباءهم كانوا على قناعة أيضاً بأن القمل يشفى من أمراض عدة منها اليرقان (وهو مرض الكبد) ، لهذا كانوا ينصحون المرضى بأن يسقطوا ١٢ قملة في قدح النبيذ ليشربوه دفعة واحدة طلباً للشفاء .

إننا لاننسى كتاباً اسمه « الأسرار النادرة في الطب » كتبته طبيبة يدعونها « اليزابيث جراي» عام ١٩٥٤ ، تقدم فيه نصيحة لعلاج العيون الملتهبة وتقول :

« لعلاج التهاب العيون خذ قملتين أو ثلاثا من رأسك وضعها تحت جفونك المريضة» ، هذه الوصفات التي تبدو لنا نشازاً في عُرف طب اليوم كانت مقنعة لأهل ذلك الزمان الذي كان يرى أن القمل ينقى الدم من السموم التى تفسده » .


تنظيف الرأس من الحشرات

لهذا كان القمل مستحباً ومألوفاً في ذلك الزمان الذى كان فيه الاستحمام مكروهاً ومنبوذاً ، بل هو في قناعة رجال الدين يومذاك حرام ليس من الإيمان في شيء ، فهو يشغل الإنسان عن عبادة الرب .

لقد كتب شاهد عيان عن مقتل رئيس أساقفة كنتربرى «توماس بيكيت» أيام الملك «هنري الثاني» في يوم التاسع من ديسمبر عام ١١٧٠ ، يقول : «عندما قتل توماس بيكيت » في إنجلترا في الكاتدرائية عام ١١٧٠ ، كان يلبس مجموعة من الملابس الغريبة إذ كان يتغطى بدثار بنى اللون ،تحته حلة كهنوتية ، تحتها معطف من الصوف ، وتحته حلة كهنوتية سوداء ،ثم قميص من الشعر المغطى بالكتان » .

وعندما فقدت الجثة حرارتها ، أخذ القمل يزحف منها إلى الخارج وكأنه فقاقيع الهواء تخرج من ماء يغلي ، لقد كان المتفرجون يبكون تارة ويضحكون تارة أخرى هذه بعض ملامح الصورة التي شكلها الجهل ، لدرجة أن القملة أصبحت شعاراً فيه عادات وتقاليد ذلك الزمان ، والناظر لدورات الهواء القديمة التي تعود إلى تلك الفترات سوف يجد بعضها على شكل قملة تحدد للناس اتجاه الرياح !! .

مقتل توماس بيكيت

قد لايصدق بعضنا لو قلنا إن التيفوس هو الذي فك حصار مدينة «نابلي» ، حين أحاط بها جند «فرنسيس الأول» محاصرين قوات الإمبراطور« شارل الخامس » ، وكان الفرنسيون ذوي بطش وقوة وعتاد كثير ، وحين حاصروا المدينة في نهاية عام ١٥٢٧ ومطلع العام التالي بجيش قوامه ٢٩ ألفا من الجند ، كان قرار الإمبراطور «شارل الخامس» ان يستسلم لهم ،لأنه ليس لجيشه طاقة بمقاومتهم ،لولا أن بدأ وباء التيفوس فى مطلع شهر يوليو يصيب الجيش الفرنسي ،وماهي سوى أيام حتى صار قوام هذا الجيش أربعة آلاف فقط . صدق من قال إن التيفوس هو الذي فك حصار نابلي عام ١٥٢٨ ، وهو الذي توج «شارل الخامس» إمبراطور على إيطاليا والدولة الرومانية في بولونيا بعد ذلك .

صورة أخرى من التاريخ رسمها التيفوس بيده الأثمة كانت فيما بين ١٨١٨ - ١٨٤٨ وهي التي سماها المؤرخون حرب الثلاثين التي اختلط فيها الحابل بالنابل ،

وكان محور رحاها وسط أوروبا حيث تقوم ألمانيا وهنجاريا لم تكن حرباً واحدة ولكنها كانت عدة حروب متتابعة ، تتخللها معاهدات ومهادنات غير مستقرة هشة .

ليس مهماً من هو الذي انتصر في هذه الحرب القذرة ، التي اتسمت بالقسوة والشقاء ، حتى سماها بعضهم بسجل الشقاء ، لأن الجميع قد عانى منها ، وانهزم فيها أمام عدو شرس مشترك هو التيفوس ، الذي أطلقوا عليه أيامها اسم المرض الهنجاري ، بمثل ماأطلقوا على هنجاريا اسم مقبرة الألمان ! .

لقد كان الجنود يقطعون أثداء النساء ، ويلقون بالأطفال من النوافذ ، ويبقرون بطون الحوامل ، غير أن وباء التيفوس قد انتقم من الجميع لأنه قتل من الطرفين أكثر مما أبادت الحرب ، وأكثر مما فعلت أيدي الجنود بالأبرياء .

ثم كان أن تلتها حرب القرم بين الروس من جانب والأتراك والانجليز والفرنسيين من جانب آخر .

إن الحديث عن قذارة هذه الحرب وأهوالها يهون أمام قسوة المرض والأوبئة التي تفشت فيها ، والتي يحمل لواء الزعامة فيها وباء التيفوس .

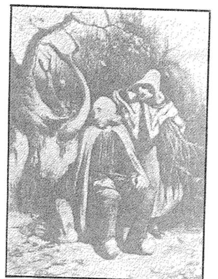
لعل الإحصائية التالية ترسم لنا صورة كاريكاتيرية لهذه الحرب ، التي استمرت فيما بين سنوات ١٨٥٣ - ١٨٥٦ .

قد لاتهمنا الأسباب في هذا المقام ولكن الذي يهم هو النتائج ، وهذه هي إحصائية النتائج لتلك الحرب التي دارت في شبه جزيرة القرم على البحر الأسود .

	جرحى	قتلى	مرضى	وفيات مرضية
فرنسيون	٣٩٨٦٩	٢٠٣٥٦	١٩٦٤٣٠	٤٩٨١٥
انجليز	١٨٢٨٣	٤٩٤٧	١٤٤٣٩٠	١٧٢٥٥
روس	٣٢٣٨١	٣٧٩٥٨	٣٢٢٠٩٧	٣٧٤٥٤

وبمقارنة الأرقام للقارىء أن يستوعب الصورة القبيحة لحرب القرم إذا ماعرفنا أن مجموع عدد الجرحى جميعاً كان (٩٠٥٣٣) ، فيما كان عدد المرضى هو (٦٦٢٩١٧) ، كما أن عدد قتلى الحرب جميعاً هو (٦٣٢٦١) ، كما أن عدد ضحايا المرض كانوا (١٠٤٤٩٤) ، صحيح أن الجند كانوا يتقاتلون معاً فيما بينهم ، ولكنهم في الحقيقة كانوا جميعاً يصارعون الوباء صفاً واحداً وعبثاً ماكانوا يفعلون ! ويبدو للمتتبع لأخبار التيفوس أنه عقد هدنة مع البشر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، لينقضها في مطلع القرن العشرين مع بداية الحرب العالمية الأولى ، وبالتحديد عام ١٩١٤ ، حينما اجتاحت النمسا في شهر يوليو أراضي الصرب ، ووصلوا بقواتهم إلى مدينة بلغراد ، ليعملوا فيها إتلافاً وتدميراً ، وعندها استفاق التيفوس من نومه ، الذي دام نصف قرن من الزمان في شهر نوفمبر ، فمات به من الصرب ١٥٠ ألفاً ومن النمساويين ٦٠ ألفاً .

لقد تميز وباء التيفوس بإصابته الجنود القابعين على الحدود في الخنادق ، لهذا لاعجب أن سموه حمى الخنادق ، وهو الذي حمى حدود بلاد الصرب في تلك الآونة ، غير أن هذه المئات من الآلاف تهون وتبدو متواضعة ، إذا ما عرفنا أن التيفوس أصاب في بلاد الروس ٢٥ مليوناً ، مات منهم ثلاثة ملايين خلال حرب القرم .



ربما كانت حكاية التيفوس والحرب العالمية الأولى نهاية القصة . غير أن علينا أن نعترف أن الذي كتب النهاية هم العلماء ، الذين اكتشفوا سر التيفوس وسر القملة معه ، لقد كتب النهاية السعيدة لأوبئة التيفوس عالمان يستحقان التبجيل أحدهما بكتريولوجى فرنسي يدعونه نيكول « شارلز هنرى نيكول ١٨٦٦ - ١٩٣٦ »، هو الذي كشف دور القملة في نقل ميكروبات المرض

عام ١٩١٠ ، حين وجده في جدار معدتها وفي برازها .

أما الثاني الذي أزاح القناع عن وجه الميكروب الضاري الشرس ، فهو طبيب فرنسي آخر عاش في ألمانيا اسمه « ريكو ليم » ، « هنرى دى ريكو ليم » .

إذ أنه اكتشف عام ١٩١٦ نوعاً من الجراثيم هي وسط بين الميكروبات والفيروسات اطلق عليها اسم « ريكتسيا بروفازيكى » وهذا الاسم نسبة إلى عالمين أحدهما يدعى «ريكينس » ، وهو عالم أميركي مات بالتيفوس في المكسيك ، والآخر نمساوي كان اسمه « فون بروفازيك » ، لقد سماه تحية لها وتخليد لعملهما ، لأنهما ماتا بسبب التيفوس في القرن الثامن عشر ، وهما يحاولان اقتحام قلعة أسراره ، عند هذا الحد طلعَ النهار على وباء التيفوس ، فلم يملك إلا أن يسكت ويكف أذاه عن البشر ، بعد أن اكتشف الطب إن النظافة هي أمضى سلاح ، وبعد أن وصل العلم إلى اختراع المبيدات الحشرية ، فلم يعد هناك مكان للقمل ولا للبراغيث .

الفصل السابع

السـل

السـل TUBERCULOSIS

المـوت الأبيض

يقول الشاعر الانجليزي « كيتس » الذي يعد أشهر شعرائهم بعد شكسبير هذه الأبيات :

« ففى أكثر من مرة

كنت نصف عاشق للموت الهادي

والآن يبدو الموت ثروة أكثر من أي وقت مضى

الموت فى منتصف الليل دون ألم . . »

لقد استجاب الله لتطلعات الشاعر الرومانسي فرحل عن دنياه عام ١٨٢١ ، وهو في ميعة الصبا ، بعد أن احتفل بعيد ميلاده السادس والعشرين . . رحل برفقة مرض له تاريخ أو فلنقل تاريخ له مرض إن صح هذا التعبير للدلالة على مرض السل .

كل الذي نعرفه عن السل أنه مرض عتيق . . عتيق جداً في صحبته للمخلوقات ، ولكن لاأحد يعلم متى بدأت هذه الصحبة ،فهو مرض كل الحيوانات قاطبة ، بل لكل حيوان منها «سل» خاص به .

وهو مرض كل الأعضاء قاطبة ، ففى كل عضو له موضع ومستقر .

ففي مقبرة وجدوها في ألمانيا بناحية يدعونها «هايدبيرج» ، تعود بتاريخها إلى العصور الحجرية ، عثروا بداخلها على هيكل عظمي لشاب من شباب ذلك الزمان الغابر ، يبدو عليه إنه كان يعاني من سل العظام ممايطلق عليه في هذا الزمان اسم مرض «بوت» سموه هكذا نسبة لإسم أول من وصفه وصفاً دقيقاً مفصلاً .

فقد اكتشف المختصون تآكلاً فى الفقرات الظهرية التي صمدت أمام عوادي الزمن ،

وهما الفقرتان الرابعة والخامسة من العمود الفقري لسلسلة الظهر ، التي قدروا عمرها بحوالي ستة آلاف عام .

الصورة ٧٩ ذاتها وجدوها في إحدى المقابر المصرية القديمة التي يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف عام ، قبل ولادة السيد المسيح ، وهو زمن الأسرة الفرعونية الحادية والعشرين ، التي حكمت مصر في ذلك الزمان ، إذ أنهم وجدوا بين ما وجدوا إحدى المومياوات المصرية التي اشتهرت بها عهود الفراعنة القدامى ، وقد قالوا عنها : إنها للكاهن (آمون) حين فحصها طبيب انجليزي متخصص اسمه «مارك روثر» عام ١٧٧٩م ، أكد أن الكاهن (آمون) كان يعاني في حياته من مرض بوت (سل العظام) .

ليس الكاهن (آمون) وحده الذي كان ضحية للسل أيام مصر القديمة ، بل كان معه آلاف مؤلفة من المصريين القدامى وقعوا بين براثن المرض ، هكذا أعلن طبيب انجليزي يدعونه «جرانتون سميث» عام ١٩١٠م حين تصفح بردية فرعونية يطلقون عليها اسم بردية «ايبرس الطبية» .

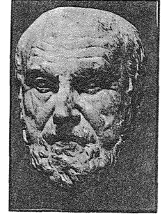
بل لعل مقبرة عثروا بداخلها على عديد من عظام بشرية مريضة ، توحي بأنه كان هناك مصح للسل يتعالج فيه المرضى بالسل ، أو هي مقبرة لأسرة واحدة كان السل أحد أفرادها ؟ ! لا ندري .

لم يكن السل قاصراً على أهل مصر القدامى بل كان مشاعا بين كل الشعوب القديمة ، لهذا أشار إليه «حمورابي» ملك بابل القديم في شرائعه التي نقشها علي الحجر ، ولكن دونما تفصيل أو بيان .

وفي شبه الجزيرة الهندية كان السكان هناك يعانون من علة الدرن ، حتى أن شرائع «مانو» التي قننت لهم عاداتهم وتقاليدهم ، كانت تحذر الشباب من الزواج بالمرأة

المريضة بالسل لأنها «علي حد تعبير مانو » هي امرأة غير نظيفة ، وإهمال النظافة دليله هو مرض السل ؟ ! .

والتاريخ يدفعنا إلى أرض الإغريق حيث نلقى طبيبهم الأشهر «أبقراط» ، الذي عاش قبلْ أربعة قرون في جزيرة لهم اسمها كوس ، وهو يحكي لتلاميذه ، مرض أطلق عليه اسم السلال Phthisis «فثيسز» وهي كلمة في لغتهم تعني الضعف والهزال ، وكأنه بهذا كان أول من أعطى المرض اسماً في التاريخ سار مع الأيام عبر الزمن حتى يومنا هذا .



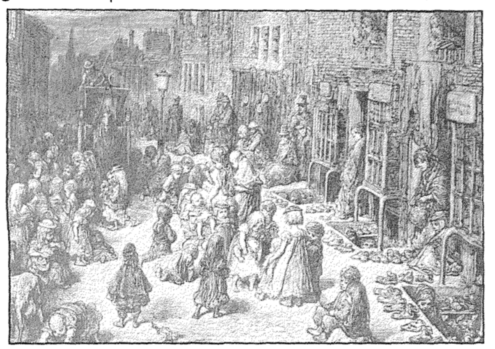
بعد «أبقراط» جاء طبيب في روما ، له على الطب فضل كبير ، يدعونه «جالينوس» عاش ١٣٠ بعد الميلاد وكتب عن هذا المرض الذي سماه «أبقراط» بالسلال ، مؤكداً أن سببه انسداد داخل الرئتين .

كتابات «جالينوس» لاتتوافر لنا ، ولكن كبار الأطباء المسلمين الذين استوحوا تعاليمه واقتبسوا أفكاره ، خلفوا لنا كتباً عظيمة تؤكد معرفتهم الدقيقة الواسعة بهذا المرض ، وتوحي بأنه كان مرضاً شائعاً في زمانهم ، فهذا «أبوبكر الرازى» مثلاً (المتوفى عام ٩٢٥) بعد الميلاد كتب في الجزء الرابع من كتابه الشهير «الحاوى في الطب» يقول: « وقد رأيت أن السل يحدث لقوم بدون أن يتقدمه نفث ألبتة وذلك يكون في الندرة ، كان أكثر من يقع في السل هو الزعر ، البيض ، النمش ، المجنحون ، والنساء أشد وقوعاً في السل من الرجال . . .الخ » .

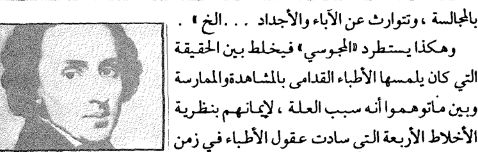
هكذا قال الرازي ، ومن بعده جاء الطبيب الكبير الشيخ الرئيس «ابن سينا» (ابو علي حسين بن عبد الله المتوفى عام ١٠٣٦م) فكتب في المقالة الرابعة من الفن الخامس عشر في الجزء الثاني من الكتاب الثالث من كتابه «القانون في الطب» فصلا في المستعدين للسل في الهيئة والسحنة والبلد والمزاج - هؤلاء هم المجنحون الضيقو الصدر العراة الأكتاف من اللحم ، وخصوصاً من الخلف المائلو الأكتاف إلى قدام بارزة وكأن للواحد

منهم جناحين » . وهكذا يستطرد« ابن سينا» في وصف السل على ماكان عليه طب ذلك الزمان .

ولو عن لنا أن نقتطف بعضاً آخر من كتب الأطباء المسلمين عن هذا الأمر فليكن كامل الصناعة في الطب لصاحبه« المجوسى » المتوفي في عام ٩٨٠م ، والذي كان مرجع الطبابة الرئيسي في مدرسة «ساليرنو الطبية» بإيطاليا بعد أن ترجموه إلى اللغة اللاتينية في القرن العاشر بعد الميلاد « وأكثر مايعرض السل لمن كانت سنه من ثمان عشر إلى خمس وثلاثين سنة ، وذلك لغلبة الحرارة على مزاج هذا السن ، ولأن أعضائهم لينة ، والرئة منهم ألين ، فالمدة تأكلها بسهولة وسرعة . . وينبغى أن تعلم أن هذه العلة تنتقل



بالمجالسة ، وتتوارث عن الآباء والأجداد . . . الخ » .



وهكذا يستطرد «المجوسي» فيخلط بين الحقيقة التي كان يلمسها الأطباء القدامى بالمشاهدة والممارسة وبين ماتوهموا أنه سبب العلة ، لإيمانهم بنظرية الأخلاط الأربعة التي سادت عقول الأطباء في زمن

ظلمة العلم وقبل أن تتفتح العقول على الحقيقة ، وينير العلم طريق الطب الذي استفاق في القرون المتأخرة ، بعد أن ذاع السل وشاع واستفحل أمره عندمقدم مايعرف بعصور النهضة ، التي حملت بوادر التصنيع وما استتبعه من هجرة الناس من الريف إلى المدينة ، حيث الزحام والمعيشة الرديئة التي كانت تفتقر إلى أبسط معاني الصحة ، مما حكى عنه «تشارلز ديكنز »في قصتيه« اوليفر تويست »و «دافيد كوبرفيلد » عن مجتمع الصناعة الذي يستهلك البشرجسداً ونفساً ، بمثل ماتستهلك الآلات وقودها ، لهذا فإن من يرغب في معرفة شيء ماعن مرض السل كان عليه أن يقرأ قصص الأدب ، وروائع القصص والمذكرات التي خلفها لنا أدباء وكتاب القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، عندما طبع السل كافة مناحي الحياة ، وشكل سلوك الناس ، وصاغ مفاهيمهم وأفكارهم ،وصبغ أحلامهم وآمالهم ، لدرجة أن تمنى الكثيرون أن يمرضوا بالسل ،بل ذهبوا إلى أبعد من هذا كما عبر عنه الشاعر الإنجليزي المشهور «بايرون »« كم أتمنى أن أموت بالسل ، حتى تقول عني السيدات ما أجمل منظره عندما يموت !!» فالفنان المثالي في عصر النهضة لابد أن يكون نحيلاً ، ذا وجنات غائرة ، ويموت وهو يبصق دماً في سن الشباب ،وهكذا أيضاً سقط «شوبان» الموسيقار على المسرح بعد أن اختلطت ألحان البيانو الذي كان يعزفه مع تشنجات سعاله المدمم عام ١٨٤٩م وهو في عمر الأربعين بعد أن لقبوه شاعر الموسيقا.



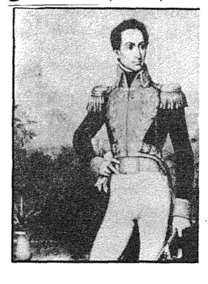
لعل من خصائص مرض الدرن أن يصيب ضحيته بالهزال وصفرة الجلد، فيماتعلو الوجنتين حمرة خفيفة ،مما اعتبره الذوق العام في ذلك الزمان معياراً للجمال ، لهذا فالسل أصبح يلقب بمرض الجمال لهذا السبب .

فكان أن اختار الفنان الإيطالي المعروف «بوتشللى» فتاة في مثل هذه المواصفات

تسمى «سمونيتا كاتارينا» حسناء من مدينة فلورنسا ، لتكون نموذجاً لرسوماته ،



ولكنها لم تعش له طويلاً إذ ماتت بداء السل ولم تتجاوز السابعة عشرة من عمرها ، ولكن الذي عاش هو رسومها التي تحتفظ بها متاحف اليوم في روما وفلورنسا بل إن المحور القصصي كما يسمون بلغة أهل الفن (الحبكة الدرامية) لروائع قصص تلك العصور ، تقوم على إصابة بطلة القصة الشابة بمرض السل ، وتنتهي بموتها كما في غادة الكاميليا مثلاً . . وهكذا .بل لعل من سخرية القدر الكبرى أن يموت الطبيب الفرنسى «لينيك» مخترع السماعة الطبية بداء السل عام ١٨١٩م وهو الذي اخترع السماعة ليكشف بها على صدور مرضاه المصابين بالسل فقد كان طبيباً للأمراض الصدرية .



على أية حال فقائمة المرضى بالسل طويلة لايتسع لها المقام بعد أن سجلت ا لإحصائيات القديمة موت واحد من بين كل خمسة بسبب السل في القرن الثامن عشر ، ثم ارتفعت المعدلات إلى واحد من بين كل أربعة من السكان في القرن الذي يليه .

ويطول بنا الأمر لو أتينا على أمثلة لضحايا السل الذي اكتسب أكثر من لقب يتسمى به ، فبعضهم لقبه «بمرض الجمال» وبعضهم الآخر سماه «الموت البطيء» أو «الموت الأبيض» وهكذا .

وإذا ذكرنا من الأسماء المشهورة التي أدرجها السل ضمن قائمة ضحاياه فسنذكر « سيمون بوليفار» مثلاً وهو محرر أميركا الجنوبية ،وبطلها ورئيس جمهورية بوليفيا وكولومبيا وبنما واكوادور الذي لم يحترم السل عظمته ولابطولاته فاغتاله في عام ١٨٣٠م عندما كان في الأربعينات ، ولنذكر أيضاً بطل مصر الوطني «مصطفى كامل» الذي مات عام ١٩٠٧م ولم يتجاوز عمره الرابعة والثلاثين إذ قتله السل ولم يقتله أعداء مصر الإنجليز . وفي روسيا مات القصصي الكبير والأديب العالمي « تشيكوف » في سن الرابعة والأربعين سنة ، ولم يعمر أكثر من هذا لأن مرض السل قد اختطف سنوات عمره الباقية عام ١٩٠٤م .



هكذا دارت عجلة السل مع الناس ؛وأخذ كل منهم يبحث له عن طريق للخلاص ،لهذا رحل بحار اسمه «ستيفنسون» أصابه السل ليطوف بحار الجنوب بحثاً عن موضع الهواء النقي بعد أن ضاق صدره بالهواء الملوث على ما أعتقد، ولكنه مات فى جزيرة ساموا وعمره أربع وأربعون سنة قبل أن يجد الموضع الذي يبحث عنه .

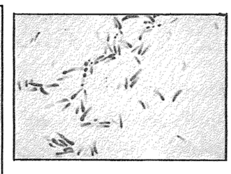
لقد كان مرضى السل في القرن التاسع عشر أبطالاً حقاً حين أرغموا حسب تعاليم الأطباء السابقين على النوم في الهواء الطلق ، أو في غرف بغير نوافذ ، بداعي نشدان الهواء النقي ، بل ذهبوا إلى إسكانهم في أعالى الجبال قناعة منهم بنقاوة هواء الجبال .

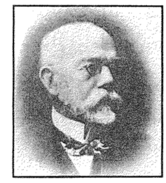
ولعل هذه القناعة جربها طبيب انجليزي كان يعمل في الريف ، فكان عليه أن يتنقل على ظهر حصانه بين مرضاه ، فلاحظ أن المرضى الذين يعيشون فى هواء الريف الطلق هم أقرب للشفاء وأحسن حالاً من المرضى الآخرين ، لهذا أنشأ داراً صغيرة لعلاج

السل مفتوحة الشبابيك ،كذلك عمدوا في ألمانيا في ناحية منها تدعى بالغابة السوداء إلى إقامة معاهد للسل سموها مصحات ، يقضي المرضى فيها يومهم في الشرفات ، وكان من أشهرها مصحة يدعونها «نوردراخ» ثم شاعت فكرة المصحات بعدها وانتشرت في كل أوروبا .

غير أن أطرف ماروي في هذا الصدد هي حكاية الطبيب الأميركي «ادوارد ترودو» الذي كان يعمل طبيباً في نيويورك ،إذ أصيب بالسل عام ١٨٦٠م وقرر لنفسه أن فرصته الباقية له في الحياة هي مدة سنة واحدة فقط ، لهذا قرر أن يقضي ماتبقى له من عمر قصير في المكان الذي أحبه والذي كان يقضي فيه أيام راحته ، فاختار غابة مهجورة فى شمال مدينة نيويورك حيث اتخذ لنفسه مقراً هو عبارة عن كوخ خشبى صغير يقضي فيه أيامه في هواية صيد السمك والحيوانات ، غير أن العام مضى وانقضى ولم يكن حاله بأسوأ مما كان عليه يوم جاء ولم يمت الدكتور «ترودو» كما توهم ، لهذا قرر أن يبقى ويستمر في كوخه ، ومن ثم عاش على هذا المنوال ثلاثين سنة أخرى ، كان فيها وافر الصحة والنشاط فكان هذا هو سر إقامة مصح« اديرونداك »هناك .

غير أن قضية السل سجلت منعطفاً حاسماً حين طلع «روبرت كوخ» الألماني عام ١٨٨٢م باكتشاف سر السل ، وهي عصيات صغيرة عنيدة ، وقد كان هذا بالتحديد في





يوم الرابع والعشرين من شهر مارس من عام ١٨٨٢ م .

كان عمر «كوخ» في ذلك الوقت تسعة وثلاثين عاماً حين طلع على الناس بعد مائتين وسبعين مرة من التجارب والفشل مدة ثمانية أشهر ، فإذا به يلتقي بأخطر ميكروب عنيد في محاولته مائتان وإحدى وسبعين في مستشفى الخيرى ببرلين ، مؤكداً أنه قد عثر علي سبب داء الدرن مما استحق عليه جائزة نوبل عام ١٩٠٥ م .

ثم توالت الضربات القاضية والتي بدأها «كوخ » بمحاولة ابتكار خلاصة الميكروب الذى سماه «تيوبيركيولين» عام ١٨٩٠م قناعة منه بأنه اكتشف العلاج ،لكنه لم يكن بعلاج ولم يحالفه النجاح فى هذه الخطوة ، ولكنها كانت على أي حال خطوة سار على هديها الأطباء من بعده في استحداث اختبار للكشف عن الإصابة بالسل ، فجاء طبيب أطفال نمساوي عام ١٩٠٧م يدعونه «بيركويه» باختبار «التيوبيركيولين» عن طريق وضعه على خدوش يفتعلها في الجلد ، ويضع عليها هذه المادة المستخلصة ، لهذا عرف هذا الاختبار باسم اختبار «بيركويه» . ثم جاء من بعده بعام واحد طبيب فرنسي ، ليطور هذا الاختبار على صورة حقنة صغيرة في الجلد سميت باختبار «مانتو» نسبة إلى اسم الطبيب «مانتو» الذي استحدثها .

طبعاً لن نغفل «لويس باستور» العالم الفرنسي ولا ابتكاره لطريقة بسترة الحليب التي

كان الهدف الأساسي منها هو قتل ميكروبات السل وتعقيم الحليب وتطهيره منها .

كما لن نهضم فضل «رونتجن » الألماني مكتشف الأشعة السينية ، الذي فتح الطريق واسعاً أمام الأطباء بفضل ابتكاره هذا في الكشف على الإصابات السلية في الصدر ، وهي التي تشكل ٨٥ بالمائة من نسبة الاصابات في الجسم .

غير أن منعطفاً آخر في طريق القضاء على السل يتوجب تسجيله هنا ، هو منعطف الوقاية من الداء بفضل ابتكار التطعيم ضد السل مما أطلقوا عليه اسم « بي سي جي B.C.G. » نسبة إلى العالمين الفرنسيين «كالميت وجيرين» Calmette and Guerin، فقد اقتبسوا الحرف الأول من الأسمين وهما سي وجي وأضافوها إلى الحرف الأول من كلمة باسيل فصارت «بي سي جي B.C.G.» لقد تم هذا في معهد باستير بفرنسا عام١٩٢١، عندما زرعا الميكروب الضاري على قطعة من البطاطس ، مشبعة بمحلول الصفراء الممزوج بالجليسرين عدة مرات وصل تعدادها إلى ثلاث وعشرين مرة فإذا به قد فقد ضراوته وأصبح ميكروباً مسالماً لاخطر منه ،ولكنه لازال مكتسباً لقدرته على إثارة المناعة في الجسم .

ومناعة الأجسام ضد السل مناعة متميزة ، حيث إن الجسم يبقى منيعاً ضد أي عدوى خارجية طالما كان فيه بؤرة مرضية سابقة ، مما يعرف عند الأطباء بالانجليزية باسم Premunition مما أعلنه عام ١٩١٢م طبيب نمساوي اسمه «انطوان غون Ghon » ، فسميت البؤرة المرضية الأولى المانعة للعدوى باسمه بؤرة «غون» Ghonfoas وهي بؤرة مرضية حقاً ولكنها مفيدة .

لهذا كانت حقنة «B.C.G. البي سي جي» هي محاكاة لبؤرة غون ، وقد استبدل بالميكروب الضارى الميكروب المروض غير أن «البي سي جي» هذا لم يكن طريقة ممهداً في بداية الأمر ؛ بل أصابته نكسات كادت تقضي عليه منها التي عرفت بمأساة «لوبيك» ، فيما بين نهاية عام ١٩٢٩ وحتى ابريل من العام التالي حيث طعموا مائتين واثنين وخمسين طفلاً بلقاح «البي سي جي» فإذا بالموت العاصف يجتاح واحد وسبعين منهم فيما وقع سبعة وعشرون في براثن المرض غير أن التحقيق قد أثبت إهمالاً في

مختبر «لوبيك» نفسه حيث اختلطت الميكروبات الضارية بميكروبات «البي سي جي» المروضة، ولم يكن السبب في هذا هو التطعيم ذاته، ثم تسلسلت الأحداث من ابتكار العلاج للمرض الذي نأمل له أن يموت كما مات الجدري .

وحديث السل لن يكتمل إذا لم نعرض لمعركة الأسماء فيما بين السل والدرن، إذ إن الإغريق الذين كانوا على قناعة تامة بأن السل هو جفاف وتيبس، يصيب أعضاء الجسم، سموه لهذا فثيسز (Phithesis) وكانوا يعتقدون في السل أنه أنواع ثلاثة ليس غير فإما أن يصيب البنكرياس أو إنه يصيب الكبد أو يصيب الرئتين، وقد ثبت فيما بعد أن ماظنوه سل البنكرياس ما هو إلا مرض الملاريا، فيما ثبت إن ما اعتقدوه سل الكبد ما هو إلا إصابة بالدستاريا الأميبية، أما سل الرئة فقد جاء طبيب يدعونه سيلفيس من مدينة «ليدن» Leyden الهولندية في القرن السابع عشر، وقام على تشريح الرئات المريضة، فوجد فيها بؤرة المرض على هيئة درنات البطاطس، لهذا سمى البؤرة منها درنة مما دفع بالدكتور «شوفلين» Johar Scho Lein عام ١٨٣٩ إلى تسميته بمرض الدرن من بعد نسبته إلى هذه الدرنات ولكن أحدهم في مطلع هذا القرن أعطاه اسماً بديلاً لهذا كله، مستوحياً الأسم من واقع حال المريض وهو اسم الداء المهلك Consumption غير أن هذا الأسم لم يلق رواجاً، وعاد الناس يتبادلون اسم الدرن واسم السل، وماهي إلا أسماء لواقع واحد .

الفصل الثامن

السكـــر



السكر

DIABETES

مرض النافورة

لأمر ما ، وفي وقت ما ، عجز جسم الإنسان عن حسن التعامل مع المواد الكربومائيات من سكريات ونشويات مما تعرف في لغة العلم الأعجمية باسم الكربوهيدرات ، والأصل فيها أن يحلل الجسم هذه المواد المتعددة الجزئيات إلى نوع منها وحيد الجزيء ، يدعى سكر العنب أو الجلوكوز ، ليستغله في إنتاج الطاقة اللازمة له حرارية كانت أم حركية ، ومايفيض عن هذه الحاجة فيحيله الجسم إلى دهون يختزنها تحت جلده ، أو في عضلاته ، مستخدماً في ذلك إفراز ينطلق في الدم من غدة البنكرياس يسمى بالأنسولين .

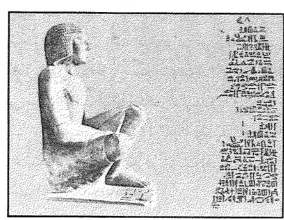
ولأمر ما لما نتحقق منه بعد ، قد يعجز البنكرياس عن إفراز ما يكفي حاجة الجسم من هذا الأنسولين فيتراكم لهذا سكر العنب (الجلوكوز) في الدم ، ويفيض عن قدره الكلي على احتجازه فيتسرب إلي سائل البول الذى يصبح حلواً ،



وكما تزداد كمية البول تبعاً لذلك فينقص ماء الجسم فيعاني صاحبه من العطش الشديد ! وهكذا تقفل الدائرة ، وهي تتناوب بين بوال متكرر وعطش شديد إلى جانب

الهزال لعدم خزن الدهنيات ، والفتور الجسدي مع الضعف ، لعدم إنتاج الطاقة التي ينتفع منها الجسم إذا احترق السكر وهو هنا لا يحترق

هذه الحقائق لم تكن معروفة طبعاً في الماضي ، وكل الذي عرفه أهل الماضي أن المصاب يعاني من عطش شديد وبوال مفرط مع ضعف وهزال وينتهي الأمر بالموت ! .



هذا كل ماخلفه لنا إنسان الماضي حين ترك لنا أثراً نهتدي به ، بعد أن قامت الحضارات وعرف إنسانها كيف يقرأ وكيف يكتب؟ ويبدو أن هذا المرض كان مرضاً نادراً في القديم على ما توحي به كتابات الأطباء القدامى ، فالمريض في ذلك الزمن الغابر لم تتهيأ له معرفة كنة ما يعاني منه ، ولم يتوافر له علاج مناسب يتغلب به على محنته ، فكان المرض يتفاقم معه إلى أن يقضي نحبه في سنوات معدودات دون أن يترك خلفه ذرية تعاني من المرض ، فإن ترك جاء أولاده مثله مرضى وبخاصة لأن عامل الوراثة على مايقال له دور في انتقال المرض من جيل إلى جيل .

وإذا كانت الحضارة المصرية أو ل الحضارات الإنسانية التي تركت لنا وراءها أثراً نهتدى به ،فإن بردية «ايبرس» التي كشفها «ايبرس» عام ١٨٧٢ في الأقصر وقدروا عمرها بحوالي ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، تصف لنا مرضاً يعاني فيه المريض من عطش شديد وبوال متكرر ربما كان على الأغلب هو مرض السكر ، وكذلك ذهبت بردية «هيرست» عام(١٣٥٠ ق .م) وبردية «أبردين» .

أهل الهند – على مايبدو – كان لهم بالمرض خبرة ، وربما كان مرض السكر عندهم أكثر شيوعاً ، لهذا كانوا يسمون مريض السكر بالرجل الذى يبول عسلاً لأن الذباب كان يتراكم عليه ، ولعل أحدهم قد حاول أن يتذوقه فوجده حلو المذاق ، وفي ذلك الزمان كان عندهم طبيب مشهور يدعونه« أتريا »من أطباء القرن السادس قبل الميلاد ، ترك لنا أثراً في المراجع المعروفةبـ «السنسكرتية» باسم «آداب فيديك» ، وعلى درب الطبيب الهندي الأول «أتريا» جاء طبيب أكثر حداثة منه اسمه «شاراكا » في القرن الثاني بعد الميلاد .

ومن بعده جاء الطبيب المشهور «سوسروتا » في القرن السادس بعد الميلاد ، فأعطى المرض اسم بول العسل أو Medhumeha «ميدهوميها » إذ وجد للبول طعماً حلواً ، فإذا مالامسته الأصابع فإنها تلتصق به !

لقد كتب عنه الطبيب «سوسروتا »هذا فيما كتب ، « إن المرض يصاحبه عطش شديد مع ضعف في العضلات ،ولصاحبه رائحة كريهة !إنه يصيب الأغنياء بأكثر مما يصيب الفقراء ، والبدينين هم أغلب مرضاه ، والأقلية هم النحيفون الفقراء .

جيران أهل الهند من الصينيين عندهم طبيب مشهور يدعونه « تشانج تو كينج » يقدرون زمانه بحوالي ٢٠٠ قبل الميلاد ، هو عندهم معروف بمثل ما هو «أبقراط» معروف عند الإغريق ، لقد جاء الصيني «تشانج تو كينج» أيضاً على ذكر المرض ، وتحدث عن مأساة العطش الذي يصاحبه كثرة إدرار البول وسماه بمرض العطش .

والإغريق من أهل الغرب عرفوا أيضاً ظاهرة مرض السكر ، بل إنهم هم الذين سموه باسم الديابيتس Diabetes بماهو معروف به حتى الآن ، وتعني في لغتهم معنى «النافورة» لكثرة مايبول المريض فيصبح أشبه بالنافورة ،



لقد كان أول من ابتدع هذا الإسم هو طبيب من اليونان ،كان يعيش في روما في القرن الثاني اسمه «اريتاوس» من كابا دوكيا في الأناضول كتب عنه فقال : «إن الديابيتس مرض له تأثيرغريب إذ إنه يذيب اللحم والعظم ويحيلهما إلى بول ، لذلك فالمريض لايتوقف عن البوال ويصبح كأنه صنبور ماء» .

لهذا فعندما جاء «جالينوس» من بعده بسنوات معدودات في منتصف القرن الثاني ، وجد في إسم (الإسهال البولي) ماهو أكثر تعبيراً على حد قناعته . بعد «جالينوس» جاء أطباء العرب يقتبسون علمه ويترجمون كتبه وقد أطلقوا عليه ما أطلقه الرومان مع تحريف بسيط ، ربما لخطأ في الترجمة أو خطأ في النسخ ، إذ نجد مثلاً في كتاب القانون «لإبن سينا» في مقالته الثانية من الفن التاسع عشر من الكتاب الثالث «فصل في الديانيطس» ونلاحظ هنا أنه قلب حرف الباء إلى نون «الديانيطس» ، هو أن يخرج الماء كما يشرب في زمن قصير .



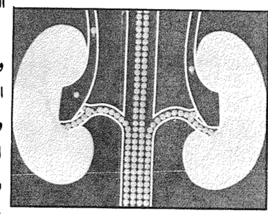
ونسبة هذا المرض إلى المشروب هي نسبة زلق المعدة والأمعاء إلى المأكولات ، وله أسماء في اليونانية غير «ديانيطس» فأنه قد يقال له «دياسقوس وقراميس» .

وكان يسمى بالعربية« الدوارة والدولاب» و«زلق الكلية» و«زلق المجاز والمعبر» .

وصاحبه يعطش فيشرب ولايرتوي بل يبول كما يشرب غير قادر على الحبس ألبتة ، وسبب الديانيطس خلل الكلية أما لضعف يعرض لها ، واتساع وانفتاح في

فوهات المجرى ، وقد يكون ذلك من البرد المستولي على البدن أو على الكبد . . الخ .

هكذا سادت القناعة فكر الطبابة عبر العصور الوسطى وهي أن العلة تكمن في الكلية ، دونما اعتبار لحلاوة البول ، بل كان التركيز جلة على تكرار البول مع شدة العطش ، إلى أن كان عام ١٦٧٤ حين جاء طبيب انجليزي يدعونه «توماس ويليس» وجه الانتباه إلى حلاوة طعم البول في مرض تكرار التبول وفرطه ، وهو ما نعرفه اليوم باسم مرض «البول السكري الحقيقي» أو «الديابيتس» ، واختلاطه على البعض مع مرض آخر فيه بوال متكرر وعطش شديد ، ولكن



دون أي طعم حلو يصيب البول ، لهذا سموه مرض البول السكري الكاذب وكشفوا فيما بعد أن سببه خلل يصيب الفص الخلفي من الغدة النخامية في أسفل المخ ، يحول بينها وبين إفراز هرمون مضاد للتبول يسيطر على قنوات الكلوة ، وبهذا تفقد الكلوة الحافز الطبيعي الحاث على امتصاص الماء ثانية بعد إفرازه ، وهو مرض عسير يقتل صاحبه إذا لم يعالج بالهرمون المانع للتبول تعويضاً له عما ينقصه ، فيما البول السكري الحقيقي أساسه عجز في البنكرياس عن إفراز هرمون الأنسولين الذي يتعامل مع سكر (جلوكوز) لقد ظلموا توماس ، وحرموه حقه ، ونسبوا الكشف لطبيب ألماني اسمه «جون فرانك» فضل التفريق بين السكري الحقيقي والسكري الكاذب ، على الرغم من أن «فرانك» اكتشف الفرق عام ١٧٩٤ أي عقب مائة وعشرين عاماً من اكتشافه ، ولكن الأوساط الطبية تذكر فضل الطبيب الألماني «جون فرانك» فيما هي تغفل اسم «توماس ويليس» الذي أطلق على السكرى الحقيقى اسم «الشيطان الجوال» ! .

على أي حال فعلاقة مرض السكر بخلل في البنكرياس لم تخطر على بال أحد ، إلا عندما حاول طبيب سويسري اسمه «جوهان برونر» في عام ١٦٨٣ أن يستأصل

البنكرياس لكلب عنده ، ليدرس وظيفة هذا العضو الذي لم تعرف له وظيفة من قبل ، فوجد أن الكلب قد أصابه بوال متكرر مع عطش شديد ، ولقد كانت الأقوام قد ذهبت مذاهب شتى في اجتهادها لتعليل وظيفة البنكرياس ، فقال اليهود في تلمودهم مثلاً إنه إصبع زائد للكبد ، فيما كانت أقوام أخرى ترى في قناعتها أنه مجرد مخدة لحمية تستريح عليها المعدة .

وكان الإغريق أول من أطلقوا عليه اسم البنكرياس ، وتعني عندهم قطعة اللحم (Ereas - flesh) (Pan - all)، ولما جاء «جالينوس» أطلق عليه اسم «كاليكرياس» تعنى الغدة الحلوة ، لهذا يطلق عليه الإنجليزى في يومنا هذا اسم الخبز الحلو Sweet Bread ، أولقمة القصابين اشتقاقاً من معنى كاليكرياس الذي أطلقه جالينوس .في عام ١٧٧٦ خطر لطبيب إنجليزي هو الدكتور «ماتيوس دوبسون» أن يتحقق من أمر وجود السكر في بول المريض فقام بتبخير بول أحدهم إذ صبه في كأس اختبار ، فترسبت بللورات السكر في قعر الكأس عقب تسخينه .

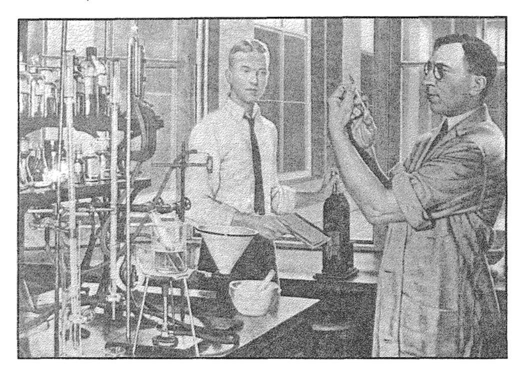
غير أن السكر أنواع وأصناف فأي نوع من السكر هذا الذي في البول يا ترى؟؟ .

لقد تصدى للإجابة على هذا السؤال طبيب فرنسي اسمه «مايكل شيفرول» عام ١٨١٥ ، وقام على تحليل السكر الذي رسبه الطبيب الإنجليزي «ماتيوس دوبسون» فوجد أنه نوع من السكريات الأحادية يسمونه سكر العنب أو الجلوكوز .

بعد هذا بنصف قرن وفي عام ١٨٦٩ على وجه التحديد أعلن طالب طب ألماني اسمه «بول لانجرهانز» إنه اكتشف ضمن تركيب أنسجة البنكرياس تجمعات خلوية على هيئة الجزر ،سميت فيما بعد على اسم هذا الطالب باسم «جزر لانجرهانز» غير أن

عدد إفراز عصارة البنكرياس
Cell of island of Langerhans
جزر لانجرهانز خاصه لأفراد الإنسوين

العلاقة بين «جزر لانجرهانز» وإفراز الأنسولين لم تتضح إلا عندما أشار إليها عام ١٩٠٩ طبيب أميركي من «بالتيمور» اسمه « وليام ماك كالوم» ، وقبل ذلك بعام أي ١٩٠٨



كانت محاولة طبيب ألماني أن يستخلص من غدة البنكرياس إفرازاً يستعمله في علاج مرض السكر ، غير أن المضاعفات وردة الفعل التي أصابت المرضى كانت شديدة لدرجة أن أوقف الأطباء استعماله في الحال !

وعاد الأطباء إلى التأكيد على علاقة جزر« لانجرهانز» وحدها بإفراز المادة المضادة لمرض السكر ، والتي أطلق عليها «جين ماير» عام ١٩٠٩ اسم «انسولين» لأول مرة اشتقه من اسم الجزيرة Isle Insula باللاتينية واليونانية .

وجرت دراسات موسعة في كل مكان حول علاقة البنكرياس بمرض السكر ، وكانت تعتمد على ملاحظة الأعراض التي تصيب حيوان التجربة إذا مااستأصلوا منه غدة البنكرياس .



ولعل التجارب التي قام بها «أوسكار منكسونسكي» مع «فون ميرنج» عام ١٨٩٩في «ستراسبورغ» على الكلاب ، أكدت إصابتها بكل أعراض مرض السكر من عطش وجوع شديدين وبوال متكرر مع ظهور السكر في دم الكلاب وبولها ثم موتها بعد بضعة أسابيع بعد أن هزلت هزالاً شديداً ، لقد تأكدت العلاقة إذن بين البنكرياس وخاصة جزر «لانجرهانز» مع مرض السكر ، فكيف يواجه العلماء هذا المرض ؟ اتجه الفكر الطبي إلى استخلاص إفراز البنكرياس لعلاج المرض ، وأي عجز لهذه الغدة عن القيام بوظيفتها الطبيعية .

وكان أن نجح كل من «ريدريك بانتنج »جراح العظام الكندي مع الطالب في قسم علوم وظائف الأعضاء «شارلز بست» في معمل الأستاذ الدكتور «ماكلويد» الاسكتلندي في المستشفى العام بمدينة «تورنتو»؛من استخلاص هرمون أطلقوا عليه «ايسلتين » بعد تجربته في ٣٠ يوليو في عام ١٩٢١ على رجل يدعى «جو جلكرست» وقد أطلقوا عليه اسم الأرنب البشري ، لكثرة ماعانى من هبوط السكر أثناء إجر اء التجارب عليه ! .

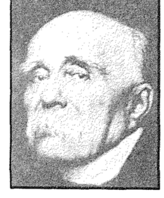
غير أن التجربة الحاسمة التي أكدت نجاح «الايسلتين» هي التي جربت على فتى مريض بالسكر اسمه «ليونارد تومسون»؛ لايتجاوز عمره الرابعة عشر عاماً في مطلع عام ١٩٢٢ ، إذ تم إنقاذه من موت محقق بعد أن ارتفع منسوب السكر في دمه إلى درجة مهلكة لو لم يحقن «بالايسلتين » ! وكان هذا أول انهزام للمرض لقد منحوا كلا من الاستاذ «بانتنج» والاستاذ «ماكلويد» جائزة نوبل عام ١٩٢٣ اعترافاً بفضلهما لهذا

الإنجاز العظيم ،فيما حرموا «بست» لصغر سنه فاستثنوه من الجائزة الدولية وتناسوا مساعداً آخر عمل في المجال معه اسمه «ماك برايد» ، وتبرع الفائزان بنصف نصيبهما للمساعدين المهملين فقد كان في مجد الجائزة الكبرى متسعاً للجميع غير أن الايسلتين عاد إلى تسمية الانسدلين نسبة إلى كلمة انسولا Insula التي تعني الجزيرة وهو الاسم الذي كان قد أطلق حين اكتشف «لانجرهانز» التجمعات الخلوية في البنكرياس .

كان عام ١٩٢٢ عاماً حاسماً في تاريخ السكر ،وشكل منعطفاً في تاريخ الطب ، فأصبح من حق كل مريض بالسكر من بعده أن يحيا حياة طبيعية إذا ما التزم الحمية في الطعام ،وتعاطى العلاج المناسب ،ثم كان بعدها أن استخلص طبيب كندي آخر اسمه «ابل» فى عام ١٩٢٦ مادة «الأنسولين» على هيئة بللورات تذوب في الماء وتحقن تحت الجلد على ماهومعهود استعماله هذه الأيام عند بعض مرضى السكر ،ثم جرى تطويره على نحو يماثل تركيب «الأنسولين» البشري تفادياً لردود فعل غير مستحبة تقع أحياناً لبعض المرضى ، لعدم تشابه الأنسولين المستعمل والمستخلص من أجسام الحيوانات مع بعض عضوية الأجسام وذلك باستخدام مايعرف اليوم بفن الهندسة الوراثية .

ليس يسيراً حصر كل من أصيب بمرض السكر عبر التاريخ لأنه مرض خاص لاتميزه علامات معينة ، وإنما هي أعراض يشعر بها المريض ولايراها من حوله ، غير أن هناك







شخصيات لامعة في التاريخ أصيبت بمرض السكر ولم يحل المرض دون إبداعها ومشاركتها في موكب التاريخ .

نذكر منها الرسام الفرنس المبدع «بول سيزان» ،وكذلك السياسي الفرنسي الملقب بالنمر« جورج كيلمنصو» والذي رأس وزارة بلاده مرتين .

أضف إليهما «توماس أديسون» العبقري الأميركي الذي اخترع الهاتف والحاكي والمصباح الكهربائي .

ولن ننسى«بوتشيني» الموسيقار الإيطالي المشهور ، التي خلدته قطع الموسيقا الرائعة التي خلفها من بعده .

هؤلاء نماذج من مرضى السكر أصيبوا به في وقت لم يكن له فيه علاج ، ولكنه لم يمنعهم أبداً من الإبداع حتى قيل إنهم الأذكياء ضحايا المرض .

قائمة مرضى السكر طويلة دون شك وفيها اسم «جمال عبد الناصر» ، غير إنه لا حيلة لنا في هذه العجالة أن نأتي عليها ، ولكنها تؤكد لنا أن مرض السكر لايغيب ملكات الإبداع ، ولايطفىء ذكاءاً وقاداً .

الفصل التاسع

الجـــذام

الجـذام LIPROSY

مرض لازار

البحث عن مصدر الأمراض الأول ومنبعها منذ البدء أمر يرقى إلى مرتبة الإستحالة فهذا أمر يغرق في ظلمة المجهول ،لهذا لو سألنا متى نشأ الجذام ؟ ومن أين أتى ؟ فلن نتوقع جواباً محدداً من أحد . ولكن الذين اجتهدوا أفتوا فقالوا : إنها الحبشة وماجاورها من البلدان الواقعة في شرق قارة إفريقيا ، بل إنها لازالت موطن الداء وبؤرته حتى يومنا هذا الذي نحن فيه .

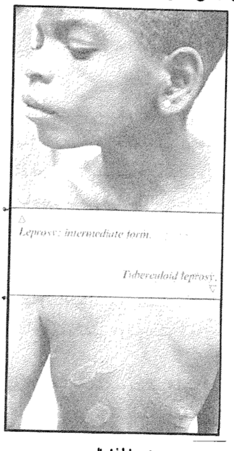
وعندما اكتسحت جيوش فراعنة مصر تلك المواقع من العالم ، وقامت التجارة فيما بينها وتبادلوا المنافع والمضار ، كان الجذام بعض هذه البضائع ، فقد وصل إلى مصر وشاع فيها وانتشر ، ولم ينتشر فيها وحدها ولكنه تسرب إلى العالم المعروف كله .

إن معبد حتشبسوت في الدير البحري بصعيد مصر حافل بالرسوم وبالنقوش تملأ جدرانه ، والتي تؤكد لنا هذه الحقيقة التاريخية .

ففي ركن من أركان المعبد يلمح الزائر رسماً لأمير من أمراء البُنْط (هكذا كا ن اسمها عند المصريين القدامى) وهي أرض الصومال في زماننا هذا ترافقه زوجته التي يبدو من رسمها على الجدار ، أنها كانت بدينة مشوهة القوام ، تعاني من مرض من أمراض تلك البقاع ، حار في تعليله الأطباء ، فمنهم من قال إنه داء «الفيل» ومنهم من قال إنه «الجذام» فيما فسره البعض الآخر بمرض وراثي اسمه مرض « داركوم » .

على أية حال فمن إجماع الأطباء والمؤرخين يبدو أن البلاد الإفريقية كالحبشة والصومال وغيرهما كانت مستودع المرض ، بل ولازالت هي كذلك ، لهذا فقد ورد المرض إلى مصر مع أسرى تلك البلاد ممن أتى بهم فراعنه مصر في حروبهم معها،وجاء مع تجارها الباحثين لهم عن سوق في مصر .

لقد سجل تاريخ الأمراض شيوع «الجذام» في أرض الفراعنة ، ومنها على مايبدو شاع وتحوصل في فئة سكنت مصر قديماً هم اليهود ، لهذا كثر ذكر «الجذام» في كتبهم الدينية وخاصة لدى كتاب التوراة ، وكانوا يسمونه عندهم البرص ، ومن فرط معاناتهم منه كانوا يحذرونه كل الحذر ، ويخافون من مرضاه ، ويعتبرونهم نجسين منبوذين ، لايقترب منهم أحد ولاهم يقتربون من أحد ! وربما كان هذا أحد أسباب تحوصلهم وعزلتهم ، فلم يعهد في أي كتاب مقدس ذكر لمرض ولاوصف للطقوس المتبعة للتعامل مع مريضه كما ذكر عن الجذام في التوراة ، حيث كان يسمى البرص في عرفهم .



مريض بالجذام العصبي

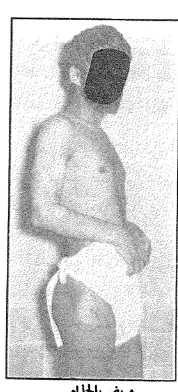
ففى الإصحاح الثالث عشر من التوراة مثلاً سوف نجد هذا النص «وعلم الرب موسى وهارون قائلاً : إذا كان إنسان في جلده ناتىء ، أو قوباء أو لمعة ثم تصير في جلد جسده ضربة برص ، يؤتي به إلى هارون الكاهن ، أو إلى أحد أبنائه الكهنه ، فإذا كانت اللمعة بيضاء في جلد جسده ، ولم يكن منظرها أعمق من الجلد ، ولم يبيض شعرها يحجز الكاهن هذا المضروب سبعة أيام ، فإن رآه الكاهن في اليوم السابع مرة ثانية والضربة كامدة اللون ، ولم تمتد بالجلد ، يحكم الكاهن بطهارته . . إنها حزاز فيغسل ثيابه وتكون طاهرة» ، هكذا وصفوا المرض وعالجوه .

وأمراض الجلد كلها كانت موضع اهتمام خاص عند اليهود ، ويتصدرها مرض البرص الذي كان يشغلهم التشخيص التفريقي له مع الأمراض المشابهة ، لأنه في عرفهم

مرض نجس وصاحبه معزول منبوذ على أية حال ، فقد حمل اليهود معهم ضمن ما حملوا حين هربوا من ظلم فرعون مصر ، الذي يميل المؤرخون إلى تحديده بشخصية «رمسيس الثاني» ، الذي حكم مصر فيما بين سنتي ١٢٩٠ - ١٢٢٤ قبل الميلاد . . حملوا الجذام معهم ونقلوه إلى الكنعانيين في أرض الميعاد فلسطين ، ومنهم تسرب أيضاً إلى أرض الجزيرة العربية فعرفه العرب القدامى بعدهم ، وأصابهم ، واستقر في قناعتهم بأنه مرض خطير صاحبه منبوذ ، لابد من أن يحذره الناس حذرهم من حامل داء خطير .

لهذا لاعجب أن نجد صدى ذلك في الأحاديث النبوية الشريفة التي تتواتر محذرة المسلمين من هذا المرض العضال الذى لايؤمن جانبه .

والحديث الشريف المألوف « فر من المجذوم فرارك من الأسد » ، هو تأكيد لهذا المعنى لخطورة المرض بقدر خطر الأسد المفترس على الناس . . أوربما كان اختيار الأسد في التشبيه دون باقي الحيوانات إنما كان لتقارب ملامح المريض المصاب بالجذام الدرني مع ملامح وجه الأسد ، وبهذه المناسبة لابد أن نشير إلى أن للجذام صورتين إحداهما صورة الجذام الدرني الذي يتشكل على هيئة درنات فى الجلد ظاهرة وملموسة في الوجه واليدين ، وآخر هو الجذام العصبي الذي يتلون فيه الجلد ويبهت ، مع فقدان الإحساس في المواقع المصابة من الجلد أو الغشاء المخاطي .


مريض بالجذام

وفي موضع آخر يؤثر عن الرسول الكريم قوله «كلم المجذوم وبينك وبينه قدر رمح أو رمحين » كما قيل على لسانه أيضاً عليه الصلاة والسلام « لاتديموا النظر إلى المجذوم» ،ومما يروى أن وفداً من ثقيق قدم الرسول وبينهم رجل مجذوم ، فأرسل إليه النبى ﷺ

من يقول « إنا بايعناك فأرجع » .

هذا ماكان من أمر الجذام في رحيله شرقاً ، أما ماكان من رحيله غرباً فقد وصل إلى روما وإمبراطوريتها المترامية الأطراف ، فكانت هذه المدينة عاملاً هاماً في انتشاره على النطاق العالمي ، وقد زعموا أيضاً أن العرب في توسعاتهم عبر مضيق جبل طارق نحو الأندلس نقلوه إلى هناك .

ومن بعد الأندلس وصل إلى فرنسا مع رجال «عبد الرحمن الغافقي» ، الذي وقف تقدمه عند حدود بلاط الشهداء حيث استشهد عام ٧٣٢ للميلاد .

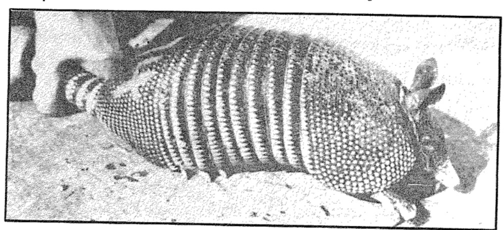
ربما كان السرد التاريخي على هذا النحو الذي فصلناه إنما ورد لتحميل مسؤولية انتشار الجذام الكريه على كاهل اليهود والمسلمين ، وهو سرد يدفعه الهوى والحقد ، ليعبر عما يتعارف عليه بالعداء للسامية بمعناها الشامل ، لأن اليهود والعرب معاً هم أقوام - فيما يدعي الغرب - سامية في أصولها .

غير أن الأساطير التي تروى في شمال أوروبا غرباً أو في أرض الهند والصين شرقاً ، تؤكد لنا أن معرفة سكان تلك البقاع بالجذام ، بل ومحاولة علاجه بما توافر لأهل تلك الأزمان هي معرفة قديمة وإنها أقدم من اليهود والعرب معاً .

ففي إنجلترا مثلا يحكون أسطورة عن ملك كان اسمه «بلادوود» ، حكم البلاد في القرن التاسع قبل الميلاد وشاء له القدر أن يصيبه الجذام ، فما كان منه إلا أن هجر عرشه ، ثم هام في البراري والقفار ليرعى الخنازير التي أصابها الجذام بدورها ايضاً .

وذات يوم نزلت الخنازير أرضاً طينية يغمرها ماء ينبوع في موقع يسمى باث Bath فشفيت الخنازير من الداء ، وقلد الملك المريض «بلادوود» خنازيره المريضة ونزل هو الآخر في ماء الينبوع فشفى بدوره أيضاً ، لهذا فقد أمر بإقامة محطة في الموقع الذي شفى فيه ، يستشفى كل الناس هناك من بعد ، وأطلق عليه اسم «باث» ، ولازال الناس حتى زماننا هذا يقصدون هذا الباث الذي أقاموا فيه تمثالاً للملك «بلادوود» ليستشفوا

فيه ولكن من أمراض ليس الجذام بواحد منها أبداً بل لقد عمت الينابيع الطبيعية بلدان أوروبا كلها ، يستشفي فيها الناس ويتعالجون علاجاً طبيعياً ، وتتسمى أيضاً باسم «باث»



حيوان الارماريللو في أمريكا الجنوبية

خلاصاً من الروماتيزميات وآلام المفاصل والعضلات وأمراضهما .

الغريب أن الأسطورة جاءت على ذكر الخنازير المريضة بالجذام بينما يعرف الأطباء أن الجذام مرض لايصيب إلا الإنسان ، وقد يصيب عدداً محدوداً من الحيوانات في المختبرات فقط مثل الفئران أو الحيوان الأميركي «الأرماديللو» لأن الخنازير محصنة ضد المرض فلاتصاب به أبداً ، لهذا فأصحاب الأسطورة كانوا واسعي الخيال ، ولكنهم على دراية وألفة بالجذام منذ قديم الزمان على الأقل ! .

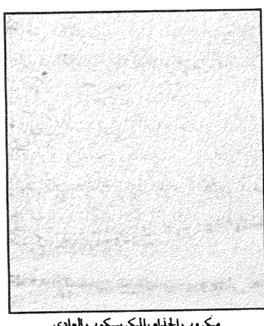
أسطورة أخرى يرويها أهل الهند في الشرق الأسيوي تقول :(إن ملكاً كان على «بنارس» اسمه «راما» أصابه الجذام ، فدفعه ذلك إلى هجر ملكه ليهيم على وجهه في البراري والقفار ، يقتات من نبات الأرض وحشائشهاو بعد أن أصابه اليأس ، فاتفق ذات مرة أن تناول نبته مُرّة الطعم تسمى عندهم باسم «كالاو» Kalaw فشفى في الحال ، مما دفع الأمل في قلبه وعاد إلى مقر حكمه في «بنارس») .

وكان أن تقابل في الطريق مع أميرة هندية تعاني هي الأخرى من مرض الجذام ، فحكى لها ماجرى معه ونصحها بتعاطى نبتة الكالاو السحرية فشفيت حين أكلت من نبات الكالاو هذا ، وعليه فقد تزوجا وأنجبا من بعدهما ذرية صالحة عفية صحيحة كما

تروي الأسطورة وتقول : « ثم انتشر الخبر أو فلنقل شاعت الأسطورة وراجت ، فأقبل الناس على هذه النبتة لأن الهند والصين تذخران بضحايا داء الجذام اللعين ، ثم استخرج الناس بعدها من الكالاو هذا زيتاً يتعاطونه بالفم سموه باسم زيت «الشالموجرا» ، ولا زال حتى يومنا هذا يستعمل علاجاً معتمداً إلى جانب العقاقير الأخرى الحديثة» .

إن أمثال هذه الأساطير تؤكد بطلان الدعوى بأن الشرق الأوسط هو منبع المرض الوحيد ، وتقنع المتابع لأخبار الطبابة والتاريخ أن الجذام مرض قديم وواسع الانتشار ، وقد عرفته أقوام الأرض كلها قبل عصر الحضارات الأولى .

على أن العصر الذهبي للجذام كان دون شك في العصور الوسطى ، وكانت السوق التي ازدهر فيها هي أوروبا ، فقد انتشر واستفحل بل وربما وصلت نسبته إلى ٥ بالمائة من السكان عامة لهذا فالمرضى كانوا منبوذين ، بل كانوا ملزمين بأن يحمل كل منهم في يده جرساً يدقه وهو سائر في الطريق حتى يحذر الناس من الاقتراب منه ، بل قد صار مألوفاً أن نسمع أن ولداً قد قتل أباه ، أو أن أباً قتل ابنه لأن المقتول قد أصيب بالجذام ممايخاف منه القاتل على نفسه أن تصله العدوى ، والواقع أن المخالطة الطويلة الحميمة هي سر العدوى إذ إن عدد المرضى يزيد بين المخالطين للمصاب بنسبة تتراوح بين ستة إلى ثمانية أضعاف بالمقارنة مع غير المخالطين .


ميكروب الجذام بالميكريسكوب العادي

لقد كانت هذه الحقيقة معروفة وإن لم يعرف سر الجذام بعد ، إلى أن أدعى طبيب إنجليزي كبير أن سببه هو الأفراط في أكل السمك ، وقد اعتمد فى دعواه هذه على أن الجذام منتشر جداً في مدينة

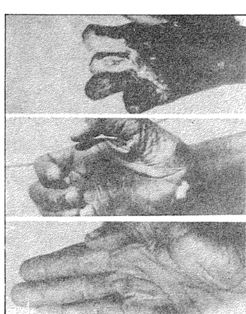
ساحلية نرويجية اسمها «بيرجن» كان أهلها يقتصرون في طعامهم على السمك .

وبالرغم من أن بعض المرضى لم يعرفوا طعم السمك في حياتهم فقد وجد هذا الرأي قبولاً لدى بعضهم ، إلى أن جاء طبيب نرويجي آخر رفض الرأي الإنجليزي عام ١٨٧١ ويدعى «جيرهارد ينسن» واكتشف الميكروب المسبب للجذام ، فإذا به شقيق لميكروب السل ، فهو عنيد مثله ، مزمن ، يصمد أمام الصبغات المألوفة للميكروبات الأخرى فلا يصطبغ بها بسهولة مما يعرف في علم الميكروبات باسم Aeid Fast Bacilus، لهذا لاغرابة أن استعملوا معه طعم «البي سي جي» الخاص بالسل ووجد من يدعي أنه يفيد في علاجه .

طبيب نرويجي آخر قبل «ينسن» ببضع سنوات وبالتحديد عام ١٨٤٧ كان هو الذي وصف بدقة متناهية مرض الجذام وأعراضه ، بالرغم من أنه لم يكن يعرف له سبباً في حينه ، لهذا اغتصب لقب رائد علم الجذام عن جدارة ولم يجد له من ينافسه .

قبل أن يعرف مرض الجذام تفصيلاً أو يعرف له سبب ، كان المجذومون يجمعون معاً في منازل خاصة بهم عرفت باسم منازل «لازار» ، وسر هذه التسمية هي أن رجلاً متسولاً فقيراً معدماً اسمه «لازار» كان يتجول في الطرقات وهو يعاني من مرض الجذام حتى أصيب بقروح مقززة في جسمه كله ، وكان يستجدي طعامه من الناس ، ومن اسمه هذا اكتسبت البيوت الخاصة بالمجذومين اسم منازل «لازار» ، كما اكتسب المرض أيضاً اسم مرض «لازار» بينما اسم الجذام أو الليبروسي Leprosy هو العلمي المعتمد والمألوف ، لم يكن شائعاً على ألسنة العامة ولو تأملنا في اسم «الليبروسي» نجد أن اسمه مقتبس من معنى المنبوذين الذين كانت تعج بهم مدن أوروبا وشوارعها في العصور الوسطى ، لدرجة أن كان هناك ماينيف على ١٩ ألف منزل في غرب أوروبا لهؤلاء .

وقد انفردت باريس وحدها فقط بألفين من تلك المنازل ، كما ويروى عن قصص الفداء والتضحية التي فرضها هذا الداء قصة الأب «داميان» الذي بعثوا به إلى «هونولولو» في مهمة تبشيرية ، وهو فتى لم يتجاوز ١٨ عاماً فسمع بأخبار المجذومين



تطور سير مرض الجذام إلى درجة تآكل الأطراف

هناك وماأكثرهم ، فطلب من رؤسائه أن يرسلوا به إلى مستعمرة الجذام هناك عام ١٨٦٣م ، لعيني بهم فقضي فيها ١٢ سنة دون أن تظهر عليه أعراض ما لمرض الجذام ، إلى أن كان يوم انسكب فيه ماء ساخن على قدمه ، ففزع فزعاً شديداً لا لأنه تألم من حرارة الماء الساخن ولكن لأنه لم يتألم أبداً ولم يشعر بشيء فقد فقد الإحساس وهذه إحدى أعراض الجذام الجلدي حيث تتدمر الأعصاب الحساسة ،ويغيب الشعور ، لهذا لاغرابة أن تتقرح الأقدام دون أن يدري صاحبها من أمرهما شيئاً . وفي رواية أخرى تتحدث عن أميرة إنجليزية تدعى «اليزابيث» رفعوها إلى درجة القديسات فسميت باسم «سانت اليزابيث» ، لأنها كانت ترعى المجذومين وتؤويهم في بيتها ، بل وربما كانت تنام معهم في فراش واحد أيضاً ، لهذا أصيبت وماتت بالمرض فاستحقت في تقديرهم درجة التقديس .

وهناك قصة الجندي الأميركي «نيد لانجفورا» الذي عمل متطوعاً في الجيش الأميركي في الحرب الأسبانية الأميركية عام ١٨٩٨، فقد أرسلوه إلى بلاد الفلبين حيث أصيب هناك مع ثلاثين آخرين من زملائه ، فما كان منه إلا أن انضم إلى إحدى مستعمرات المجذومين وأقام فيها حكماً ذاتياً ،ودفع فيهم الشجاعة ، بل وأملى بعدها تجربته على أحد أصدقائه الأدباء واسمه «بيرى بيرجس» فكتب القصة التي شاعت وراجت تحت اسم (الذين يسيرون وحدهم)، لتحكي قصة معاناة إنسان مجذوم وعوالج نفسيته وطموحاته ، وتبعث الأمل في قلب كل مجذوم ، وترسم له طريق النصر على محنته .

في عالم اليوم لازال الجذام ، ولازال هناك مجذومون ، وتؤكد لنا منظمة الصحة العالمية أن عددهم يزيد على ١١ مليون إنسان ، يتركزون في إفريقيا وأميركا الجنوبية وجنوب شرق آسيا غير أن هناك حالات جذام أخرى مبعثرة في أكثر من ٧٠ بلداً من بلدان العالم .

والمرض قل من يدعي أنه موروث ، إذ لاتدعم هذه الدعوى أية قرينة أو دليل ، وإنما هي المخالطة الطويلة الحميمة شهوراً إن لم تكن سنوات ، بل ويقال إن هناك من لديهم أستعداد للعدوى بالجذام ، وهناك من هم محصنون ضده .

وقد توهم طبيب انجليزي عام ١٩٠٤م ، أن استحداث تطعيم خاص بالجذام أسوة بالأمراض الأخرى سوف يمنح فرصة الحصانة للناس ضد عدوى الميكروب ، فابتكر تطعيماً صنعه من خلاصة الميكروب سماه «البيرومين» ولكن أمله هذا لم يتحقق ، ولم يحقق تطعيمه نجاحاً كبيراً .

غير أن الأمل في استحداث تطعيم ضد الجذام بفضل التقنية الحديثة قديكون ممكناً هذه الأيام ، بل هو أمل يتطلع له المختصون والمهتمون بالأمر ، ولعله أمل يتحقق قريباً بإذن الله ماداموا يعملون بجدية وإخلاص تحت مظلة التقنية الحديثة .

الفصل العاشر

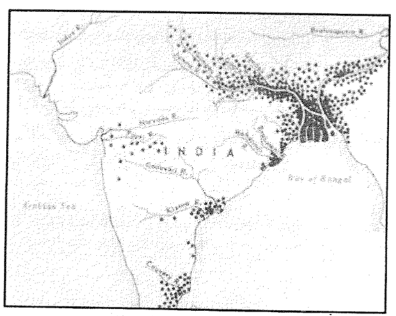
الكوليــرا

الكوليرا CHOLERA

الهيضـــــه

إلى الشرق من القارة الهندية يجري نهر طويل عريق ، ينبع من جبال الهملايا إلى أن يصب في مياه المحيط الهندي ، يسمونه نهر الجانج (الغانج) .

نهر الجانج هذا هو النهر المقدس عند طائفة الهندوس ، ومنزلته أشبه بمنزلة الكعبة لدى المسلمين ، وكنيسة القيامـة عنـد المسيحيين ، لهذا لاعجب أن يحجوا إليه ليتبركوا بمائه .



موطن الكوليرا شرقي شبه القارة الهندية حول نهر الجانج

وقد لايكون في التقديس أو الحج ماينال من الهندوس هؤلاء ، لولا أن الشعائر والعادات يشوبها الجهل ، وتجرى في بيئة فقيرة من كل معاني النظافة بما فيها قوم هم أقرب إلى العدم منهم إلى الفقر ، لهذا لم يكن غريباً أن يجتمع هناك شمل الحلفاء الثلاثة : الجهل والفقر والمرض .

ففى مدينة «كلكتا» التي ضاقت بسكانها يزاحمهم مرض الكوليرا الذي عجز المختصون عن تبرير توطنه أرض الهند ومعاشرته لهم عبر كل القرون ، فهو لم يبرح موقعه هذا أبداً عبر التاريخ فيما قبل عام ١٨١٧ م ، ولم يسمع به الناس في غير أرض الهند ، إلا ماجاء به الرحالة الإيطالي «فاسكودي جاما» عام ١٤٩٨ ، ومن قبله جاء بأخبارها الرحالة البندقي الطلياني أيضاً «ماركو بولو» عام ١٢٩٥ .

الهندوس يتعبدون في نهر الجانج المقدس

لقد ألف الناس مرض الكوليرا لدرجة أن عبدوه ، واستولت على عقولهم قناعة بأن هناك آلهة للكوليرا هي التي تنتقم منهم ، فإذا ماغضبت يمرض الناس وترضى فيشفون .لهذا اقاموا لها المعابد يطلبون رضاها ، ويقدمون لها القرابين ، وكان أشهر هذه المعابد ماقام في مدينة «كلكتا» حيث كانوا يحجون لألهة الكوليرا علها ترضى فتكف عنهم أذاها .

والتاريخ يحدثنا فيما يحدث عن مسيرة «الإسكندر» ، وهو يقود جيشه شرقاً عبر بلاد فارس ،حتى وصل مشارف شبه القارة الهندية ، حيث أرض باكستان هذه الأيام .

يبدو إن «الإسكندر الأكبر» كانت له مع الكوليرا تجربة مريرة هي التي صدت غزوه وأوقفت تقدمه ومنعته من اكتساح شبه القارة الهندية ، كما اكتسح غيرها لهذا فرّ راجعاً بعد أن فتكت الكوليرا بجنوده متضامنة مع الملاريا وبعوضها الذى يجد له في تلك البلاد مرتعاً ، ففي مدينة «كوجرات» من أعمال باكستان في يومنا هذا نجد نصباً حجرياً خلفه الإسكندر للأجيال من بعده ، وقد كتب عليه :

الشفاه زرقاء

الوجه شاحب نحيل

والعيون غائرة

والبطن مخسوفة

والأطراف مقوضة جافة

كأنما مسها حريق

تلك هي أعراض العلة الكبرى التي استنزلتها لعنات الرهبان لتجهز على الأبطال الشجعان .

لقد أغفل الإسكندر فيما كتب على الحجر اسم المرض ، ولكن الوصف الذي تركه لنا لايحتمل معه مرضاً آخر غير الكوليرا ، التي كانوا يطلقون عليها هناك في ذلك الزمان اسم هو «لوان» ، ولا أحد يدري كيف كانت الكوليرا تتعامل مع الناس هناك في أرض الهند وماجاورها من البلاد ، فميكروبها أضعف من أن يصمد في أمعاء عائلة أكثر من خمسة أيام ، فإما أن يموت المريض وإما أن يموت الميكروب ، فلم يعهد فى ميكروب الكولير إنه أصاب مخلوقاً غير الإنسان ، كما لم يعهد أن يكون للكوليرا التقليدية وجود من يحملها حملاً مزمناً وينشرها بين الناس ، وهم يتوهمون إنه سليم الجسم ، لهذا لم تنتشر الكوليرا خارج نطاق موطنها في جنوب شرق آسيا حيث كانت وسائل المواصلات تعجز عن قطع المسافات الطويلة في مدة وجيزة تكفل له العدوى ، لهذا لم تداهم الكوليرا أي قوم غير الهنود ، حتى كان أول وباء عالمي عام ١٨١٧ عندما بدأ الإنسان يمتطي متن السفن البخارية ، وينطلق بها يمخر البحار والمحيطات يقطعها شرقاً وغرباً .

وهكذا غابت الأخبار عنا ردحاً من الزمن ، إلا ما تركته لنا كتابات باللغة السنسكريتيه وجدوها في التبت تعود إلى عهد الإمبراطور «تى سونغ دى تسن» فيما

بين عامي ٨٠٢ - ٨٤٥ للميلاد ، تقول سطورها « عندما تنحدر الأخلاق والقيم على الأرض تظهر بين الناس أمراض مختلفة قاتلة لاتعطي فرصة للعلاج ، فتنطفىء شعلة الحياة فجأة وتتحول حرارة الأجسام إلى برودة» .

«أمراض تبدأ بين من يقطنون شواطىء الأنهار الكبيرة» هذه الكلمات تتحدث عن مرض ، لا يمكن أن يكون سوى الكوليرا التي لم تطل برأسها خارج دارها في أرض الهند وما جاورها إلا بعد عام ١٨١٧ .

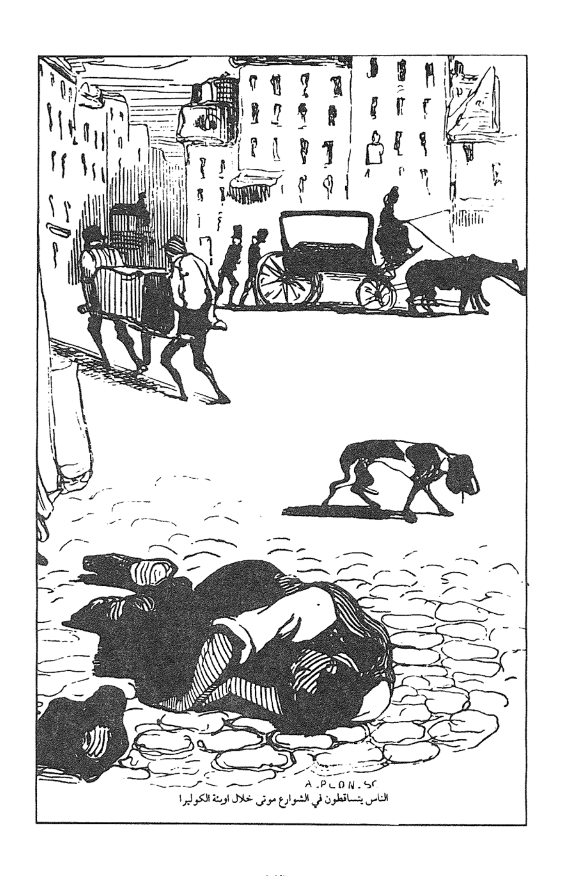
ففي عام ١٨١٩ وصلت ميكروباتها إلى جزيرة «جاوة» ولم تبرحها إلا بعد أن أزهقت أرواح مائة ألف من سكانها ، وفي عام ١٨٢١ وصلت إلى جنوب الجزيرة العربية حيث عمان اليوم ، ترفق جنود الإحتلال البريطاني ، وما انصرم العام ذاته حتى وصلت إلى مدينة البصرة فأزهقت هناك خلال ثلاثة أسابيع فقط عدداً يتراوح بين ١٥ إلى ١٨ ألف من الأرواح .

وفى العام الذي يليه عام ١٨٢٢ كانت قد امتدت شمالاً لتصل إلى مدينتى «ناغازاكي وأوساكا» في اليابان قادمة إليهم من «جاوة» . لقد عدوا خمسة أوبئة عالمية يتحدث عنها تاريخ الطب خلال القرن التاسع عشر ، عدا الفوعات الصغيرة التي لم تدخل في حسابات التاريخ فكانت على التوالي أوبئة عالمية :

عام ١٨١٧ - عام ١٨٢٦ - عام ١٨٤٦ - عام ١٨٦٤ - عام ١٨٨٣ ثم يذكرون بعدها عام ١٩٠٢ الوباء العالمي خلال القرن العشرين .

ولعل هذا الأخير كان هو أكثرها ضراوة وشدة ، فقد انتشر في أغلب بلاد العالم مما يصعب معه حصر عدد ضحاياه ، ولكنهم يقدرون أنه قضى في «القاهرة» وحدها خلال شهري يوليو واغسطس من عام ١٩٠٢ على ٣٣ ألفاً من المصريين .

أما في «باريس» فقد ظهرت أول حالة وقعت للكوليرا أصابت رجلاً سقط أرضاً خلال حفلة راقصة ، ثم توالت بعدها الحالات ، لدرجة أنهم عجزوا عن نقل المرضى



الناس يتساقطون في الشوارع موتى خلال اوبئة الكوليرا

إلى المستشفى ، فكانوا يكدسونهم في عربات ، فيما كانوا يضعون الموتى في أكياس من الخيش بعد أن نفذت التوابيت من المدينة .

ومايروى عن اجتياح الوباء لمدينة «هامبورج» يستحق الإشارة في هذا المقام ، لأن اطباء الوبائيات يعتبرونه درساً لهم ، لاستشعار أهمية الماء الملوث في نشر المرض .

لقد ظهر الوباء فى مدينة «هامبورج» التي تقع على نهر الإلبا ، وقد كانت تستقى منه ثم تصب بعدها فضلاتها فيه ، فيما كانت على بعد مايقارب العشرة أميال بعد «هامبورج» تقع المدينة الصغيرة المسماة «التونا» تستقي من الماء الآتي من «هامبورج» ، والذى يفترض فيه أنه ماء ملوث ، ولكنها كانت ترشح الماء وتعقمه قبل استعماله ، لهذا لم تظهر بين سكان «التونا» إصابات مريضة «بالكوليرا» ، فيما اصيب في «هامبورج» خلال شهرين فيما بين ١٧/ ٨ إلى ١٣/ ١٠ من عام ١٨٩٢ مايقدرونه بـ ١٧ ألف إصابة توفى منها ٨٠٦٥ .

ومما يروى عن هذا الوباء الذي جاء المدينة من «روسيا» أن المهاجرين الروس المتوجهين إلى أميركا ، هم الذين نقلوه معهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد ، فقد أقاموا لهم في «هامبورج» معسكرات قريبة من النهر الذي كانوا يستخدمون ماءه في شؤونهم اليومية ويصبون فضلاتهم فيه .


ملابس الوقاية من الكوليرا في القرن التاسع عشر

لهذا يضرب الأطباء المختصون بقضية «هامبورج» مثلاً لدور الماء الملوث في نشر الوباء ودور ترشيحه في الوقاية من الإصابة بالمرض .

لقد أخذت الكوليرا في مسارها الوبائي عبر التاريخ عدة طرق يعرفها المختصون في أمر الأوبئة ، منها طريق روسيا فأوروبا ومنها طريق قناة السويس ، ومنها طريق الشرق الأوسط التي كانت تعقب مواسم الحج ،حيث يختلط خلالها الناس مع جموع القادمين من أرض الهند وباكستان ، مما توقف الآن بفضل الاحتياطات التي اتخذتها الحكومة العربية السعودية .

ولعل الوباء الذي حل بأرض مصر عام ١٨٩٥ مثل حي لصوره الوبائية ، إذ ابتدأت المأساة بقرية صغيرة من قرى أسيوط يدعونها «موشي» كان يستقي الناس فيها الماء من بئر قريبة من مراحيض المسجد ، لهذا رشح الماء الملوث حتى وصل ماء الشرب .

وقد قيل في الأمر رواية أخرى لتعليل انتشار الوباء ، إذ تروى إن أحد الحجاج كان قد عاد وهو يحمل معه زجاجات مليئة بماء زمزم ، فلم يشأ أن يستأثر بها وحده هو وعائلته ، وأراد أن يشرك معه أهل القرية في شربها حتى تعم البركة ، فصبها فى بئر القرية فصادف ان مامعه من ماء كان ملوثاً بحيث لوث كل الماء ، وعليه فقد أصيب الجميع بالوباء وفي هذا سجل الأدب المصري على لسان الشاعر على الجارم هذا الحدث ، إذا صاغه في قصيدة أطلق عليها اسم الوباء قال فيها :

أي هذا الميكروب مهلاً قليلاً

قد تجاوزت في سراك السبيلا

لست كالواو أنت كالمنجل

الحصاد إن احسنوا لك التمثيلا

أنت في الهند في مكان خصيب

فلماذا رضيت هذا المحولا

أنت كالشيب إن دهمت ابن أنثى

لم تزايل جبينه أو تزولا

وبموشى أراد حصرك الجند

وهل تحصر الجنود السيولا

رب طفل تركت من غير ثدي

يضرب الأرض ضجة وعويلا

وفتاة طرقتها ليلة العر

س وقبل الحليل كنت الحليلا

خضبتها يد المواشط صبحاً

فمحاه المطهرون أصيـــــلا

ياقتيل الفينيك يكفيك قتلا

ك فاغمد حسامك المسلولا

إن في مصر غير موتك موتاً

ترك الأروع الأعز ذليلاً

وعلى مايبدو فإن الجارم كان على إدراك ووعـــي بالكوليـــرا وميكروبهـــا وأعراضهـــا .

فهو ميكروب ضعيف لايقوى على مقاومة الأحماض ، لهذا كانوا يوصون بعصير الليمون الحامض ليتوقى به النـاس شر الإصابة ، مما جعل حبة الليمون الحامض في زمانها أغلى من حبـة الـتـفـاح ، هـذا إن وجـدوه فـي الأسواق .

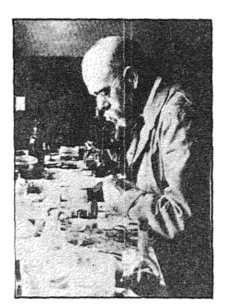


ميكروب الكوليرا تحت الميكروسكوب الاليكتروني
يتميز بشكله المتحني وذيله وحركته الدائمة

وعلى أية حال فالميكروب يتشكل على هيئة معكوفة تشبه الضمة أو حرف الواو ، لهذا أطلقوا عليه اسم ضمات الكوليرا ، أو واويات الكوليرا ، والميكروب إذا مادخل جوف المصاب وتخطى حدود المعدة فإنه يكمن في الأمعاء الرقاق ليصيبها بإسهال مائي شديد ، وقيء متواصل يستنزف معه ماء الجسم وأملاحه ، لهذا يصح أن يقال فيه إن المريض يجف في بضع ساعات ، فالميكروب لايقتل في حد ذاته ، وإنما الجفاف هو القاتل ، ولم يعهد أن وصل مريض إلى المستشفى ومات هناك لأنهم يسعفونه فوراً بحقن السوائل التي تعوضه عما يفقد ولاشيء آخر .

ومدة حضانة المرضى (وهي المدة التي بين العدوى وظهور الأعراض) تتراوح بين يوم واحد و خمسة أيام ،لهذا كان الحجر الصحي مدته خمسة أيام يطلق سراح الحاج بعدها إذا ماكان قادماً من مناطق موبوءة أو من أداء فريضة الحج .

من الطبيعي أن سر المرض كان خافياً على الناس ، حتى كان عام ١٨٨٢ حين جاء «روبرت كوخ» يرأس فريق ألمانيا ، وحط رحاله في مدينة «الاسكندرية» حيث


روبرت كوخ اكتشف الكوليرا فى الاسكندرية عام ١٨٨٢

المستشفى الأميري هناك ، ليستطلع أسباب المرض ، فيما قدم فريق فرنسي آخر بقيادة مساعد العالم «باستير» واسمه (رو) ليكون مقر البعثة الفرنسية في المستشفى الفرنسي بالأسكندرية للغرض نفسه .

وكان السباق على اكتشاف سر المرض الذي عثر «كوخ» على ميكروباته في أمعاء المرضى وبرازهم وقيئهم ، غير أن التيقن مما شك فيه دفعه إلي أن يرحل مرة أخرى إلى الهند ليكشف ذات الميكروب المنحنى ، وبعدها أعلن عن اكتشافه لسر الكوليرا عام ١٨٨٣ ، غير أن سعي «كوخ» لاقى الاعتراض كما يلقاه كل العلماء في كل مكان وزمان ولكن الحقيقة العلمية تصمد أمام كل التحديات الباطلة التي تقف أمامها وتتحداها .

وعلى أية حال فقد كان وباء ١٩٤٧ الذي حل بأرض «مصر» هو نهاية المطاف لأوبئة الكوليرا التقليدية وختام السلسلة التي حلت محلها كوليرا الطور بعد ذلك ، ففي شرق «دلتا النيل» كانت تقوم قرية صغيرة متواضعة يطلقون عليها اسم «القرين» ليس لها من أهمية سوى أنه يقام فيها السوق السنوي لتجارة البلح ، إذ يجتمع فيه القوم من كل المديريات المجاورة يعرض كل منهم بضاعته .لعل قرب القرية من المياه العذبة ، وتوسط القرية ، هو الذي أغرى بقيام سوق البلح هذا فيها ، غير أنه في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ أصيب ثلاثة من العمال كانوا ضمن ستة آلاف عامل من عمال البناء بإسهال وقيء شديدين ، ثم حل بهم مايشبه الإغماء من أثر الضعف والإعياء ، لقد حل الذعر بأهل القرية فحمل التجار بضاعتهم وهربوا ، كل منهم إلى قريته خوفاً من المرض ، وماعلموا إنهم حملوا معهم المرض إلى قراهم ، وكان المرض هو الذي هرب من القرية المشؤومة ، ففي اليوم الثالث كانت الصورة ذاتها

تتكرر في مدينة «القاهرة» عاصمة القطر ، وعندما حل اليوم الرابع تكررت الأحداث في الإسماعيلية ، وما أن حل شهر أكتوبر حتى كانت «مصر» كلها عن بكرة أبيها تعاني من وباء الكوليرا .

فقد سجلت دوائر الصحة ٣٣ ألف إصابة في ذلك الوقت خلاف الذين لم يبلغ عنهم وكان منهم ٢٠ ألف حالة وفاة .

من أين جاء هذا المرض ؟ كيف رحل ؟ لاأحد يدري أو يعلم ، ولكن بعضهم يفتي بأن جنود الاحتلال هم الذين كانوا السبب ! .

هذه الصورة كانت خاتمة المطاف لميكروب الكوليرا التقليدية التي لم نر لها وجهاً بعد ذلك التاريخ ، وإنما الذي كشف القناع عن وجهه الكالح هو ميكروب كوليرا «الطور» وميكروب كوليرا«الطور» ، هذا تسجل الأوساط الطبية تاريخ ولادته عام ١٩٠٥ بمحجر جبل «الطور» الذي كان يحتجز فيه الحجاج المصريون العائدون من الأراضي المقدسة ؛ لهذا سميت الكوليرا بأسم «الطور» نسبة إليه ! .

ففي القرية المعروفة باسم «الطور» والتي تقع عند جبل «الطور» في الجنوب الشرقي لشبه جزيرة سيناء ، كان على الحجاج أن يقيموا هناك خمسة أيام متتالية ، هي أيام الحضانة للكوليرا حيث يتم فحصهم ومعاينتهم ومراقبتهم ، وخاصة فحص عينات برازهم فكان الأطباء يكتشفون ضمات مسالمة تشبه ضمات الكوليرا التقليدية وتختلف عنها كيماوياً ولكنها لاتختلف عنها شكلاً ، وعلى هذا فلم يعهد منها الأذى أبداً لهذا كانت تعتبر في عرف الطب ميكروبات مسالمة لاتضر ولاتنفع ، ولكن موسم عام ١٩٠٥ شهد وفاة أحد الحجاج في محجر «الطور » ، وكان من الطبيعي أن يتم تشريح جثته وتحليل محتويات أمعائه ، فكان أن أكتشفوا هذه الضمات التي سموها كوليرا «الطور» والتي ربما كانت السبب في موته .

ولسبب أو لآخر فإن كوليرا «الطور» قد تخلت عن وداعتها ، واكتسبت ضراوة تفوق أختها الكوليرا التقليدية لدرجة أن هزمتها وحلت محلها فيما بعد ، واتخذت

لنفسها صورة خاصة بها قد لا تكون ذات الصورة المأساوية للكوليرا التقليدية ، ولكنها صورة عنيدة ، فهي ميكروبات تزمن داخل جسم ضحيتها وتفضل الانتقال مع الطعام الملوث عن الانتقال مع الماء . . إنها لاتصيب بإسهال شديد ولاتعذب ضحيتها بمغص وجفاف كما هي الكوليرا ؛ لهذا وجدت لها فرصة للتوطن في كثير من البلاد .

لم يكن أحد يأبه يوماً بكوليرا «الطور» بالرغم من الوباء المحدود الذي ظهر في جزر «سيليبس» فيما بين ١٩٤٠ - ١٩٥٨ .

غير أنها في عام ١٩٦٠ مدت مخالبها إلى جزيرة «جاوه» و«سومطره» و«ساراواك» ومستعمرة «هونج كونج» و«ماكاو وكوانتونج» و«الفلبين» .

ثم بدأت تتوالى قصص الإصابة بكوليرا «الطور» بعد أن اختتمت الكوليرا التقليدية قصتها مع الناس ، ففي حقبة الستينات في هذا القرن وصلت إلى بلادنا بل وتوطنت فيها كما كانت الكولير التقليدية متوطنة في «الهند» ومقتصرة عليها .

بقي من الحديث فصل التطعيم ضد الكوليرا وهو الذي بدأه رجل إسباني اسمه «فران» Ferran في أواخر القرن التاسع عشر ، حيث استعمل ميكروبات حية كان لها من المضاعفات مادفع الحكومة الأسبانية إلى منعه في الحال ، ثم تبعه بعد ذلك عالم روسي عام ١٨٩٢ اسمه «هافكن» Haffkine فحضر تطعيماً آخر بديلاً للأول في الهند ، يتركب من ميكروبات مروضة مستضعفة حية ، ثم جاء بعد هؤلاء عالم ألماني يدعونه «كول» Koll عام ١٨٩٦ ، فاختار ميكروبات ميتة لتحضير تطعيمه الذي نستعمله اليوم . لقد كان الاعتقاد أن هذه التطعيمات تعطي مناعة لاتقل عن ستة أشهر ، غير أن الأبحاث الأخيرة أثبتت خطأ هذا الاعتقاد حيث لايؤمن هذا التطعيم في إضفاء المناعة المطلوبة للوقاية ، فأبطلوا استعماله على أمل استحداث تطعيم آخر يعطى بالفم يوفر مناعة قوية طويلة . . فإلى أين تسير الكوليرا بالناس ياترى ومتى تنتهي قصتها ؟ . . الله أعلم .

الفصل الحادي عشر

الكَلَــــبْ

الكلب RABIES

داء السعـــار

نجم الشعري اليمانيةهو أكثر النجوم سطوعاً وبريقاً في السماء وأكثرها لمعاناً ، يدخل ضمن مجموعة كوكبة الكلب الكبير ، وظهوره يكون أكثر وضوحاً عندما تدخل الشمس برج الأسد فيما بين ٢٤ يوليو و ٢٣ أغسطس ، وهذا هو أكثر أوقات السنة حرارة وجفافاً في نصف الكرة الشمالي من الأرض .

يقولون فيه إنه القزم الأبيض الذي تزن البوصة الواحدة المكعبة منه حوالي الطن لأرتفاع كثافته النسبية ، ويقدرون بعده عنا ـ نحن أهل الارض ـ بحوالي ثماني سنوات ونصف السنة الضوئية .

وقد كان قدامى المصريين لهذا يعدون ظهوره بشيراً بمقدم موسم فيضان نهر النيل العظيم الذي يصادف شهر أغسطس من كل عام ، فيما كان الإغريق يرون فيه بداية معاناتهم من فصل حار جاف ؛ لهذا كان هؤلاء الإغريق يسمونه بالنجم المُحرق ، غير أن شاعرهم المشهور «هوميروس» يلقبه بالنجم الشرير ! .

ونظراً لموقعه في السماء عند أقدام النجم الذي عُرف عند أهل الفلك منهم بالصياد، فقد كان يطلق عليه النجم «الكلب» لأن تبعيته للصياد بمثابة تبعية الكلب للإنسان .

والبابليون ـ وهم من اشتهروا بين الحضارات الأولى بعلم الفلك ـ كانوا يؤمنون بما آمن به الإغريق أيضاً وكذلك كان الرومان من بعدهم وهم الذين سموه عندهم نجم الكلب (Canis) ، فكانوا يطلقون على أيام القيظ اسم أيام الكلب ، فهي أكثر أيام العام حرارة وجفافاً تحمل إليهم معها الأمراض والعلل .

لهذا كانوا يرون في نجم الكلب هذا «الشعري اليمانية» نجماً شريراً منحوساً يخافون منه ويتقون شره ، فيقدمون له من جثث الكلاب قرابين وضحايا .

هذه الأمراض التي تنتشر في فترة وضوح هذا النجم ، أي عند دخول برج الأسد ليست قاصرة على البشر وحدهم بل هي تعم وتشيع بين الحيوانات أيضاً ، إذ كانت الكلاب على حد زعمهم تصاب بالجنون في ذلك الوقت من العام ، والجنون في لغتهم الرومانية هو «رابيز Rabies » ونحن نسميه اليوم بمرض السعار أو داء الكلب ، وهو يصيب بِعَدْواه بني الإنسان أيضاً إلى جانب الحيوانات آكلة اللحوم كافة .

وقد جاء ذكر المرض منذ أكثر من ٤٠٠٠ عام (من حوالي ٢٣٠٠ سنة قبل الميلاد) عندما صدرت Code Of Hammourabi شرائع «حامورابى» أشار للمرض (إذا لم يقم صاحب أي كلب مجنون بحبس الكلب في منزله وإذا عض الكلب إنساناً ، ومات بعد العض يدفع صاحب الكلب غرامة مقدارها ٤٠ شيكل من الفضة ، وفي حالة عضه عبداً يدفع ١٥ شيكل فضة فقط) .

وقد ذكر Democritus «ديموقريطس» في القرن الخامس قبل الميلاد مرض الكلب بالجنون ، وقد ذكر مرة أخرى بوساطة أحد الفلاسفة في القرن الثالث قبل الميلاد ، بل ذُكر أنه يصيب الذئاب والثعالب أيضاً .

وقد كان لليونانيين القدامى اثنان من الآلهة مخصصان للكلاب هما :
Artemis & Aristaeus «أرتيميس» و «أريستوس» ، وفي القرن الأول الميلادي أشـار Celsus «سيلسس» إلى أن العقر من أي حيوان فيه خطورة على الإنسان ، وأن اللعاب به هذا السم ، وقال إن العضة يمكن شفاؤها مباشرة بكي الجرح ، وهذه تثبت فائدة المعالجة السريعة للجرح الناتج من العقر بجانب إعطائه اللقاح الخاص في العصر الحديث ، وفي بعض البلاد كانوا يعالجون المصاب بالكلب بعد ظهور الأعراض والتي منها الخوف من الماء بأن يقذفونه في بركة ماء عميقة بالرغم من أنه لايعرف السباحة ليغرق لفترة ويشرب بالتالي كمية من المياه ، ومن بعدها يخرجونه وهم يعتقدون إنه شفى من الخوف من الماء وبالتالي من المرض . غير أن العرب كانوا يعتقدون في السعار أو داء الكلب هذا أنه ينجم عن فساد الدم ، وقد ذهبوا في علاجه إلى أن دم الملوك هو الدم الذي يشفى من هذا المرض ، ولهذا كانوا يتحايلون على علاجه بإعطاء المصاب بضع قطرات من دم ملك أو إنسان شريف ، فهو عندهم دم كريم لايصيبه الفساد كباقي دماء البشـر ، بل إن له القدرة على أن يصلح الدم الفاسد للمريض .

وفي هذا يقول «التبريزي» في كتابه «شرح الحماسة» «يقولون إنه لادواء للكلب أنجح من شرب دم ملك ، وقيل في دوائه أن تشرط الأصبع الوسطى من اليد اليسرى لرجل شريف ، ويؤخذ من دمه قطرة توضع على تمرة فيطعم المعضوض منها فيبرأ» .

فيما ذهب «ابن قتيبة» في كتابه «عيون الأنباء» مذهباً آخر غير ماذهب إليه «التبريزي» فقال : « بلغني عن« الخليل بن أحمد» أنه قال : دواء عضة الكلب هو الزراريح والعدس والشراب العتيق » .

ونحن إذا كنا نعرف العدس والشراب العتيق ، فلسنا على دراية بالذي يعنيه «ابن قتيبة» من الزراريح ، وإن كان في هذا وذاك لم يصبه التوفيق كما كان أمر صاحبه التبريزي . ومن جملة ماذهب إليه العرب قناعتهم لعلاج السعار أنهم كانوا يعتقدون ببئر ناحية مدينة «حلب» تسمى«جب الكلب»، يؤكدون أن ماء هذه البئر تشفي من داء

السعار إذا ماشرب منها مكلوب ، بشرط أن لايكون قد مضى على عقره أكثر من أربعين يوماً .

هذه القناعات تركت بصماتها على أدب العرب وشعرهم ، فهذا البحتري مثلاً يقول في حال أحد الأمراء حين كان مريضاً فوصفوا له فصد الدم علاجاً :

لئن فصدت ابتغاء البرء من سقم

فقد ارقت دما يشفى من الكلب

وهذا عبد الله بن زياد يمتدح عبد الله بن الزبير صاحب الكوفه بقصيدة منها :

من خير بيت علمناه وأكرمه

كانت دماؤهم تشفى من الكلب

هذا ماكان من أمر العرب وقناعتهم وطبهم لمرض قتّال لابرء منه ولاشفاء .

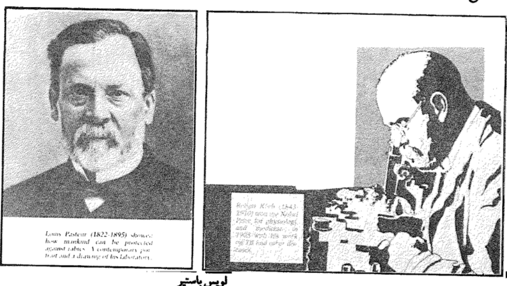
وتوجد لوحة محفوظة فى متحف «واشنطن» للفنون بأمريكا ذكر فيها الطبيب العربي «عبد الله بن الفضل» سنة ١٢٢٤ ميلادية أعراض مرض الكلب عند الإنسان . بل وأكد أن الإنسان المصاب ينبح مثل الكلاب ، ويعض كل من اقترب منه ، وبالتالي يصيب الآخرين بالمرض ، وهي قناعة أهل

لوحة محفوظه فى متحف واشنطن للفنون تبين أن الطبيب العربى عبدالله بن الفضل سنة ١٢٢٤م. قد ذكر أعراض المرض فى الإنسان وانتقال العدوى من الكلاب بواسطة العقر.

العصور الوسطى التي تبدلت في المفاهيم الطبية الحديثة .

أما ماكان من أمر أهل أوروبا في عصورهم الوسطى فقد عمدوا إلى الحمامات البحرية ، وإلى مسحوق عيون الأسماك طعاماً للمريض ، كما استخدموا الكي في موضع العقر ثم يقومون بعدها بتثليم أنياب الكلب المريض حتى يأمنوا شره وعقره .

وهكذا بقي الأمر ظلاماً ، يحارب الإنسان في دياجيره عدواً لايستبين له ملامح . إلى أن كان عام ١٨٠٤ م حين حاول طبيب ألماني يدعونه «جورج زنك» دراسة الكلب فحقن كلباً سليماً بلعاب كلب مريض فأصابه بالمرض وصدق حدسه بأن المرض يعدى عبر اللعاب الملوث ، ولكنه لم يدرك بماذا يتلوث اللعاب ، إلى أن جاء «لويس باستور» عام ١٨٨٤ م ليكتشف إن في دم الكلاب المريضة دقائق صغيرة هي فيروسات المرض الشرير القاتل ، وقد قام «باستير» بفصل الفيروس من مخ بقرة مصابة بالمرض ، وقام بتمريره ٩٠ مرة بحقنه في مخ الأرانب التي تصاب بالشلل بعد ٦ - ٧ أيام من الحقن .



Louis Pasteur (1822-1895) showed how mankind can be protected against rabies. A contemporary portrait and a drawing of his laboratory.

لويس باستير

وعندما عرض النخاع الشوكي للأرانب المصابة والتي بها كمية كبيرة من الفيروس الحي لتيار هواء ساخن لمدة يوم ، وجد أن كمية من الفيروس ٢ - ٥ ٪ قد ماتت ، وهكذا حتى وجد أنه بتعريض الفيروس لمدة ١٥ يوماً قد فقد ضراوته تماماً .

وقد قام باستير بحقن الكلاب من أول حقنة بالفيروس الذي تعرض للهواء الساخن لمدة ١٥ يوماً (الفيروس الميت) ، وبالحقنة الثانية بالفيروس الذي تعرض للهواء الساخن لمدة ١٤ يوما ، وهكذا إلى أن أعطى الكلاب الفيروس المعرض للهواء الساخن لمدة يوم واحد فقط .

وبالتجربة على الحيوانات ثبت له أن الحيوان الذي تم حقنه بالتتابع الذي سبق قد اكتسب مناعة ضد العدوى وضد الإصابة بداء السعار .

حتى بعد حقنها بكمية من الفيروس الحي التي تسبب وفاة الكلاب غير محصنة باللقاح .

ولكن كيف له أن يبدأ تجربته على الإنسان ؟

إنها مخاطرة بل قد تكون كارثة فالمرض قتَّال لا رجعة فيه ، وقد كانت الفرصة أن حمل والدان من منطقة « الألزاس » الفرنسية إلى باستور ابنهما المعقور ، الذي لم يتجاوز ٩ سنوات ، وكان اسمه «جوزيف مايستر» وطلبا منه تطعيمه ، فهي له فرصة في الحياة لأنه لا محالة ميت .

فأعطاه باستير ١٣ حقنة من هذا اللقاح في كل يوم حقنة بعد العضة بحوالي ٦٠ ساعة .

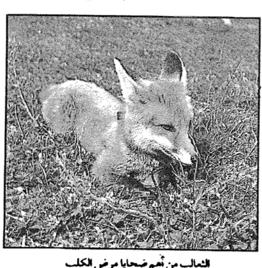
كان هذا في صيف عام ١٨٨٥ م إذ أثبتت التجربة نجاحاً باهراً ، لا لأن الطفل لم يمت فحسب ، بل لأن أعراض داء الكلب لم تظهر عليه أصلاً ، ولم يصب بالمرض ، وبعدها انهالت على «باستور» كل أسباب التكريم من ملوك أوروبا وأباطرتها كافة ، بل أصبح تطعيم باستور دستوراً معتمداً لعلاج المعقورين ولوقاية الناس ممن يحتمل عقرهم منذ ذلك الزمان ، حتى يومنا هذا . وقد حق أن يسمى إنجازه العظيم هذا «بَستَرَة الكلاب» بمثل ما اشتهرت بَستَرَة الحليب وتعقيمه من الميكروبات المرضية في كل زمان ومكان ، على أن من حق جيش العلماء الذين بذلوا عرقاً وجهداً متواصلاً

لاستجلاء حقيقة هذا الداء الفتاك أن نقدر لهم جهدهم ، وأن نرصدأعمالهم العظيمة الرائدة ، وأن نسجلها ببضع كلمات لاتعني أكثر من الوفاء والعرفان بالجميل لهم .

فهذا طبيب فرنسي هو الدكتور «بيير راين» نذكر له فضل تسمية المرض باسم «رهاب الماء» عام ١٨٣٩م فالمعهود من المريض أنه يخاف النظر إلى الماء بل ربما وصل الحال به إلى أن يخاف من ذكراسم الماء أمامه ، والواقع أن تشنجات تصيب عضلات الحلق والبلعوم عند المريض فيصعب عليه شرب الماء بالرغم من جفاف حلقه وعطشه الشديد ،فيغص إذا ماشرب الماء ويكاد يختنق ، لهذا سموه مرض «رهاب الماء» أو الخوف من الماء .

وهذا طبيب إيطالي آخر يدعونه «أديلشي نيجري » ١٢-١٩١٣م لاحظ بقعاً صغيرة في أنسجة المخ عند المريض سواء كان كلباً أم بشراً فتوهم أنها تجمع لطفيليات المرض من أنواع وحيدة الخلية أمثال الأميبا ، وما هي إلا مستعمرات للفيروس ، لهذا عرفت هذه الأجسام الصغيرة باسم أجسام «نيجري» وجرى الإسم في الوسط الطبي على هذا منذ ذلك الزمان وحتى وقتنا هذا .

لقد انقشعت ظلمة الماضي ، واتضحت لنا الحقيقة ، وعرفنا أن داء السعار سببه فيروس يصيب أول مايصيب مختلف الحيوانات آكلة اللحوم ، ومع هذا لازالت تتملكنا قناعات خاطئة منها قناعتنا بأنه مرض الكلاب لاغير ، لدرجة أننا نلفظه داء الكَلْب (بفتح الكاف وسكون اللام) في حين كان العرب فيما مضى من زمان يعرفونه (ولازال هذا اسمه) بداء الكَلَب (بفتح الكاف وفتح اللام)، بل إن عشرتنا للكلاب وألفتنا بها هي التي أوحت بهذا .ولكن هناك ضحايا كثيرون آخرون منهم الذئاب والثعالب



الثعالب من أهم ضحايا مرض الكلب

وابن أوى والوطاويط بل والقطط أيضاً تمرض بالداء وتنقل لنا الداء !

لهذا كان شائعاً وله في كل بلد ضحايا ووسطاء إلا أن هناك بلاداً يعتبرونها في يومنا هذا نظيفة من الداء لم تسجل دوائر الصحة فيها أية إصابة به ، ونعد منها «انجلترا» «وهاواى» و«استراليا» و«ابنما» ويطلقون عليها بلاد عذراء .

حيث طبقت إنجلترا وهي جزيرة ليس لها حدود برية مع أي دولة نظام الحجر البيطري على الكلاب والحيوانات الأليفة التي تدخل إنجلترا بحجزها في الحجر الصحي البيطري لمدة ٦ أشهر قبل السماح لها بالدخول ، وبذلك قضت على مرض الكلب تماماً .

أما الولايات المتحدة الأمريكية فبالرغم من وجود بها أكثر من المراكز العلمية تقدماً لمرض الكلب . إلا أنها لم تتمكن من القضاء على المرض ، لأنه ينتقل لها عن طريق حيوان الظربان المنقط Spotted Skunk من حدودها الجنوبية مع المكسيك وعن طريق حدودها الشمالية مع كندا .

فيما بلاد أخرى تعتبر مستوطنة للمرض نذكر منها الهند وباكستان ، وروسيا ، والصين واليابان ، وأفريقيا ، وشرقي البحر الأبيض المتوسط . . . وهكذا وهي على حد تعبير المنظمات الدولية تعتبر أماكن موبوءة لدرجة أنه سجلت في عام ١٩٤٠م بمدينة «مدراس» الهندية إصابة ١٤٧٥ شخصاً بداء الكَلَب ، وكان السبب في هذا هو عقر الثعالب والقطط الكبيرة وليست الكلاب !



الوطواط من أهم الحيوانات الناقلة للكلب في أمريكا الجنوبية

أما إفريقيا فالداء ينقله ابن آوى ، لأن الكلاب هناك وخاصة في غرب إفريقيا ، تنقل نوعاً من السعار لاينتقل إلى الإنسان يدعونه بلغتهم «أوتو فاتور» يصيب الكلب المريض بالشلل ويموت به ولكنه لايعض !

وفي أوروبا من عام ١٩٧٢ إلى ١٩٧٩م تم حقن مليون شخص بلقاح الكلب بعد تعرضهم للعقر من الحيوانات بل مات أكثر من ٦٠٠ شخص بمرض الكلب خلال هذه الفترة ، كذلك في فنزويلا تتوالى الوطاويط مصاصة الدماء عملية نشر المرض بين الخراف والأبقار والخيول ، فتصيبها بالشلل والنزيف يعقبها الموت ، لأن الوطاويط تعيش علي امتصاص الدماء ، وفي لعابها مايمنع تجلط الدم لتكفل لنفسها سيلان دم الضحية دون توقف .

فإذا ماكان الوطواط مريضاً فإن لعابه الملوث يختلط بدم ضحيته فتموت نزفاً أو تموت مرضاً ولهذا اصيبت «فنزويلا» وماحولها من دول أميركا الجنوبية بأزمة في الخراف ، بل وفي ثروتها الحيوانية منذ بضعة سنوات .

وهذا موجز لأهم الأحداث والمنجزات العلمية لمرض الكَلَب :

١٨٠٤ : نقل المرض للكلاب بحقنها باللعاب من الإنسان أو الكلب المصاب بالمرض .

١٨٨٥ : اكتشاف لويس باستير أول لقاح للكلب .

١٩٠٣ : اكتشاف أجسام نيجري لتشخيص المرض .

١٩٤٠ : بداية تحضير لقاحات فعالة للكلاب .

١٩٥٤ : بداية استعمال «الجلوبيولين» المناعي المضاد لمرض الكلب في الإنسان .

١٩٥٤ : تمرير فيروس الكلب على الخلايا مما فتح المجال لتحضير اللقاحات الحديثة .

١٩٥٩ : بدء إستعمال ميكروسكوب «الفلورسنت المشع» لتشخيص مرض الكلب .

١٩٦٢ : النجاح الكبير بمشاهدة الفيروس ودراسته بالميكروسكوب الإليكتروني .

ثم بعـد ذلك تم تحضير أحدث اللقاحات المستعمله حالياً للإنسان والمحضرة على الخلايـــا .

كما تم في سويسرا تحضير لقاح يعطى عن طريق الفم للثعالب ، وقد أعطى نتائج ناجحة وجيدة جداً .

هل يأتي يوم ينظف فيه العالم من هذا الداء الوبيل ؟

لنقل إن شاء الله .

الفصل الثاني عشر

الزهــري

الزهري SYPHILIS

مرض الفرنجه

أن الزهري لم يكن له أرض أو وجود في عالمنا القديم قبل رحلة «كريستوفر كولومبس» إلى أميركا عام ١٤٩١ ، وهبوطه على أرضها عام ١٤٩١ ثم عودته ثانية إلى أرض الوطن . . . لذا ربما استرعى المرض في مراحل انتشاره الأولى بعض بحارة كولومبس العائدين من جزيرة «هايتي» على متن السفينة «بنتا» Pinto ، حين شاهدوا إصابة بعض زملائهم بطفح على هيئة بقع جلدية حمراء ، فتوهموا أنها صورة من صور الحصبة ، لهذا أطلقوا في حينها اسم «الحصبة الهندية» عليها ولم يعيروها اهتماما ، غير أن المأساة الوبائية بدأت حين غزا الملك الفرنسي «شارل الثامن» بجيشه المرتزق الخليط من فرنسيين وسويسريين ومجريين وبولنديين وأسبان وبرتغاليين . . . مدينة «نابلي» واحتلها وعاث فيها جنوده فساداً ولهواً .

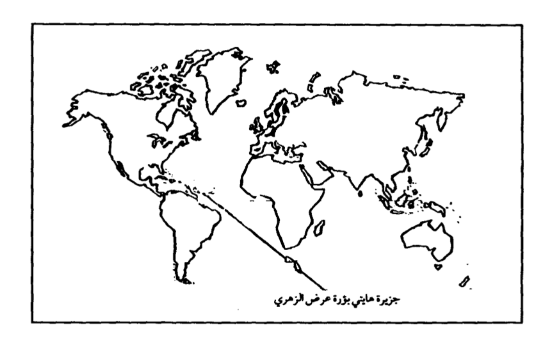
في ذلك الزمان كانت «نابلي» بؤرة الفساد الأوروبي ، الذي شاع عقب عودة جنود الحملات الصليبية ، بما فيهم جيش من المومسات قوامه ١٣ ألفاً ، قيل فيهن أنهن ممن يؤدين الواجب المقدس في الترويح عن جنود الإيمان المرسلين لإنقاذ الأراضي المقدسة من أيادي الكفار المسلمين ، لهذا لا غرابة أن تبارك الكنيسة قيام بيوت للدعارة ، تضم هؤلاء المومسات

السفينة بنتا نقلت رجال كولومبس المرضى بالزهرى من اميركا إلى اوروبا

إلى أن تجد لهن الدولة عملاً يرتزقن منه ، حلاً لمشكلة بطالتهن وأرزاقهن ولهذا كن يعتبرن مواطنات صالحات ، وبيوتهن بيوت محترمة يؤمها الناس الشرفاء ، وقد

بارك قداسة البابا« سكتس» هذا العمل وأيده ، وقامت الدولة بحماية وتنظيمه شرط أن يقمن أي (المومسات) بدفع ضريبة دخل للدولة شأنهن شأن المهن الأخرى ، وأن يؤدين الفرائض الدينية في الكنيسة ويقمن بشعائرها يوم الأحد .

وأن لا يتعاملن إلا مع زبائن مسيحيين فقط فلا مسلم ولا يهودي ولا مشرك فيهم ، لهذا لم يكن غريباً أن تجد مدرسة للأولاد في الأدوار السفلى من أحد المباني وفي الوقت ذاته تجد فيه بيتا للدعارة في الأدوار العليا منه . ولهذا أيضا عجت الشوارع بالأولاد غير الشرعيين ، وانتشر التسيب الأخلاقي بين الناس وتفككت



الأسر ، وفي جو كهذا الجو ، وبيئة كهذه البيئة لاعجب أن ينتشر المرض بين الجنود الغزاة ، وبين سكان «نابلي» المدنيين أيضاً . فكان أن أطلقوا عليه اسم مرض «نابلي» ، وذهب بعضهم ممن لا يعرف كنة هذا المرض إلى تسميته «بالجدري الطلياني» ، نظراً لتشابه بثوره مع بثور مرض «الجدري» الذي عم أوروبا في ذلك الزمان ، غير أن الطليان ـ على ما يبدو ـ رفضوا الإسم ولم يقبلوا هذه الدعوى وردوها على

الفرنسيين الذين حملوا المرض معهم ، ومن ثم سمي بعدها بالمرض الفرنسي الذي سماه العرب بأسم مرض الفرنجة فيما بعد ، ولكن الفرنسيين بدورهم قذفوا بالكرة في مرمى الأسبان ، لهذا تصدى طبيب أسباني يسمى «رودريجودياذ» للأمر مؤكداً أن منبع هذا المرض هو جزيرة «هايتي» ، وأيده في هذا الإدعاء كاتب أسباني يدعونه «أوفيدو» كان حاكما لجزر الهند الغربية مؤكداً أن كولومبس قد أخبره بهذا شخصياً !! .


جيرولامو فراكاستورو

وقد كان أن صاغ طبيب إيطالي من «فيرونا» (كان يتحلى بملكة الشعر) واسمه «جيرولامو فراكاستوزا» . . صاغ قصيدة روي عبر أبياتها قصة عن راع في جزيرة «هايتي» يسمى «سيفيليوس» كان يتعبد آلهة اسمها «الكيتوس» بدلاً من الآلهة الشمس ، فكان أن غضبت الشمس وأرسلت على الجزيرة إعصاراً قتل أغنام الراعي وشردها ،فما كان من الراعي «سيفيليوس» إلا أن تتطاول على الألهة الشمس وسبها فأصابته الشمس بهذا المرض الذي سمي بأسمه ، غير أن الناس لم تتقن لفظ «سيفيليوس»وحرفته إلى اسم «سيفيليس» ، ومن يومها وحتى يومنا هذا عرف المرض بهذا الاسم . . . مرض « سيفيليس» .

لكن طبيباً فرنسياً رفض هذه القصة من أصلها على اعتبار أن الأمراض لا تنسب إلى منبعها وإنما تنسب إلى أسبابها ، وما دام السبب هو الاتصال الجنسي فمن الأصوب أن يرد إلى إلهة الحب والجنس وهي «فينوس» التي يقع الجنس في دائرة اختصاصها .

يبدو أن هذا التعليل كان منطقياً عند بعضهم ومقبولاً . . . ليس بالنسبة للزهري فحسب وإنما لكل مرض ينقله الإتصال الجنسي ، لهذا أطلقوا اسم

«فنيريال» نسبة إلى «فينوس» على مجموعة الأمراض التي ينقلها الإتصال الجنسي سواء أكان الزهري؟ أم السيلان؟ أم غيره من أمراض الجنس .


شكسبير

أما الأطباء العرب قبل قرون أقنعتهم هذه الحجج فأطلقوا على المرض اسم الزهري ، لأن اسم الزهرة في اللغة العربية هو المقابل لاسم فينوس عند الفرنجة .

حين وصل المرض إلى إنجلترا كان وباء الجدري يفتك بالناس هناك ، ولكنهم وجدوا في الزهري أكثر فتكاً . لهذا سموه عندهم بالجدري الكبير ، وشاع هذا الاسم بينهم وفي هذا يقول شاعرهم شكسبير في رواية «هاملت» على لسان حفار القبور وهو يجيب هاملت على سؤاله :

- بعد كم من الوقت تتعفن جثث الموتى .

فيقول الحفار : هناك أجسام تتعفن قبل موتها لإصابتها بالجدري الكبير ! .
هكذا دارت معركة الأسماء في مطلع الأيام الخوالي حين حل الزهري بالأرض الأوروبية إلى أن استقر في أجسام أهلها ، فأصاب الكبير والصغير ، ووصلت عدواه إلى الملوك وإلى الصعاليك ، وتمكن من العابثين والماجنين ، ولم يترك حتى العابدين ورجال الدين ، ولكن لا أحد يدري للأمر سبباً ولا للمرض علاجاً .

لقد أصيب به الملوك والبابوات ، حتي أنه ساهم في كتابه التاريخ الأوروبي من خلال تصرفاتهم التي كان يمليها عليهم المرض في مراحله الأخيرة ، حين يصيب الجهاز العصبي بالتوتر والإنفعال بل والجنون إن لم يكن الموت .

غير أن التعليل في إصابة كل من هؤلاء أمر يدعو إلي الضحك والسخرية ، إذ قال بعضهم أن عامة الناس تصاب بالزهري عبر الإتصال الجنسي ، غير أن رجال

الدين يصابون من خلال الهواء الذي يتنفسونه فقط ، فيما ذهب بعضهم إلى أنه وباء ينتج من التقاء كوكب زحل بكوكب المريخ ، فتنتج ريح سامة عن ذلك هي السبب فيه ! وهكذا ذهب كل منهم في تعليل إصابته مذهبه لكن أحداً في ذلك الزمان لم يكن يعرف له سبباً ، وقائمة ضحايا الزهري طويلة لا حيله لنا أن نحصيها ، ولكن الأمثلة كثيرة نختار منها مايتوفر لنا عليها دليل ، فالغريب أن الملك الفرنسي «شارل الثامن» صاحب مأساة «نابلي» ومرضها لم يصب ذاته بالمرض أو لعله أصيب بعوارض شفي منها فيما بعد ، ولكن ابنه «فرانسوا الأول» الذي اعتلى عرش فرنسا فيما بعد في عام ١٥١٥ حتى عام ١٥٤٧ أصيب بالزهري وإصابته تستحق التسجيل والرواية :

لقد كان الملك الفرنسي رجلاً خليعاً مغرماً باللهو والعبث ومجالسة النساء ، وكانت له خليله مشهورة يدعونها «لابيلا فورتير» يحتفظ متحف اللوفر في باريس بصورة لها في إحداى ردهاته .

ولما علم زوج هذه المرأة بالعلاقة التي تربط بين زوجته وجلالة الملك ، أراد أن ينتقم منهما معاً ، فتردد على بيوت الدعارة عله يصاب بمرض الزهري ، وقد أصيب الرجل فعلاً بالمرض فنقله بدوره إلى زوجته التي نقلته بدورها إلى الملك العاشق وهي لاتدري ! لقد تحسنت حالة الرجل لحسن حظه بينما ماتت زوجته بسبب المرض .

أما الملك فقد لازمه المرض طوال حياته واتسمت تصرفاته بالعصبية والشذوذ ، مما تأثر معها تاريخ فرنسا ، وتأثرت علاقاتها بالدول المجاورة يومذاك .

لقد كان الملك «فرانسوا» في مطلع حياته شجاعاً مقداماً طموحاً يحلم لبلاده بإمبراطورية واسعة الأطراف ، ولكنه انهزم فيما بعد في كثير من حروبه بسبب مرضه .

وحين حاول الأطباء علاجه استعملوا معه ماكان معروفا في زمانه من دواء وهو «الزئبق» ، ثم حاولوا معه عقار «الجواياكم» الذي كان نادراً فكانوا يرسلون له السفن لتجلبه من البرازيل خصيصاً لعلاجه ، ومع هذا فلم ينفع

وحالته تسوء يوماً بعد يوم ، لهذا أصبح ضيق الصدر ، سيئ التصرف ، أعصابه مجهدة حتى وصل به الحال إلى جنون العظمة ، فيما كان من حوله يبررون الأمر بأنه بسبب إجهاد الفكر وشحذ القريحة .

ولما فشل الملك في حروبه بحث له عن حليف ، فوجد في «هنري الثامن» ملك إنجلترا ضالته أو هكذا توهم ، لهذا دعاه إلى باريس حيث بالغ في إكرامه جداً ، فبنى له قصراً فخماً مؤثثاً بأفخر الأثاث ، ووفر له فيه أجمل النساء مما كلف الخزينة أموالاً طائلة . أثرت على ميزانية فرنسا . ومع هذا تنكر له «هنري الثامن» (الذي أصيب هو الآخر بالزهري) وطمع في ثروة فرنسا ، على أية حال فقد مات «فرانسوا» وكتبوا على قبره «هنا يرقد الملك فرنسيس الذي مات من الزهري عام ١٥٤٧» أما صاحبه «هنري الثامن» ملك إنجلترا فله هو الآخر مع الزهري قصة أخرى قتلته في اليوم الذي قتل فيه الزهري «فرانسوا» ، فالملك «هنري الثامن» هذا كان في مطلع حياته قوياً وذكياً وشجاعاً ورياضياً ، لهذا قام بأعباء الحكم بجدارة بالرغم من صغر سنه الذي لم يتجاوز ١٨ سنة . ولكنه عندما تزوج من أرملة أخيه وهي أميرة أسبانية تدعى «كاترين اراجون» رزق منها بعد سنه بطفل ولد ميتاً .

وبعد هذا رزق بخمسة أولاد كانوا يولدون موتى أو أنهم كانوا يموتون بعد ولادتهم بقليل ، ولم يعش له سوى طفلة اسمها «ماري» غير أن المسكينة «ماري» هذه هرمت وتجعد جلدها قبل الأوان ، وساءت طباعها ، لهذا كانت عندما تولت الحكم من بعد طاغية جبارة ،حتى أنهم أطلقوا عيها اسم «ماري الدموية» Bloody Mary ولكن الملك الإنجليزي كان يحلم بولد يخلفه من بعده ، لهذا طلق زوجته بحجة إنها فاشلة في واجبها الملكي أو هكذا أفتى له «الكاردينال ولسي» نفاقاً وزلفي ! وعندما استأذن البابا في الطلاق والزواج مرة أخرى رفض البابا «كلمنت السابع» طلب الملك ، فما كان منه إلاأن



الملك هنري الثامن ملك انجلترا

قطع علاقته بالكنيسة الكاثوليكية واضطهد أتباعها وصادر أملاكهم ، وأوجد بذلك كنيسة خاصة لإنجلترا هي «الانجليكانية» ثم كان أن تزوج الملك «هنري» من «آن بولين» وهي بنت صغيرة لم تكمل السادسة عشرة من عمرها ، كانت كريمة أحد النبلاء ولكنها هي الأخرى فشلت في الواجب الملكي ، لأنها حملت وأجهضت ولم ترزق إلا ببنت اسمها «اليزابيث» فما كان من الملك إلا أن اتهمها بالزنى وقطع رأسها .

وهكذا تكررت المأساة بين زواج وطلاق حتى توفى هو الآخر في ذات العام الذي مات فيه ملك فرنسا «فرانسوا الأول» .

إن القائمة طويلة من ضحايا هذا الداء منهم الموسيقار «بتهوفن» الذي يجتهد بعضهم ويعلل سبب صممه بإصابته بالزهري ، ومنهم الفيلسوف الألماني «نيتشه» الذي اخترع شخصية السوبرمان ، ولكنه بعد أن أصيب بالمرض تغير طبعه وهاجم



علاج مرض الزهري بحمامات البخار في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر

الجميع بمن فيهم شخصية الذات الالهيه ، حتى أنهم اتهموه بالإلحاد ، كما هاجم أمه وأشقاءه ، ثم كانت نهايته في مستشفى الأمراض العقلية مجنوناً إلى أن توفى .

علاج وكانت هناك .

أما الشخصية التي تستحق أن لا تنسى فهي شخصية الكاتب الألماني «أولريتش توتن هتن» لأنه كتب رسالة بعنوان «الموت خاتمة الآلام» ، كما كتب رسالة أخرى اسمها « صلاة لشفاء قدم مريض » ، وهذه الرسائل تتناول مرض الزهري من منطلق التجربة الشخصية ، فقد وصف أعراض المرض تفصيلا يعدونه مرجعا طبيا صادقا ،كما عدّد العلاجات المستعملة في زمنه ، فذكر «الزئبق» ، وذكر حمامات البخار ، وأشار إلى «صمغ الجوايايكم» وإلى طعام الخبز والزيت فقط لمدة أربعين يوماً ، ولكنه مات ولم يكمل ٣٥ سنة بعد أن عاني من المرض ١٥ سنة كان فيها شرساً عدوانياً لم يستثن أحداً سواء اكان صديقاً أو كان عدواً ، وضيعاً كان أم كان نبيلاً حتى أنه تطاول على مقام البابا نفسه لهذا لم يلق أية رعاية أو اهتمام أو مساعدة من أحد .

على أية حال فقد بقي الأمر على هذه الصورة في الصراع مع مجهول يعيش في الظلام إلي أن كان عام ١٩٠٥ حين اكتشف طبيب ألماني يدعونه «شودن» ميكروب الزهري علي هيئة اللولب وأقرب شبهاً بفتاحة الفللين .

وغالباً ما يتسلل إلى الجسم خلال الاتصال الجنسي أو العلاقات الجنسية المباشرة ، غير أن منه نوعاً أطلقوا عليه الزهري الوراثي الذي تنقله الأم إلى ولدها بالرغم من أنه ليس بالوراثي بمفهوم الدقة العلمية ، لأن المرض الوراثي ينتقل من الوالدين على متن مايعرف «بالكروموزومات» أو «الصبغيات» وهي تراكيب تشبه الخيوط ، في نواة كل خلية ، يعدون منها في خلايا الإنسان ٤٦ صبغية أو كروموزما ، ولكن الحقيقة أن الزهري يعبر حاجز المشيمة من دم الأم إلى جسم الطفل في الشهور الأخيرة من مدة الحمل ، لهذا يصدق عليه وصف الزهري الخلقي وليس الوراثي أو هو العدوى أثناء الحمل .

وفي البداية تظهر قرحة صلبة لا ألم فيها بعد مدة حضانة تتراوح بين ١٠ أيام

وشهرين أو ثلاثة وتدوم القرحة أياماً ، ثم تختفي تلقائياً ليظهر فيما بعد طفح جلدي أحمر على الجلد والغشاء المخاطي ، ثم تختفي المرحلة الثانية لتغيب الأعراض كلها مدة طويلة قد تصل إلى سنوات ، ولتعقبها المرحلة الثالثة التي تظهر في أي موضع يستقر فيه الميكروب ويتوطن .

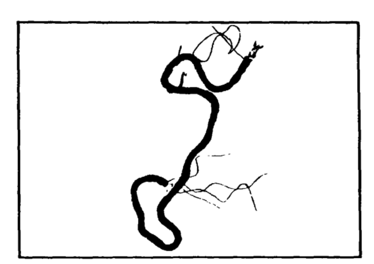
ومن أخطر المواقع هي المفاصل والجهاز العصبي والعيون ، لهذا فمن المألوف أن يخلف الزهري علة لصاحبه ، أو جنوناً ، أو شللاً ، أو عمى ، إذا لم يعالج في حينه مبكراً . . .

وقد كان العلاج المعتمد للزهري في البداية هو الزئبق بالإضافة إلى صمغ الجواياكم ، كما كانوا يعمدون أيضا إلى حمامات البخار الساخن ، أو إلى إصابة المريض بالملاريا ؛لترفع درجة حرارته ثم يقومون بعدها بعلاجه من عدوى الملاريا بواسطة الكينا .

ثم كان أن أدخل عالم ألماني اسمه «ايراليتش» علاجاً جديداً في عام ١٩١٠ سماه «ارسيفنامين» قوامه معدن «الارستيك Arsenie» وقد جربه ٦٠٥ مرات ، ولكنه دوماً كان يفشل إلى أن نجح في تجربته رقم ٦٠٦ ، لهذا عرف العقار باسم عقار «٦٠٦» في ذلك الوقت .

غير أن دخول البنسلين إلى ميدان المعركة عام ١٩٤٣ قلب كل الموازين . لأن الأطباء وجدوا فيه بلسما شافيا أيضاً للزهري بعد أن ثبت أن حقنة منه تشفى بمعدل يصل إلى ٩٩ بالمائة إذا ما بدأ العلاج قبل ظهور الطفح أي إذا ما كان في مراحله الأولى .

على أية حال لم يثبت أن للزهري ضحية أخرى غير الإنسان كما ثبت أن البنسلين هو البلسم الشافي لهذا المرض . فالأمل كل الأمل أن تنتهي قصة الزهري نهاية سعيدة .



جرثومة الزهري كما ترى بالالكترون ميكروسكوب مكبرة عشرين ألف مرة

الفصل الثالث عشر

حمى مالطـة

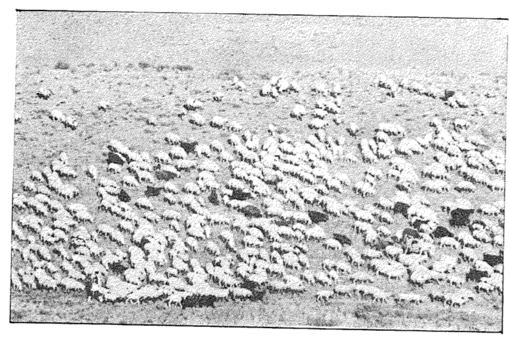
حمى مالطه

BRUCELLOSIS

حمى البحر الأبيض المتوسط

مالطه جزيرة عريقة التاريخ ضمن مجموعة جزر تقع جنوب جزيرة صقلية وسط البحر الأبيض المتوسط تسمى مجموعة الجزر المالطية .

والجزر المالطية على عراقتها عرفها الفينيقيون والإغريق ، كما عرفها الرومان ثم العرب من بعدهم ، ثم توالى عليها النورماند حتى جاءتها منظمة الصليبيين الاسبتارية فاستولت عليها بأمر البابا وتسمت فيها بفرسان القديس بطرس ثم جاء



قطعان الأغنام التي تشتهر بها جزيرة مالطا

«نابليون» وهو في حملته على مصر فطردهم واستخلصها . . . وأخيراً كانت من نصيب البريطانيين عام ١٨١٤ بعد هزيمة جيش نابليون الفرنسي النهائية ، لتكون مركزاً وعقدة اتصال في الطريق مابين شرقي المتوسط وغربيه . . . في

طريقهم إلى الهند . . .

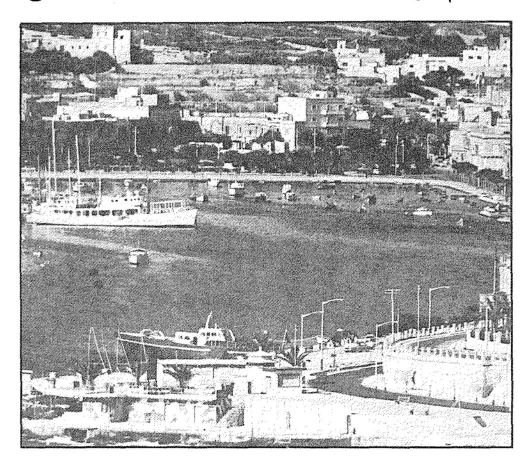
على مر هذه العصور المتعاقبة كانت أسراب النحل تشارك البشر في استعمار هذه الجزر الجبلية الصخرية الجرداء ، وتتخذ من قمم الجبال وشقوقها بيوتاً لها ومناحل ، لهذا كان أن أطلق عليها الرومان اسم جزيرة العسل التي تلفظ في لغتهم ميليتا ومنها كان اشتقاق اسمها المعروف الدارج «مالطه» والذي تحور وتبدل مع الزمن من «ميليتا» إلى مالطا ، منهما غير أن النحل على ما يبدو لم يجد في الجزيرة له رزقا وفيراً حيث الصخور الجرداء لا زهر فيها ولاورد تمتص منه رحيقها فحمل النحل متاعه ورحل عنها .

ومثله كان شأن الماشية الضخمة كالأبقار التي لم تجد لها في نباتات الجزيرة ما يكفيها طعاما ، فلم يبق فيها سوى الماعز الذي تقنعه الاعشاب التي تطل برأسها في تواضع على أرض الجزيرة القاحلة من كل نبات إلا من تجمعات عشبية هنا وهناك . . .

شيء واحد يبدو أنه لم يسترع انتباه الأجيال القديمة من البشر هي «حمى» غامضة تشيع بين الناس هناك ، تداهمهم في فترات وتكف أذاها عنهم فترات أخرى ، فهي تتقلب على صورة موجات تشتد ليلا ، وتنخفض نهارا ، يصحبها عرق غزير وآلام مفصلية شديدة ، لهذا سموها بالحمى المالطية ، ولكنهم لم يميزوها عن غيرها من الحميات الأخرى «كالحمى الروماتيزمية» أو «السل» أو «التيفوئيد» ، فعرفت بالحمى المتموجة لتموج حرارة المريض معها . على هذا الدرب سار البشر قروناً متعاقبة دون تمييز لهذه الحمى عن تلك ، إلى أن ابتلى الله هذه الجزيرة بأن تستعمرها بريطانيا العظمى وتتخذ منها ميناء بحرياً تلجأ إليه سفن أسطولها العامل في البحر الأبيض المتوسط ، وكانت من المصادفة أن يكون ضمن العاملين في الخدمات الطبية في القوات البريطانية طبيب يدعونه «جيفري مارستون» صاحب عقل متفتح وذكاء وقاد ، فاكتشف أن الحمى في مالطه غير

التي في بلاد أخرى لهذا كان أن اطلق عليها عام ١٨٦٣ اسم حمى مالطه ·

ومادام لكل مرض سبب فلابد أن لحمى مالطه سببا ، وخاصة أن «كوخ»



الألماني في ذلك الزمان كشف سر السل والكوليرا والحمى الفحمية ، وكان «باستور» الفرنسي بغزواته العلمية يؤكد هذا المعنى ، فاكتشف أسباب تخمر النبيذ الفرنسي المشهور ، وابتكر تعقيم الحليب بطريقة عرفت من بعده باسم بسترة الحليب نسبة إلى اسمه ، وأعد لقاحاً ضد داء الكلب ·

على هذا الدرب سار طبيب انجليزي اسمه «دافيد بروس» فاكتشف في طحال أربعة ممن أصابتهم «حمى مالطة» وصرعتهم أن السبب هو جراثيم صغيرة ظنها من

نوع المكورات ، فأطلق عليها اسم «المكورات المالطية» Micrococci Melitensis ثم كان أن سموها فيما بعد باسم «البروسيللا المالطية» Brucella Melitensis نسبة إلى مكتشفها الطبيب الانجليزي «بروس» .

في تلك الأيام كانت الحكومة البريطانية مشغولة بحروبها هنا وهناك ، وكانت حرب القرم على أشدها في منتصف القرن التاسع عشر ، لهذا كانت تبعث بجنودها من الجرحى ومن ضحايا الأمراض الأخرى إلى جزيرة مالطة لقضاء فترات من الراحة والاستجمام والنقاهة .

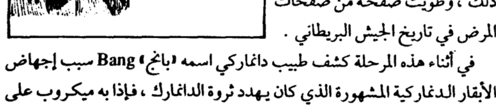
غير أن الجندي إذا ماشفى من علته الأولى كانت تصيبه حمى الجزيرة التي لم يعرفوا لها سببا ولا وسيلة ، فكان أن أرسلت الحكومة البريطانية في عام ١٩٠٤ بعثة طبية لتقصي الحقائق حول هذه القضية التي تشغل بال الوسط الطبي العسكري .

فقام بوصف الحمى على وجه دقيق طبيب من أطبائها ، ساء حظه فأصيب بها ، لهذا كانت تجربته تملي عليه الحقائق من وحي التجربة أكثر من وحي المعرفة ، وكان ضمن البعثة الطبية أيضا طبيب مالطي اسمه «زامت» لفت نظر زملاءه في البعثة الطبية إلى أن هناك في دم الماعز المالطي مواد معينة تؤدي إلى تخثر الميكروبات التي اكتشفها «بروس» ، إذا ما أضيفت إليها وامتزجت بها . هذا ما دفع البعثة الطبية إلى الاشتباه في ماعز الجزيرة في أن تكون هي السبب ، وأثبت فحص عينات منها أن المرض منتشر بينها فعلاً ، وقد تصل نسبته إلى خمسين بالمائة بل إن عشرة بالمائة منها تفرز هذا الميكروب في حليبها ، وكانت العادة في مالطة أن



يسير الراعي في شوارع المدينة وهو يسوق قطيعه من الماعز أمامه ، يحلب لمن يشاء حليبا طازجا يشربه الناس فورا عن قناعة منهم بأن فيه كل أسباب الصحة والعافية دون ماغلى أو معالجة ، وخاصة أن الماعز المالطي قد أشتهر في العالم كله بجودة حليبه ووفرته .

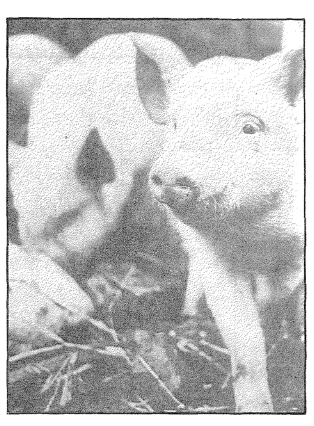
لهذا كان أن استوردت شركة أميركية قطيعا من الماعز المالطي تعداده ٦٥ رأسا ، حملوها على سفينة خاصة بنقل المواشي ، فقطعت المسافة بين فاليتا عاصمة مالطة وميناء نيويورك الأميركي على مرحلتين ، الأولى كانت برفقة ١٢ بحاراً أصيب ثمانية منهم بالحمى المالطية ، أما الباقون الأربعة فاثنان منهم لايحبان شرب الحليب أصلا ، واثنان آخران يفضلان شرب الحليب ساخناً بعد غليه ، أما في المرحلة الثانية من الرحلة فقد رافق الماعز ٦٤ بحاراً أصيبوا جميعهم بالمرض ، والمضحك في الأمر أن الماعز وصلت إلى أميركا مريضة ، وقد أصابها الإعياء مما اضطر أولى الأمر أن يعدموها جميعها إذ لاتصلح لا للأكل ولا للحلب .



على أي حال فالبعثة البريطانية وصلت إلى قناعة بأن شرب حليب الماعز المريضة هو وسيلة نقل المرض ، وخاصة أن ستة بالمائة من سكان الجزيرة المالطيين وجدوهم يحملون أسباب المرض، لهذا قررت البعثة منع شرب الحليب على الجنود البريطانيين فلم يمرض منهم أحد بعد ذلك ، وطويت صفحة من صفحات المرض في تاريخ الجيش البريطاني .

في أثناء هذه المرحلة كشف طبيب دانماركي اسمه «بانج» Bang سبب إجهاض الأبقار الدنماركية المشهورة الذي كان يهدد ثروة الدانمارك ، فإذا به ميكروب على

شكل عصيات يقبع مابين جدران أرحام الأبقار والكيس الجنيني ، لذلك سماه «عصيات البروسيللا» وقد سمى المرض باسم مرض بانج Bang diseas ، كان ذلك عقب اكتشاف «بروس» لميكروبات الحمى المالطية بثماني سنوات أي أنه كان عام ١٨٩٥ ، ولكن أحداً لم يلحظ الشبه بين هذا وذاك لاعتقاد «بروس» إنها مكورات فيما رآها «بانج» على هيئة عصيات إلى أن نشرت باحثة اسمها إيفانز Evansعام ١٩١٧ أن ماظنوه مرضين إنما هو في الواقع صورتان مرضيتان لميكروب واحد ، وإنه علي هيئة عصيات وليس مكورات كما توهم «بروس» من قبل ، ولقد عمل على التحقق من دعوى «إيفانز» طبيب آخر اسمه «بيفان» فوجد في دعوة الدكتور «إيفانز» صوابا ، لهذا سميت الأولى «البروسيللا المالطية» فيما سميت الثانية باسم «البروسيللا المجهضة Brucella Melitensis - Brucella abortus»



في أثناء ذلك لاحظ طبيب أميركي من ولاية «انديانا» كثرة إجهاض الخنازير في ولايته ، ولما فحص أجنتها وجد بها ميكروبات تشبه البروسيللا فطلع علي الوسط الطبي باكتشافه عام ١٩١٤ عن أسباب إجهاض الخنازير ، وعزا ذلك إلى ميكروبات «بروسيللا الخنازير» على وهم أنه فصيل ثالث من الميكروبات ، فيما ثبت بعد ذلك إنه سلالة أخرى وإنها جميعا تنتمي إلى الأسرة نفسها ، ثم كشفوا فيما بعد أن للبروسيللا سلالات أخرى أيضا منها بروسيللا الكلاب ومنها

بروسيللا البيض وليس فيها خطر على الإنسان ولاتعديه ، ثم انكب العلماء على دراسة مرض البروسيللا وطبيعته ، فكشفوا أن أهم الأسباب هو شرب الحليب دون غلي أو تعقيم أو بسترة . كما أن اللمس واحد من أسبابه الأخرى ، لهذا فالمرض يشيع بين القصابين والأطباء البيطريين أكثر ما يشيع ، بل أن العدوى قد تصل عن طريق التنفس ، فالميكروبات تتطاير في الهواء مع الغبار ولكنه لم يعهد بأن انسانا مريضا قد نقل عدواه إلى انسان آخر سليم .

هذا إلى أنه مرض منهك حقا ، يتميز بالحمى والآلام في المفاصل والعرق الغزير ، ولكنه ليس بقاتل إلا في حدود ضيقة لاتتجاوز اثنين بالمائة من المرضى فقط ، على أي حال استئثار مالطة باسم المرض فيه تجاوز على الحقيقة لأن المرض قد ثبت انتشاره في كثير من البلدان في العالم ، وخاصة بلدان ما حول البحر الأبيض المتوسط ، ولهذا يحلو لبعضهم أن يسميه بحمى البحر الأبيض المتوسط .

وهو حقا مرض منهك مزمن قد يدوم أسابيع أو شهورا أو ربما سنوات . وكذلك فإن مدة حضانته وهي المدة التي تمضي دخول الجراثيم إلى الجسم وظهور الأعراض عليه فهي تمتد مابين أسبوع إلى ثلاثة أسابيع في المتوسط ، ولكنها قد تطول شهورا أو سنوات ، إلا أن علاجها ليس بالأمر المستعصي حاليا على الطبيب إذا تبين حقيقة المرض ووصل إلى تشخيص دقيق له .

لقد كان غريبا على أطباء الماضي أن يلاحظوا أن العدوى تشيع بين الرجال أكثر مما تشيع بين النساء ، ولعل هذا ما أضفى على المرض غموضاً ساهم في إخفاء حقيقته ، ولكن الرجال هم الأكثر اختلاطا بالأغنام المريضة من رعي وذبح وهم كذلك الأكثرية العاملة في رعاية الأبقار ، لهذا اعتبروا المرض مرضا مهنيا ترتبط عدواه بمهنة الرعاة والقصابين والأطباء البيطريين وهكذا .

ولكن يبقى حليب الماعز الطازج غير المعقم هو سر عدواه الأول والأهم .

قبل ذلك لم يكن لأحد أن يتصور أن الحليب الطازج المحلوب أمام عيني شاربه قد يحمل معه الحمى المرعبة ! .

الفصل الرابع عشر

الحصبة

الحصبة

MEASLES

والمرض الشبية

الحَصبة «بفتح الحاء وسكون الصاد» هي على الأغلب مصدر لفعل حَصَب «بفتح الحاء ،فتح الصاد» فإذا ما حَصَب المرء شيئا فقد رماه بالحصباء ، وهي الحصى الصغيرة مفردها حَصَبَة ، فإذا كُسرت الكلمة فهي الحِصبة فإن المعنى يذهب عند العرب إلى ريح شديدة تثير الحصباء .

والحَصْبة على هذا مرض قديم معروف ببثوره الحمراء التي تصيب الأطفال على الأغلب كالشر الذي لابد منه ، ولكنهم مع هذا ومع وداعة هذا المرض لم يكن تفريقه عن مرض الجدري هينا عليهم ، ولا عن مرض آخر يعرف باسم



أبو بكر الرازي (٨٦٥ - ٩٢٥)

«الحمى القرمزية» بمثل مايجده أطباء اليوم . ولعل الفضل في التفريق يعود إلى أطباء عرفوا في الماضي ، وفرقوا هذا عن ذاك ودونوه في قراطيس بقيت من بعدهم فوصلت إلينا ، وعلى رأسهم طبيبنا الإسلامي الكبير «أبوبكر الرازي» (٨٦٥ - ٩٢٥م) الذي ترك رسالته المشهورة في التفريق بين الحصبة والجدري ، وما هو الفرق بين هذا وذاك؟ وتبعه عام ١٦٦١ طبيب إنجليزي قديم يدعى «توماس سيدنهام» فرق بين الحصبة والحمى القرمزية ، فاقفل الحلقة التي بدأها «أبوبكر» وإن كانت كتب الغرب تغفل لطبيبنا الإسلامي ذكر هذا الفضل ، وهو الذي قام بتسمية المرض بالحصبة .

لهذا لم يكن التاريخ للحصبة بالأمر الهين على الباحثين والمتبعين ، وخاصة أن الأطباء وحتى سنوات قريبة لم يكونوا يعرفوا للحصبة سرا سوى إنها مرض ملزم لكل طفل يداهمه مرة واحدة في عمره ، وينتابه بأحدى درجتين إحداهما هي الحَصبة الخفيفة والأخرى هي الحَصْبة الشديدة ، إلى أن تكشف لهم سبب المرض فإذا به من نوع الفيروسات وأنهما فيروســان اثنان لكل مرض فيروس متميز عن الآخر .

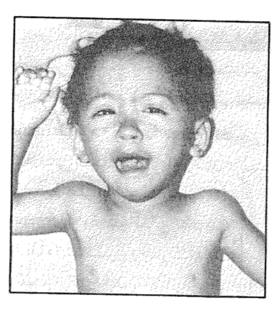
وقد لزموا درب الخطأ فيما ذهبوا إليه وزعموه حول هذا المرض من قبل واختصاص الأطفال به وشدته أو خفته .

فالحَصْبة لشدة عدواها وفوعة جراثيمها سريعة الانتقال ، تصيب ضحيتها مع أول بادرة تلقاه فيها ، لهذا كانت تشيع بين الأطفال إذا لم يكن منيعا ضدها . وقد سجلت أحداث التاريخ أنها أصابت الناس بأوبئة فتاكة ، في مناطق أطلقوا عليها اسم المناطق العذراء ، ممن لم يعرف أهلها الحَصبة أبداً قبل ذلك ، فأصابت منهم كبارهم وصغارهم معا ، وقتلت منهم العديد وفتكت بالكثير ، بل قد كشفوا أن ماتوهموه درجات للحصبة إنما هو مرضان ، لكل منهما فيروسه الخاص به «فيروس كلمة يونانية قديمة تعني شيطان» فأطلق الأطباء في الزمن المتأخر عليهما اسم الحَصْبة المعتادة ، والأخرى سموها بالحصبة الألمانية ، وماهي بالألمانية وليس للألمان صلة بها ولاقرابة ! .

غير أن الاطباء في مطلع الأمر كانوا يطلقون على المرضين اسم مرض الحَصْبة ، واسم المرض الشبيه بالحَصْبة ، وقد اقتبسوا من اللغة اللاتينية كلمة «جيرمانوس Germanous» وللمعنى ذاته ، تعني الشبيه لهذا . أطلق الفرنسيون اسم «جيرمين Germain» (من أصل Germane) للمعنى ذاته ، ثم جاء بعد ذلك من توهم خطأ أن معنى الكلمة من الجرمان ، فاختلط عليه الأمر فترجمها الى «German» ومعناها ألماني ، ثم شاع الخطأ وانتشر ، وصارت تلقب باسم مرض الحَصْبة الألمانية عوضا عن اسم المرض الشبيه بالحصبة .

ثم مضت السنون حتى كان عام ١٨٦٦ فطلع طبيب اسكتلندي يدعى «هنري فيل» ليطلق اسم «روبيللا Rubella» بدلا من اسم الحَصْبة الألمانية تميزا لها وتفريقا عن الحصبة المعتادة ، اشتقاقا من كلمة إغريقية تعني الطفح الأحمر . لهذا لا عجب أن أطلق عليها العرب قديما اسم «الحميراء» .

لقد بقيت قناعة الناس أن الحصبة قدر لاحيلة للأطفال أن يهربوا من عدواه ، لدرجة أن الناس كانوا يتحينون الفرص المواتية لتعريض أطفالهم لعدواه ، إذا ما أنسوا فيهم صحة الجسم وقدرة المقاومة والعمر المناسب . وهم يعرضونهم عمدا لأطفال مصابين كي يصابوا بعدوى بسيطة على حد تقديرهم مبررين فعلتهم هذه بحجة يرونها مقنعة ، هي أن وقوع الشر خير من انتظاره ، ومادام لابد منه يوما ما . . . فليصابوا به لأنه قد يداهمهم وهم على غير استعداد له ، حتى كان عام



١٨٤٦ حين رصد طبيب هولندي هو «بيتر بانوم Peter Panom» وباءا أصاب سكان «جزر فارو Faroe» إذ مرض بالحصبة ستة آلاف نسمة (٦٠٠٠) من بين ثمانية آلاف (٨٠٠٠)، ولم ينج من عدواها إلا من تعدى سن الخامسة والستين ، وبالتحقيق في الأمر وجدوا أن وباء للحصبة حدث قبل هذا بخمسة وستين سنة تقريبا .

وقد كان سر وباء الحصبة عام ١٨٤٦ هو قدوم مسافر إلى الجزر ، قادما من «كوبنهاجن» عاصمة الدانمارك ، يحمل في جسمه عدوي المرض ، إذ أنه كان يعاني منه وهو كبير .

وجزر «فارو» على ماهو معروف هي جزر عديدة ، تتبع الدانمارك تعد ٢١ جزيرة يسكن ١٧ منها بضعة آلاف من الناس ، وصل تعدادهم عام ١٩٧٣ حوالي الأربعين ألفا ، يعيشون على صيد السمك ، وصناعتهم هي حفظ مايفيض منه بالتجفيف والتدخين والتجميد بغرض تصديره ، ومع هذا فقد أطلقوا عليها اسم جزر الغنم ، بالرغم من وقوعها في شمال المحيط الأطلسي في منطقة باردة بين جزيرتي «أيسلنده» وجزيرة «وستلنده» (أي أرض الثلج والأرض الغربية) ، والغنم لا يستطيب العيش في أرض الثلج ولا يتأقلم معها .

على أية حال فالأمر الذي يهمنا هو أن جزر «فارو» هذه في تقدير أهل الطبابة ، هي جزر عذراء بالنسبة للحَصْبَة التي لم يألفها السكان هناك ، لذلك كان أهلها تعوزهم المناعة ضدها ، وأي عدوى تصلهم تعم الجميع صغارا كانوا أم كبارا ، وهذا ماحطم القناعة الخاطئة بأن الحَصْبَة هي مرض الصغار وهي قصر عليهم .

وقد شرح الدكتور «بانام» مرض الحصبة بأنه مرض معد ، ينتقل مباشرة من

مصاب إلى آخر ، وإن فترة الحضانة التي تكون مابين الإصابة وظهور الأعراض هي أربعة عشريوماً ، وإن زيادة نسبة الوفيات من المرض كانت بين الأطفال لمن في عمر أقل من عام واحد ، ومن الكبار أيضا لمن هم أكبر من خمسين سنة ، وأشار إلى فائدة عزل المرضى ، وإلى أن المناعة في الإنسان بعد الإصابة تمكث مدة طويلة .

جرت التجربة ذاتها عام ١٨٧٥ في جزر «فيجي» التي تقع في جنوب غرب المحيط الهادي (الباسيفيكي) ، والتي تعد ٣٢٠ جزيرة صغيرة ، منها مائة فقط مأهولة بالبشر الذين يعدون نصف مليون إنسان تقريبا ، حينما جاءتهم الحصبة فقتلت منهم عشرين ألفا من مجموع عدد سكان الجزر الذين أصيبوا بها .

لقد كانت جزر «فيجي» التي كشفها رحالة اسمه «تاسمان Tasman» عام ١٦٤٣ مستعمرة بريطانية ،عاصمتها «سوفا Sova» تصنف عند أهل علم الأوبئة على أنها جزر عذراء بالنسبة لمرض الحَصْبة .

بينما ذكر «هيرش Hirshc» سنة ١٨٨٣ أن أكثر من ٢٠٪ من السكان قد ماتوا بمرض الحَصْبة ، وفي منتصف القرن الثامن عشر ظهرت على الأطفال المصابين بالحصبة مضاعفات حادة في «أدنبرة» خصوصاً من الإلتهاب الرئوي .

وقد قام أحد الأطباء الأسكتلنديين اسمه «فرنسيس هوم» Francis Home بتجربة للتحصين ضد الحصبة ، وذلك بتشريط الجلد ، ومسحه بدماء من إنسان مصاب بالحصبة بعد ظهور الطفح عليه مباشرة ، وقد جرب هذا على اثنى عشر طفلا فظهرت أعراض المرض الخفيفة على عشره منهم ، وفي عام ١٩٠٦ نجح «هيكتون Hektoen» في إصابة عدد من المتطوعين بالحصبة بعد حقنهم بدم من أشخاص مصابين في الدور الحاد من المرض .

هذه التجارب لم تقتصر على أهل القرن التاسع عشر ، بل قد رصدت الأوساط المعنية بالأوبئة حدوث وباء للحصبة عام ١٩٥٢ بين سكان جزيرة «جرينلاند» (الأرض الخضراء) الدنماركية ، عقب هبوط مريض بالحصبة قادم من الدانمارك ، شارك في إحدى الحفلات الراقصة هناك فنقل عدواه إلى ٤٠٠٠ شخص أصيبوا بها مات منهم ٧٣ .

لقد كانت جزيرة جرينلاند Green land التي لا يعبر اسمها عن واقعها ، فهي أرض بيضاء يغطيها الجليد طوال العام ، فكان أحرى بهم أن يسموها «وايت لاند» White Land ولكنهم خدعوا الناس بوهم الخضرة ليرغبوهم فيها .

على أي الأحوال فقد بقيت الجزيرة عذراء بمفهوم مرض الحصبة حوالي عشرة قرون من الزمان حتى داهمها المرض عام ١٩٥٢ (اكتشاف الجزيرة كان عام ٩٨٢ على يد البحار البلجيكي أريك الأحمر) .



جزيرة تريستان دي كونيا

تجربة أخرى سجلتها الأوساط الطبية عام ١٩٥٩ في جزر نائية ، يدعونها «تريستان دي كونيا» التي سميت باسم مكتشفها البرتغالي تريستان دي كونيا Trestan De Cunhaعام ١٥٠٦ ، وتقع في أقصى جنوب المحيط الاطلسي في منتصف المسافة تقريبا بين جنوب إفريقيا وقارة أميركا الجنوبية .

وكان أن جاء الجزر المهجورة في عام ١٨١٠ رجل اسمه «ساكز توماس كوري» ثم توافد الناس من بعده حتى وصل التعداد عام ١٩٥٩ حوالي ٢٥٠ تقريبا ، لهذا لا عجب إذا أصيب كل سكان الجزر ، ماعدا أربعة منهم فقط ، إثر هبوط بحار مريض بالحصبة على ساحلها وقد عانى منها الصغير والكبير ، بما فيهم رجل وصل

عمره إلى ٨٧ سنة في ذلك الوقت ! .

وكثيرة هي موجات أوبئة الحصبة التي لا حيلة لنا في أن نرصدها جميعا ، فقد شاعت أثناء الحرب الأهلية الأميركية بعد منتصف القرن التاسع عشر (١٨٦١ - ١٨٦٥) فمات بها خمسة آلاف من ٧٥ ألفا ، أصيبوا بها كما شاعت أثناء حرب «البوير» في جنوب إفريقيا ، في مطلع هذا القرن (١٩٠١) .

بل وامتدت فأصابت عمال مناجم الذهب في جنوب إفريقيا ، فكانت تصيب في كل عام مابين ألف وألفين من البشر .

وهكذا دارت ساقية المرض ، يستقي منها الكبير والصغير دون أن يعرفوا للداء سببا ، حتى كان عام ١٩٣٨ حين نجح طبيب أميركي في زرع فيروس الحصبة والتحقق من مواصفاته .

غير أن جهود من سبقوه تستحق أن ترصد أيضا ، ولكن لا مجال لحصرها لكن واحدا منهم لايجوز لأحد أن يغفله ، لأن بصماته قد تركها واضحة المعالم في كتب الطب ، هو طبيب أطفال أميركي اسمه «هنري كوبليك Henry Koplic» إذ وصف عام ١٨٩٦ علامة مميزة للحصبة ، سميت باسمه «بقع كوبليك» تكشف الحصبة في مراحلها الأولى التوعكية عند بدء الإصابة والمعاناة ، وتكون على هيئة بقع بيضاء تتحول إلى نقط حمراء على الغشاء المخاطي المبطن لجانب الفم .

وقد كان للنجاح الكبير للعالم «إندرز Enders» عام ١٩٥٤ بتمرير فيروس الحصبة ، ونموه على الخلايا في الأنابيب ودراسة التغيرات الباثولوجية في الخلايا ، أكبر الأثر في إنتاج لقاح الحصبة ، باستعمال السلالات الحية المروضة منذ عام ١٩٦٢ .

ولقد بقيت قناعة الناس عن ضرورة الحصبة المعتادة ، ووداعة الحصبة الألمانية سائدة حتى كان عام ١٩٤١ ، حين لاحظ طبيب عيون استرالي من مدينة «سيدني» يدعي «جريج Gregg» تواتر معاناة أطفال مولودين حديثا من إصابات عدسة عيونهم بابيضاض ناتج عن سحابة بيضاء تعتري العدسة ، سببت لهم العمى إضافة إلى اشكالات أخرى من التعوق كإصابة الأذن بالصمم ، أو إصابة

القلب بالعيوب الخلقية . . وهكذا .


أحد ضحايا الحصبة الألمانية

لقد عد الدكتور «جريج» من هؤلاء ٧٨ طفلا ، كان فيهم ١٣ أصمّ . وعانى الباقون من العمي . ولما تقصي الأمر وجد أن ٦٨ إما من أمهاتهم ،أصيبت بالحصبة الألمانية التي شاعت في السنة السابقة وماقبلها خلال الحرب العالمية الثانية ، لهذا ربط بين تشوهات الأطفال التي كانت فيما مضى تسجل على أنها تشوهات خلقية قدرية ، وبين إصابة الأم الحامل بالحصبة الألمانية .

وقد تأكد حدس الدكتور «جريج» بعد أن ثبت أن إصابة الأم خلال المائة يوم الأولي من حملها يحمل معه احتمالات التشوه للأجنة ، إذ قد ينتقل إليهم الفيروس ويستعمر خلايا أجسامهم ويصيبهم ، باحتمال قدّروه بطفل واحد بين كل ألف ولادة . لهذا لا عجب إذ أعلنت الدوائر الصحية الأميركية عن ولادة عشرين ألف طفل مشوه عام ١٩٦٤ ، بل وولادة عدد مماثل من الأطفال الموتى .



وكان آخر الأوبئة الكبيرة للحصبة الألمانية والذي سبب مضاعافات خطيرة سنة ١٩٦٤ في الولايات المتحدة ، حيث أصيب ٢٠,٠٠٠ جنين قبل الولادة بين الأمهات المصابات بالمرض .

إلا أنه بعد استعمال اللقاح في أمريكا بعد عام ١٩٦٩ قلت الإصابات بالحصبة الألمانية كثيراً .

على أن إصابة الأم ليست قدرا محتما

كما نتوهم لأصابة الطفل بالتشوه ، بل هو احتمال يقدرونه بواحد بين كل ٢٥٠ مولود لأمهات مريضات . وتفاديا لهذا الاحتمال الخطير يطّعمون البنات قبل الزواج وهن في سن تسبق الثانية عشرة بطُعم الحصبه الألمانية ، وهو مصل يعدونه من فيروسات حية مروضة ، يعطي الأم مناعة ضد المرض ، حتى لا يقع طفلها تحت خطر احتمال إصابتها وهي حامل .وعليه فتطعيم البنت أو الأم قبل أن تحمل فيه وقاية لجنينها ، وليس الغرض منه وقايتها هي كما يتوهم بعض الناس ، على عكس ماهو عليه تطعيم الحصبة المعتادة بالطعم الحي المروض في نهاية العام الأول من عمر الطفل ، فإن في ذلك وقاية له بعدأن استنفد جسمه الأجسام المضادة للحصبة التي كان قد اكتسبها من أمه أثناء الحمل والتي سبقت لها الإصابة به . فالحصبة من الأمراض التي تعطي الإصابة بها مناعة أبدية .

وهكذا فالطعم الحي الذي ابتدعوه للحصبة ماهو إلا مرض مصطنع ، يصيبون به الطفل بفيروس قد روضوه ، وأمنوا شره ، فهو يمنح المناعة ، ولا يُمْرض ، وعليه تكون بعض المعاناة للطفل عقب تطعيمه بالتوعك والحمى الخفيفة ، بما لا خطر منه فهو شبه مرض وما هو بمرض .

الفصل الخامس عشر

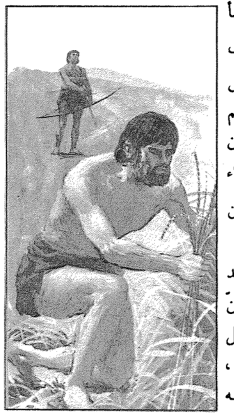
الأسقربــوط

الأسقربوط SCURVY

داء الحفـــــر

توارى هذا المرض اليوم بين قائمة الأمراض وهان أمره ، ولكن من الممكن أن يعود إلى فوعته الأولى في كل لحظة ، لأنه نتيجة خلل في التغذية ، ونقص في حاجة من حاجات الجسد ، إذا ما ضاقت سبل العيش على الإنسان وحصوله على طعام طازج .

أن اسم الأسقربوط هو التحوير العربي أو هو الترجمة الحرفية لاسم سكيرفي Scurvy فى اللغة الإنجليزية . إنه مرض ينشأ من عوز الجسم إلى فيتامين (ج) المسمى علميا حامض الاسكوريك أو حامض الليمونيك غير أن الاسم العربي الذي لم يثبت أقدامه سواء بين العامة أو بين المتخصصين ،هو اسم داء الحفر أو اسم داء البشع فالأذن لم تألف سماعهما بالرغم من صدق دلالتهما .



على أي حال فإن إدعاء أحدهم بتحديد موعد لميلاد مرض ماهو في الحقيقة إلا تجنّ على الواقع ،لأن الأمراض مثلها مثل الطفل اللقيط لا أحد يعرف عنه متى ولد ولا أين ، وإنما كان أحق بأن يقال : تاريخ معرفتنا به وتحديدنا لاسمه ومواصفاته وأسبابه .

ولعل المنطق السليم أن لايكون لمرض الأسقربوط وجود عند إنسان الغابة

الأول ، وهو الذي كان يقتات على ماتنبت الأرض من نبات وثمار طازجة ، أو من حيوان فيها شارد يصطاده ويلتهمه في حينه ، لهذا كانت أمراض النقص الغذائي غير محتملة الحدوث في ذلك الزمان .

ربما كان الحال هو نفسه أيضا عند الانسان المزارع الذي يقتات على ماتنبت الأرض أو يزرع هو بيديه .

ولكن المحتمل أن نقص الطعام قد أدى بالتالي إلى أمراض نقص الغذاء ، وهو الأمر الذي يقبله العقل ،ويتجانس مع المنطق السليم ، وهذه صورة قد نلقاها في أحوال المجاعات أو أحوال الحرمان من الطعام ، أو عند التغذي بالأغذية المجففة .

على أن الأسقربوط بدأ يحتل حيزا من كتب الطب ، وصار يشغل بال الأطباء والرحالة مع بداية الرحلات الطويلة بحرية كانت أو برية ، وهي التي دعت إليها أسفار الأوروبين (الفرنجة) في الحروب الصليبية ، التي ظلت تتغذى قرنين بالجند من أوروبا ، وحاجة التجارة مع الهند شرقا ، ومع العالم الجديد غربا ، بعد كشف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند في أواخر القرن الخامس عشر ! مما صار اعتماد البحارة ومعهم التجار أيضا على الطعام المحفوظ ، بسبب صعوبة حصولهم على الفواكة والخضروات الطازجة ، خلال رحلاتهم في زمن لم يكن للإنسان علم بحاجة الجسم إلى الأملاح المعدنية ، كما لم يكن لديه إدراك بعناصر غذائية مما نطلق عليها اسم فيتامينات في يومنا هذا .

في القرن الخامس عشر كانت رحلات التجار الطليان من أهل «جنوا والبندقية» إلى أرض الهند والصين قد بلغت ذروتها ، وفي منتصف القرن نفسه وبالتحديد عام ١٤٥٣ سقطت «القسطنطينية» بيد الأتراك ،لهذا يصبح مقبولا ما نادى به بعض الناس من تحديد ولادة مرض الأسقربوط مجازا مع سقوط «القسطنطينية» .

غير أن دعوى أخرى لم نتبين حدود الصحة فيها من حدود الخطأ ، ذكرها المؤرخ «جوانفيل» ، وهي أن مرض الأسقربوط شاع وانتشر بين جنود الملك الفرنسي «لويس التاسع» ، صاحب الغزوة الصليبية السابعة على مصر عام١٢٤٨

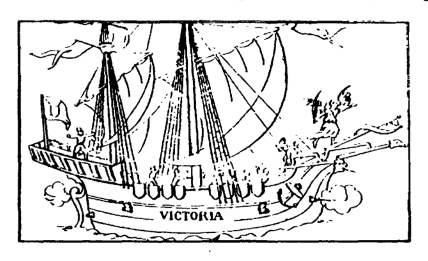
ودمر هذا الجيش ! . . . ربما !!! .

غير أنه من المؤكد أن «كريستوفر كولمبس» الذي أقلع على ظهر ثلاث سفن ،هي «سانتا ماريا ونيتا وبنتا» متجها نحو العالم الجديد في عام ١٤٩١ ووصوله عام ١٤٩٢ قد عانى بحارته ولاشك من مرض الأسقربوط ، بسبب طول الرحلة في ذلك الوقت ، مع عدم توفر الخضراوات و الفواكه الطازجة ، لدرجة إنه اضطر أن يترك بعضا من بحارته المرضى على أرض إحدى الجزر الصغيرة المجهولة في المحيط الأطلسي ، بعد أن بلغ منهم الإعياء والإرهاق مبلغا لا يستطيعون معه الاستمرار في رحلتهم ، ولكونهم أصيبوا بمرض توهموا معه أنهم لا محالة هالكون .

وعندما عاد «كولومبس» من القارة الجديدة ، خطر له وهو في طريق عودته أن يمر على الجزيرة التي ترك عليها بحارته ، ليزور قبورهم ويضع عليها أكليلا من الزهور تحية ، فإذا به يلقاهم هناك وهم أصحاء معافين ، لدرجة إنه أطلق على الجزيرة اسما برتغاليا هو «كيرا كاو» ومعناها جزيرة الشفاء قناعة منه أن الجزيرة بها سر يشفي من المرض ، ولم يكن هذا السر سوى الخضروات والفواكه الطازجة التي تزخر بها الجزيرة ، وماتحويه من فيتامين (ج) كانوا هم بحاجة إليه ، لهذا كان مرضهم هو الأسقربوط (داء الحَفَر) الذي لم يكونوا يعرفون عنه شيئا ولا يعرفون له سببا .

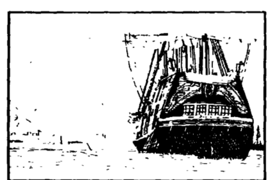
ولعل الملاح البرتغالي «فاسكودي جاما» كان أول الأوروبيين الذين وصلوا إلى الهند بحرا ، ولاشك أن رحلته التي قضاها على سطح البحر فيما بين ١٤٩٧ إلى ١٤٩٩ كانت خالية من أي طعام طازج ، فقد كان جل اعتمادهم على اللحم المملح ، ومايصطادونه من أسماك البحر .

لهذا لاندهش لو علمنا أنه أبحر ومعه ١٦٠ بحارا ووصل إلى الهند ومعه ستون فقط ، بعد أن فقد مائة من رجاله على الطريق صرعى الاسقربوط .



ومن الأمثلة التي تضرب للتدليل علي بطولة رحلات البحر ، وصبر البحارة على معاناتهم من مرض الأسقربوط ، هو ماصار بالرحالة البرتغالي «ماجلان» الذي حاول الدوران حول الأرض عام ١٥١٩ لقد رحل يرافقه ٢٧٠ ملاحا ، يعتلون سطح خمس سفن ، وسار في البحر غرباً إلى أن قتله بعض أفراد القبائل البدائية في الفلبين عام ١٥٢١ ، ولكن الذين أكملوا الرحلة مع رجالة كان عددهم عندما وصلوا إسبانيا عام ١٥٢٢ أربعة فقط على سطح سفينة واحدة ، لأن الاسقربوط قد قتل البقية منهم .

إنهم يقارنون بين رحلة «ماجلان» البرتغالي هذا حول العالم في مطلع القرن السادس عشر مع رحلة «جيمس كوك» في القرن الثامن عشر ، عقب اكتشاف سر الليمون الحامض في شفاء مرض الأسقربوط على يد الطبيب الإنجليزي «لند» ،



لقد طاف «كوك» فيما بين ١٧٦٨ إلى ١٧٧١ حول العالم ، ولم يفقد بحارا واحدا من رجالة ، كما لم يمرض أي منهم بالأسقربوط .

ولـولا أنـهـم قـتـلـوه فـي عـام ١٧٧٩ فـي جـزر «هـاواي» لأكـمـل الـرحـلـة سـالمـا غـانمـا ،وعـاد إلـى بـلـده ولـم يـصـبـه أي سـوء .

الغريب إن الأسقربوط كان يشيع بين البحارة بأكثر مما يشيع بين ضباط السفن ، وقد اجتهد الكثيرون في تعليل هذه الظاهرة الغريبة ، وكانوا يسمونه بالفعل مرض البحارة . فبعضهم قال بتأثير الرطوبة والبرد مما يتعرض له البحارة أكثر مما يتعرض له ضباطهم .

وبعضهم علل المرض بالقذارة والزحام وقال : إن هناك مواد سامة تتولد فتتلف الأجسام وتمرضها .

غير أنه مما يروي أن قبيلة من الهنود الحمر من سكان «كندا» كانت تستعمل علاجا سحريا هو عبارة عن حساء أغصان الشجر الأخضر وأشواكه ، كتب عنه بحار فرنسي هو الذي اكتشف نهر «سانت لورنس» ١٥٣٥ واسمه «جاك كارتيه» .

هذا البحار حين توقف على رأس الهضبة التي تقوم عليها اليوم مدينة (مونتريال) الكندية ، يتأمل المنظر الرائع ، كان على رأس سفينتين تكتشفان الطريق بين المحيط الاطلسي والمحيط الهادي . لكنه لم يعثر عليه ، وداهمه الشتاء مع السفينتين وتجمد الماء من حولهما . وبقيتا في هذا السجن الثلجي ما بين نوفمبر ١٥٣٥ حتى إبريل سنة ١٥٣٦ ولكن بحارته في نهاية هذه الفترة من السجن لم يكونوا قادرين على عمل شيء ! وكانوا يتساقطون كالثمر الشديد النضج واحدا بعد الآخر . . . مات خمس وعشرون منهم متهالكين بمرض البحارة . مات واحد منهم وعمره ٢٣ سنة فلم يستطيعوا دفنه ،لأن الأرض التي كانوا يقفون

بالسفينتين قربها كانت ماتزال شديدة القسوة ، فتركوه على وجه الأرض ونقص عدد طاقم السفينتين بشكل ذريع لقد كتب «كارتيه» هذا مذكراته فقال : «إن هذا المرض المجهول الذي نحن بصدده بدأ ينتشر بيننا بصورة غريبة لم ترها عين إنسان ، ولم تسمعها أذن أحد لدرجة أن بعضهم فقدوا قواهم ، ولم يستطيعوا أن يقفوا على أرجلهم المتورمة ، وقد تقلصت عضلاتهم ، وانتشر على جلود سيقان بعض منهم بقع دموية ، زحفت إلى الأعلى حتى ركبهم ، وغطت أفخاذهم وأكتافهم ورقابهم ، والأفواه كانت رائحتها كريهة ، وتقيحت اللثة وتساقط لحمها ، ولم يبق من رجالي المائة وعشرة سوى عشرة أصحاء ، وحتى قيض الله لنا علاجا شافيا . . .» .

حدث مايشبه المعجزة ، أحد الهنود الحمر قدم لنا في أوان من الفخار حساء صنعه من أغصان وقشور وأشواك الصنوبر الشجر الأخضر ، والله لو اجتمع كل أطباء «مونبلييه» ومعهم كل عقاقير الاسكندرية ، لما أفلحوا كما أفلح هذا العقار العجيب في ستة أيام فقط جميع البحارة الباقين استعادوا عافيتهم ، وعادوا إلى نشاطهم السابق في العمل ! . . . هل هي معجزة السماء؟ أم مفعول الدواء . . . العجيب؟ . . .» .

ولعل من أطرف مايروى أيضا قصة السفينة التجارية الهولندية ، التي أقلعت من أسبانيا عام ١٥٦٤ ، وعلى متنها شحنة من البرتقال والليمون تحملها إلى هولندا ، وفي الطريق أصاب الأسقربوط رجال السفينة فعانوا من الهزال والضعف وشعروا بجوع شديد ، فلم يجدوا سوى حمولة السفينة ليهجموا عليها ويلتهموها ، فإذا بالمرض يختفي ، وإذا بالقوة والنشاط يدبان من جديد لأن فيتامين (ج) الذي في شحنة الليمون والبرتقال هو حاجتهم . لقد كان الإسقربوط هو العدو اللدود والوحش الشرس المفترس لبحارة السفن التي نشطت حركتها في العصور الوسطى ، طلبا للتجارة مع الهند ومع العالم الجديد أو ابتغاء اكتشاف أرض جديدة لاستعمارها .

حوالي سنة ١٦١٧ لاحظ طبيب جراح اسمه «وودهول» قيمة الليمون في

الشفاء من الأسقربوط ، ولكن ما العلاقة بين ذلك الدواء الهندي وبين الليمون؟ هل هي المصادفة المحض؟ لقد أصدر طبيب اسمه « فيرنيث » حوالي سنة ١٧٦٠ كتابا حول الأسقربوط ، ولكنه لم يقطع بشيء لا حول طبيعة المرض ولاحول الدواء وبقى المجهول مجهولا .



حتى أتت سنة ١٧٣٤ حين أكد الطبيب الهولندي أن الأسقربوط ينجم عن أكل الخضار والفواكة غير الطازج ، لكن هل حل المشكلة الطبية في الأعماق؟ .

وكان عام ١٧٤٧ حين أقلعت سفينة حربية حول سواحل بريطانيا الجنوبية لاستطلاع أية سفينة معادية لمدة ثلاثةشهور . لم تهاجمهم أية سفينة معادية حقاً ، ولكن الذي هاجمهم كان أخطر من سفن الأعداء ، إذ هاجمهم الأسقربوط وتملك من البحارة .

كان على متن السفينة ضابطها الطبيب الاسكتلندي الصغير ذو الإحدى والثلاثين سنة من العمر ، هو الدكتور«جيمي لند» . لقد بدأ البحارة يتساقطون من أعالي

صواري السفينة ، وكانت أفواههم دامية ، وأجسامهم متقرحة وأعينهم غائرة .

لم يكن هناك أي علاج سوى اليأس الذي كان يدب في قلوب البحارة الثمانمائة وضباطهم ، إلا واحدا فقط كان شجاعا عاقلا متزنا ، هو الدكتور «جيمس لند» الذي كتب في مذكراته :

«في العشرين من مايو ١٧٤٧ فيما كانت السفينة «سالسبوري» تمخر عباب البحر ، أخذت ١٢ مريضا بالأسقربوط تشابهت حالاتهم وأرقدتهم في مكان مناسب من مقدمة السفينة .

لقد تناول الجميع غذاء واحدا مكونا من العصيدة المحلاة بالسكر صباحا ، أما الغذاء فكان حساء لحم الضأن الطازج .

وفيما بين العشاء والغداء كنت أقدم لهم البسكويت المحلى بالسكر .

أما عن العشاء فكان أرزا أو شعيرا مخلوطا بالزبيب .لقد أعطيت رجلين منهم ربع جالون من عصير النعناع كما أعطيت رجلين آخرين ملعقتين من الخل ثلاث مرات يوميا ، ثم أعطيت رجلين غيرهم ثوما ومسطردة ،هذا إلى رجلين آخرين أعطيتهما ربع لتر من ماء البحر .

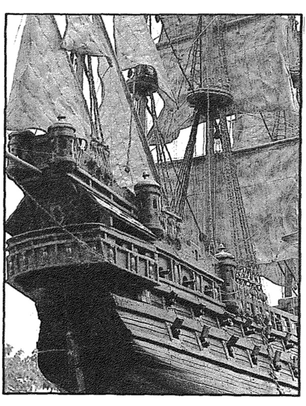
ثم هناك رجلا فقط أعطيتهما برتقالتين وليمونا في كل يوم لمدة ستة أيام حتى نفذت مؤونة السفينة ! .

وكانت المفاجأة لقد شفى الرجلان الأخيران اللذان أخذا البرتقال والليمون ، بل وقاما علي خدمة المرضى الباقين إلى أن وصلنا إلى ميناء «بلايموث» .

لقد دون جميع ملاحظاته بالتفصيل في كتاب سماه «نبذة عن الأسقربوط» ثم استطرد «لند» في مذكراته التي دونها في كتابه عن الأسقربوط فقال معلقا بسخرية :

«لا يمكن للكثيرين من الناس أن يصدقوا أن مرضا مخيفا كهذا المرض يمكن له أن يشفى بهذه السهوله ، وقد كان علينا أن نصنع دواء معقدا ، نضفي عليه الفخامة ، ونلقبه بالإكسير الذهبي المضاد للأسقربوط حتى يصدقنا الناس» ، لقد كان تقليدا في الأسطول البريطاني القديم أن يصرف لكل بحار كأس من الروم

الممزوج بالماء يوميا ،لهذا طلب «لند» إضافة أوقية أو أوقيتين من عصير الليمون لهذا الشراب ، ولكن مجلس رعاية المرضى في الإدميرالية البريطانية رفض الطلب فهو طلب سخيف . . .



ولم يصدق أحد تجربة «لند» الذي اختار كيفما اتفق أدوية ورجال التجربة وحده ، كان «كوك» الرحالة هو الذي عمل بوصية «لند» فخزن عصير الليمون قبل القيام برحلته المشهورة ،لهذا لم يمرض أحد من رجاله أبدا ، وعليه فقد منحته الجمعية الملكية ميدالية ذهبية تقديرا منها لعمله الجيد ، فيما نسيت الدكتور «لند» صاحب الفضل ! . . . نسيت أبا الطب البحري الذي مات مغمورا عام ١٧٩٤ ولم يذكره أحد .

ولكن بعد موته بعام واحد فقط وبالتحديد عام ١٧٩٥ أمر الأسطول البريطاني كل قباطنة سفنة أن يعطوا كافة البحارة جرعة من عصير الليمون في كل يوم .على أن ذلك ظل فترة طويلة من الأسرار الحربية وبخاصة أيام الحروب النابليونية ، وظل الأسطول الفرنسي خلال ذلك يعاني من الأسقربوط فى حين كان الأسطول البريطاني في منجاة منه ، وقد لايكون كذبا أن نقول إن «لند» ساهم بقدر ما أسهم نلسون الإنكليزي في معركة الطرف الأغر وفي نصره ضد الفرنسيين .

الغريب أن رجال الأسطول الأميركي كانوا يسخرون من بحارة الأسطول البريطاني على هذا ،فيلقبونهم بلقب ساخر هو باللهجة المصرية الدارجة (بتوع

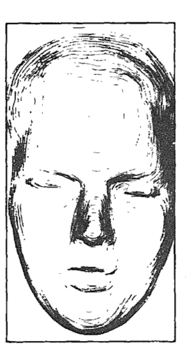
الـلـيـمـون) LIMY أو (هواة الليمون) أو (رجال الـليـمون) استـهـزاء بهـم .
المعركة الآن بدأت لاكتشاف السر الذي في الليمون مما يمنع ويشفي من الاسقربوط . وكان يجب أن ننتظر حوالي القرن ونصف القرن لمعرفة السر ! ! لكن هذا الداء كان قد توارى كثيرا خلال ذلك بسبب مكافحته بعصير الفواكة .
بداية المعركة اقتحمها كيماوي بولندي كان يعمل عام ١٩١٤ بمدينة لندن يسمونه «فونك أدي الي» فتح الباب على مصرعيه ، فأطلق اسم فيتامينات على مواد «أمينية» اعتقد أنها حيوية ولازمة للجسم لاغنى له عنها ، وبدأ بعدها كشف الفيتامينات الواحد بعد الآخر وكان التساؤل هل ينجم الاسقربوط عن نقص واحد أو أكثر من هذه الفيتامينات ؟ .
ثم جاء من بعد ذلك بعشرين عاما عالم أميركي من جامعة «بتسبرج» اسمه «شارلز كينج» ليتمكن من فصل بلورات فيتامين (ج) من كأس بها عصير الليمون . . . لقد كان هذا عام ١٩٣٢ وتوالت الأيام . . . حتى إذا كان عام ١٩٦٠ قدروا ما أنتجته المصانع الأميريكية من فيتامين (ج) بحوالي ٥٠ طنا من هذا الفيتامين فهل تعلم ماذا يعني ٥٠طنا؟ .
إنها تعني محتوى عصير ألف مليون برتقالة (بليون) فكم ياترى إنتاج العالم كله في نهاية القرن العشرين؟ دون شك سيكون الحصول على البرتقال الطازج أو الليمون الطازج أمرا عسيرا لتحقيق الكفاية الطبية من فيتامين (ج) .
لهذا عمدوا إلى تصنيع الفيتامين الذي اكتشفوا تركيبه الكيماوي على أنه حامض «الاسكوربيك» لهذا صنعوه عام ١٩٣٣ .
وكان الفضل في تصنيعه لعالمين كل منهما صنعه على حده ، الأول بولندي صنعه في سويسرا اسمه «تاروس ريكستين» ، والثاني إنجليزي اسمه «ولترنورمان هاورث» وكان أن استأثر الثاني بجائزة نوبل لعام ١٩٣٧ على هذا الفضل !
لاشك أن للسياسة دورها في هذا التحيز لطرف دون آخر ، ولكننا لم نتشيع لهذا أو لذاك ، فالفضل لكليهما لا فضل لإنجليزي على بولندي فهما في الفضل سواء . . . على الإنسانية كلها لقد توارى الأسقربوط عن العالم فلم يعد مرضا رهيبا مادام أمره غذائيا ، غير أن سر شفاء فيتامين (ج) الأسقربوط لم ينكشف رغم كل ذلك إلى اليوم . . ! هل من يهمه معرفة «السر»؟ .

الفصل السادس عشر

الجنــون

الجنـــون MADNESS

الهروب الكبير



من التجني إطلاق كلمة الجنون دون حدود ودونما قيود على أصحاب (الجنون) . فالقواميس الطبية المعتمدة لايدخل ضمن رصيد كلماتها مصطلح الجنون أبدا ، لأنها كلمة هلامية عامية لا يعتد بها الأطباء المختصون ، فالجنون لا يحمل من المعنى سوى شذوذ الإنسان سلوكا أو منطقا عن النهج والعادات التي تسود المجتمع من حوله وخروجه عليها . وهذا أمر نسبي فطالما تباين المنطق بين مختلف الأماكن ومختلف العادات والقيم بين الناس في كل مكان وكل زمان .

لقد كان الفيلسوف «سقراط» مثلا مجنونا في نظر زوجته ، تصب على رأسه الماء لأنه يضيع وقته في أمور تافهة وفي نظر مجتمعه أيضا ، لأنه يضلل عقول الشباب .

ومن مواصفات المجنون أنه لا يعترف بعلته ولايدري بها وإنما المجانين عنده هم من حوله كلهم ، وأولهم الأطباء الذين يقومون على علاجه ! .

في عالم اليوم توارت هذه الكلمة ، ولا تجد لها مكاناً بين التعابير العلمية ، التي يتداولها طبيب اليوم المختص ، الذي استعاض عنها بكلمات أكثر دقة وأكثر تحديدا ، لمعاناة الإنسان من الخلل والاضطراب ، مثل الفصام والاكتئاب وما



إليهمـا ، إنها ناجمـة عـن خلـل في النظام العصبي .

وقد قسموا الأمراض العصبية إلى قسمين الأول : منها : يسمونه الذهان ، وهي العلة التي تنتاب العقل إذا ما رفض القبول بواقعه ، فهو رسم لنفسه واقعاً آخر يرضيه ويسعده ويهرب إليه ، فهو إذن مرض العقل وصاحبه يحمله في طيات الخلايا من عقله منذ خلقه هكذا ، فهو لايدري بشروده واغترابه عن واقعه الحقيقي ليطلب له علاجا ، بل ربما عارض العلاج وقاوم من يتولاه وهرب منه .

أما الثاني منهما : فيسمونه بالعُصَاب ، وهي العلة التي تنتاب النفس التي تتأذى من واقع لا يسعدها ولا يريحها ، فتتصرف على صورة من صور الرفض أو الهروب من هذا الواقع ، وهذه هي مانطلق عليه الأمراض النفسيه التي يشعر بها صاحبها في أغلب الأحوال . وربما طلب لها علاجا . وهو طبيعي في منطقه وسلوكه عادة إلا حينما يواجه تحديا من المجتمع الذي حوله ، فلا يحسن التأقلم والتعامل معه ، لهذا فالأغلب في مثل هذه الأمراض تكون مكتسبة ووليدة ظروف الضغط والقهر ، ويكون أكثر ضحاياها من بين ضعاف البنية العصبية ، أو ممن لم تنضج شخصياتهم بعد ، فلا زالت لينة هشة لم يتصلب عودها .

إن توزيع الأمراض العصبية والعقلية على هذا النحو الشامل ، قد يضع كلمة الجنون تحت مظلة الذهان على الأغلب ، ولكن هذا لايمنع بعض الناس من أن يحشر الجنون ضمن أمراض العصاب ، فالأمر كما قلنا هو تقدير نسبي هلامي يلعب فيه الهوى والنضوج الفكري ، كما تلعب العادات والقيم ، فكل الزعماء والقادة عقلاء جدا في نظر شعوبهم وأنصارهم ، في حين إنهم مجانين في نظر أعدائهم وخصومهم .

وعليه لانظن أن الجنون علي الإطلاق المجازي كان له وجود أو أثر في غير المجتمع

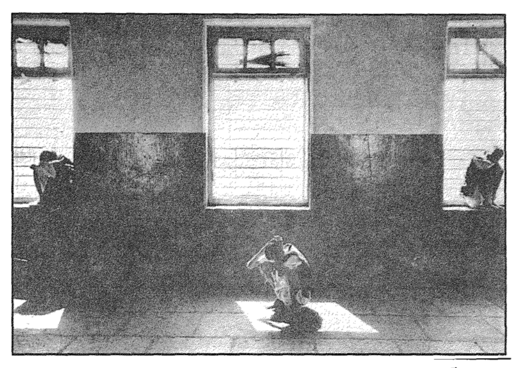
الإنساني وإن كنا أحيانا نسمع عن جنون الكلاب المسعورة ، أو جنون البقر ، فهذه ليست في شيء من جنون الإنسان ، لأنها تذهب إلى مرض عضوي أو إصابة فيروسية أو ميكروبية ، بينما جنون البشر غالبا ما يكون مرضا وظيفيا ، بمعنى أن المخ سليم في تركيبه ولكن الخلل ينتاب سلامة وظيفته وتناسق عمله الذي يعبر عنه بالمنطق والسلوك .

ليس بالهين تحديد مواصفات الجنون ، أو تعريف المجنون عن إنسان الحضارات الأولى ، عندما كان أي خلل في المنطق أو السلوك يعتبر من وحي الشيطان والأرواح الشريرة ، إلا في أحوال معينة ، فقد كانوا يعزونه أحيانا إلى الاتصال بالآلهة ،وصاحبها في هذه الحال إنسان مبارك يسعى الناس إلى التقرب منه وطلب رضاه ، بينما كان العكس إذا ماداخلت القناعة ضمير الناس بأنه وحي شيطاني ، فالعذاب والاضطهاد هو نصيب الضحية ، والهروب منه منجاة من شره .


الأطباء يثقبون الجمجمه لإخراج العفاريت

لقد وجدوا في كثير من بلدان العالم جماجم قديمة مثقوبة ، وأشهرها ما وجدوه في «بيرو» لأن أصحاب هذه الجماجم في تقدير المختصين الذين فحصوها كانوا يشكون من شيء ما في المخ ، قد يكون صداعا مزمنا مثلا ، أو يكون سلوكا شاذا ، ولاشك أنه من فعل الشياطين والأرواح الشريرة التي سكنت داخل جمجمة المريض ، ولاشفاء له إلا بخروجها منه ، فكانت من ذلك عمليات التربنة التي تقوم على أساس إحداث فجوة في الجمجمة تخرج منها تلك الأرواح الشريرة .

وربما كان يفسر الجنون عند بعض أهل الحضارات على أنه من فعل آله الشر عند من كانوا يؤمنون بآلهة للشر وآلهة للخير (كالزارادشيتية المجوسية) ، أو هو من



غضب الآلهه عند من لا يؤمنون بهذا التوزيع الإلهي .

فقد ذهبوا قديما إلى أن آلهة القمر واسمها (لونا) Lunaهي المسؤولة عن هذه المأساة لهذا صار اصطلاح «جنون القمر» ، لأنهم على قناعة بأن فوعة الجنون تزداد في الليالي المقمرة ، وأشدها يكون عندما يصبح القمر بدراً ، ومن اسم «لونا» اللاتيني هذا كان اشتقاق اسم مصحات الأمراض العقلية في اللغة الانجليزية ليونار اسايلوم Lunar asylum ، وهي تعني حرفيا المصحات أو المعتزلات القمرية ، بل إن اسم الجنون في اللغة العلمية الانجليزية هو «مانيا» Mania اشتقاقا من كلمة «مون Moon » تعني القمر .

لم يكونوا فيما مضى يفرقون بين الخلل الوظيفي للمخ والخلل العضوي ، فالإصابة بالصرع مثلا ونوباته المخيفة المتتابعة من صراخ وتشنج وغيبوبة مما يداهم المريض ، كانت تحتسب فيما مضى وتدرج تحت مظلة الأمراض العقلية ، وقد ذهب بعضم إلى أنها مس شيطاني يجب الحذر منه ، فيما ذهب بعض آخر الي أنها اتصال إلهي فصاحبها إذن مبروك يرتجي منه الخير ، لهذا سموه بالمرض المقدس ،

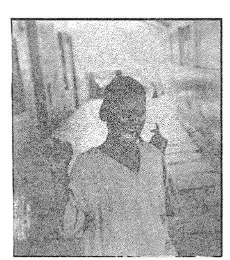
مع إن الصرع على الأغلب هو إصابة عضويه دمرت بعض خلايا المخ فصارت تصدر دفقات قوية من الإشارات العصبية على غيرما هي طبيعتها مما لايفهم له الطب سببا حتي الآن ، وبهذه المناسبة لابد أن نؤكد أن القوى الذهنية لاعلاقة لها بأى مظهر من مظاهر اضطراب العقل العضوي أو الوظيفي ، فليس معتل العقل غبياً كما قد توهموا في الماضي لدرجة أن صنفوا المجانين مع الحيوانات ولكن على هيئة البشر ، لهذا عاملوهم معاملة الحيوانات على أفضل تقدير . وفي أحيان أخرى عذبوهم بأبشع صور التعذيب طردا للعفاريت التي سكنت عقولهم ، وتوطنت أجسامهم ، فكانوا يسجنون زرافات ووحدانا في أماكن مظلمة رطبة ، ويربطون بالسلاسل ، ويجلدون أو يحرقون ، بل قد يفتحون جماجمهم بكل وحشية لإزالة مايسمى بحجر الجنون الذي في رؤوسهم .

وتدليلاً على أن الصرع ليس من قبيل الجنون ولاهو من الغباء في شئ ، يكفينا أن نعلم أن أشهر مرضى الصرع في التاريخ كان منهم الامبراطور الروماني الأشهر «يوليوس قيصر» الذي اعتبروه إماماً من أئمة الحرب ، ومن أشهر قادتها في مامضى من الزمان ! .

بل إن قائمة المصروعين القدامى قد تضم بين دفتيها اسم الفيلسوف «سقراط» ، كما تضم اسم «الاسكندر الأكبر المقدوني» «ذي القرنين» ، ومعهم «نابليون بونابرت» ، والكاتب الروسي المبدع «دوستويفسكي» ، صاحب رواية العبيط الذي صور بطلها ضحية من ضحايا الصرع ، كما نضيف إليهم اسم «قمبيز» ملك الفرس المشهور واسم البطل «هرقل» ، وما من أحد من هؤلاء كان مجنونا ولا كان غبياً عبيطا . . . هكذا قالوا والله أعلم ! .

على أي حال فقد توهم بعض الأقوام أن الصرع هو من فعل الشياطين التي زرعت الخوف في قلوب ضحاياها وفي عقولهم ، لهذا ذهبوا إلى علاج الصرع

على ضوء هذه القناعة - إنهم في روسيا مثلا يعالجون مرض الصرع بما أطلقوا عليه أم ماء الخوف تماما ، كما يعالج بعضنا المرعوب بما نسميه طاسة الرجة أو طاسة الخوف والرعبة ، إذ كانوا يعمدون إلى ملأ زجاجة بالماء ويقرأون عليها أو يعلقونها في عنق امرأة أثناء اللقاء الزوجي ، ويشربها المريض بعد ذلك على دفعات . أو كانوا يضعون جسم ضفدعة ميتة في كيس يعلقونه حجابا حول عنق المريض ، أو قد يعمد آخرون إلى ذيل قط أسود يأخذون منه ثلاث نقاط من الدم يضعها المريض على لقمة من طعامه ، ففي هذا شفاء مضمون يطرد شياطين الخوف علي حد زعمهم ، وعلى كل حال بقى الجنون عند أهل القرون القديمة والوسطى مسا من فعل الشياطين والأرواح الشريرة ، وإن ضحيته حيوان على هيئة إنسان ، وقد ينال من ألوان التعذيب والإهانة والمعاملة القاسية مالا يناله الحيوان نفسه ، لأن بعضهم في القرن الثامن عشر كان يعد هؤلاء المرضى سحره شريرين خطرين يضمرون الشر لمن يلقاهم . وقد ذهب بعض آخر في القرن التاسع عشر إلى أنهم حيوانات خطرة ، لابد من تقييدها تفاديا لشرها وحذرا من إطلاق سراحها .



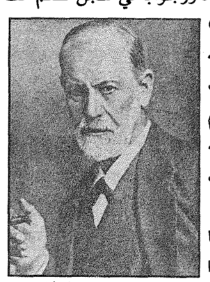
هذا إلى المسهلات الشديدة ، والمقيئات الأشد ، وإلى الكي بالنار ، وتغطيس الرؤوس في أحواض الماء ، والإذلال النفسي المهين يتولاه سجانون جهلاء ، يعانون من السادية (وهو حب تعذيب الغير) دون أية رقابة طبية أبدا .

غير أنه في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، شهد العالم الأوروبي حركة فلسفية جديدة ، تزامنت مع حركات التحرر التي تزعمتها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، وأطلقوا عليها اسم حركة التنوير الفلسفية أو حركة التبصر الفلسفية ، كان من ضمنها اتجاه نفر من



الدكتور فيليب باينيل الفرنسي الذي حرر مرضى العقل من قيودهم عام ١٧٩٣

الأطباء نحو إعادة النظر في الأمراض العقلية ، وظهور المدرسة الجديدة في علوم النفس والأمراض العصبية ، كان رائدها طبيب فرنسي اسمه «فيليب باينيل Phillip Pinel» أصيب صاحب له كان يعمل مع الثورة الفرنسية المتقلبة الأطوار والأمزجة ، فانتابته لوثة في عقله ، قيدوه بعدها وزجوا به في سجن مظلم تحت الأرض ، لقد عز على الدكتور «فيليب باينيل» أن يعامل هؤلاء الناس الذين على حد قناعته مرضى يستحقون العطف والحرية ، فطالب بفك القيودعنهم ، وإطلاق سراحهم عام ١٧٩٣ بالنسبة للرجال ولما حققت قناعته نجاحا ، اتبعها بمطالبة فك قيود النساء المريضات عام ١٧٩٥ .



سيجموند فرويد رائد علم النفس

إذا كان «فيليب باينيل» هذا رائدا في فرنسا فقد سجلت حركة التنوير الفلسفية روادا

آخرين مثل ابراهام جولي Abraham Jolyمن جنيف بسويسرا عام ١٧٨٧ وفنسينزو شياروجيVincenzo Shiarugi من توسكانا بوسط إيطاليا عام ١٧٨٨ حيث فلورنسا بلد الفن والثقافة وبيزا المشهور ، وكذلك من أطلقوا عليه اسم المشعوذ «وليام توك Willaim Tuke »من يورك بانجلترا عام ١٧٩٦ . جميع هؤلاء كانوا روادا في الثورة الطبية في حقل الأمراض العقلية ضمن فلسفة التنوير التي اجتاحت المفاهيم في القرن الثامن عشر والتاسع عشر . ثم أعقبتهم ظهور المدرسة الحديثة في علم النفس ، التي يعدون «سيجموند فرويد» أهم روادها ، وقد بنى نظرياته على أن محور السلوك الإنساني هو الغريزة الجنسية ، وإن الأسطورة الإغريقية التي حكاها الشاعر الإغريقي القديم «سوفوكليس» وهي عقدة أوديب هي أساس المعاناة البشرية عند كل الناس ، وإن كلا منا يحمل داخله شخصية أوديب ومعاناته ويحاول كبتها ، فالأسطورة الإغريقية تروي أن ملك «طيبة» واسمه «لايوس» كانت زوجته «جيوكوستا» حاملا حين تنبأت العرافات لها بأنها سترزق بولد جميل قوي

اسطورد اوديب

حقا ، ولكنه سيقتل أباه ليتبوأ الملك من بعده ، ومن ثم يتزوج أمه دون أن يدري أو يعلم ، لقد حاول الملك أن يأخذ حذره من ابنه الشرير المنكود ، فما أن ولد حتى عمد إلى ربط يديه وقدميه وإلقائه في البرية عند سفح جبل «سيشرون»ليموت أو تأكله الوحوش تفاديا للنبوءة المشؤومه ، غير أن المصادفة شاءت أن يمر مزارع فقير ليحمل الولد المشؤوم الذي أطلق عليه اسم «أوديبوس» وهي تعني باليونانية (ذو القدم المتورمة) حيث تورمت أقدامه بسبب الرباط المشدود عليها ، ثم كان أن نقله إلى ملك «كورينثيه»



اوديب يقتل اباه

الذي تبناه وعاش أوديبوس في كنفه وكأنه ابنه ، وعندما سمع أوديبوس بالنبوءة

هرب من القصر ظنا منه أن ملك كورشيه هو أبوه الحقيقي ، وتستطرد الأسطورة فتقول إنه سار هائما على وجهه حتى اقترب من مدينة طيبة ، فلقي في طريقه وحشا على هيئة ابي الهول يقطع الطريق ويسأل عن الحيوان الذي يمشي صباحا على أربع ، وظهرا على إثنتين ، ومساء على ثلاث ، وكان يرمي من يجهلون الجواب في البحر ومر «أوديب» فقال إنه الإنسان فالقى الوحش بنفسه في البحر ، وانطلق أوديبوس فلقى رجلا مهيبا رفض أن يوسع له الطريق ، فكانت بينهما مشاجرة انتهت بان يقتل أوديبوس ذلك الرجل المهيب الطلعة الذي لم يكن سوى ملك طيبة والد أوديبوس نفسه .

لهذا فقد اعتلى عرش طيبة ، ومن بعدها تزوج زوجة الملك التي هي أمه ولكنه لم يكن يعلم ولاهي تعلم ، وعندما علما فقد قلع أوديبوس عينيه وهام في الطرقات متشردا فيما انتحرت أمه ايضا . . . لقد صدقت النبوءة ! !

إذن !!!! .

هذا موجز الأسطورة التي يرى فيها «سيجموند فرويد» إنها مزروعة في نفوس كل البشر ، وهي التي تتحكم في مصائرهم ، لهذا نجد الولد يحب أمه فيما هو يكره أباه ، والبنت تحب أباها وتكره أمها على حد زعم فرويد وفلسفته .

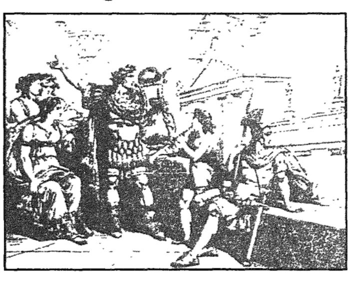
هكذا تطورت فلسفة علم النفس حتى انتهت إلى القناعة بأن الأمراض العقلية ماهي إلا خلل في التراكيب الكيماوية للخلايا العصبية ، وإن ما كانوا يسمونه بالجنون إنما يستحق تحديدا أدق وأكثر عمقا ، فصار في علم طب الأمراض العصبية والنفسية مرض اسمه «الفصام» أو «الشيزوفرينا» وصار مرض اسمه «الاكتئاب» عنوانا للأمراض العقلية ، فيما كان القلق من نصيب الأمراض النفسية وهكذا .

ليس أمرا يسيرا في يومنا هذا تحديد نوعية الأمراض التي عانى منها كثير من الناس في الماضي ، وخاصة إن كثيرا منهم قد وصلوا إلى مواقع ذات أهمية حددت مسار التاريخ السياسي والحضاري للبشرية ، حيث إن تقويم هؤلاء يتطلب منا التعرف على سلوكهم ، والتفهم لطبيعة المجتمع الذي عاشوا فيه قبل الحكم الصحيح عليهم ، غير أن تقديم أمثلة لتكون نموذجا لهذا السلوك الذي لم يتوافق

مع منطق زمانهم قد يعين على هذه الدراسة .

كاليجولا مثلا ، امبراطور روماني حكم ما بين ٣٧ إلى ٤١ ق .م وكان اسمه الحقيقي «جايوس» قيصر «جرامنيكوس» ، أما اسم كاليجولا الذي لقب به في اللاتينية فكان لقبا أطلقه الجنود عليه ، ومعناه الحذاء الصغيرة لأنه كان يرتدي حذاء طويلا عسكريا وهو صغير برفقة عمه في الجيش .

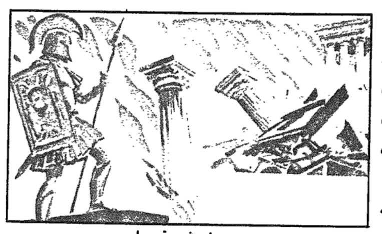
لقد فقد الرجل صوابه بعد مرض شديد على ماقيل ، ولانعلم كنه هذا المرض ، لذلك فقد أتصف فيما بعد بالقسوة والإستبداد كما يروي التاريخ ، ويقال إنه يوما ما أعرب عن أسفه لأن الناس ليس لهم رقبة واحدة حتى يمكنه أن يطيح بها في ضربة واحدة .لقد وصل قمة جنونه حينما عين حصانه عضوا في مجلس السناتو ، ورشحه لتولي القنصلية ، بل كان



يقدم له الشراب في كؤوس من ذهب ،وبنى له قصرا فخما ، لهذا لاعجب أن تآمر الجند عليه وقتلوه عام ٤١ق .م .

نيرون واسمه «كلاديوس» قيصر اعتلى عرش روما فيما بين ٥٤ حتى ٦٨ ق .م ، كان ابنا لامرأة اسمها «اجريبيا» التي تزوجت من الامبراطور «دوميتوس» ، فاقتعته أن يتبنى ابنها من زوجها الأول الامبراطور «كلادويس» ، ومن ثم تولى العرش من بعد «دوميتوس» ، ويقال إنه كان فظا شرساً لدرجة أنه أوعز بدس السم لأخيه ، ثم قتل أمه من بعده ، واتبعها بقتل زوجته «أوكتافيا» ثم كان أن أحرق روما ، وقتل أستاذه الفيلسوف سنيكا .

لقد كان يعتقد أنه شاعر وفنان لدرجة أنه قال ماأعظم الفنان الذي سيخسره العالم بموتي .



نيرون يحرق روما

الحاكم بأمر الله الفاطمي هو سادس الخلفاء الفاطميين بمصر ، تميز عهده بالغموض وغرابة مايروى عنه من الأوامر المتناقضة مرة بعد أخرى ، ومن تدخله حتى في مأكل الناس ونومهم ولباسهم ، اعتلى كرسي الخلافة وعمره ١١ سنة ، وقبل من بعض الدعاة أن يجعلوه ممثلا للذات الإلهية على الأرض . . . ولكنه في بعض زياراته لجبل المقطم ضاع . . . وما من أحد يدري عن مصيره شيئا سنة ٣١١هـ/ ٩٢٣م ، فهو غامض بمثل غموض التفسيرات لأيام حكمه حتى نسبه بعضهم إلى الجنون .

جان دارك هي الفتاة الريفية ذات الثلاث عشرة سنة ، التي إدعت بأن أصوات الرب والقديسين تناديها لإنقاذ فرنسا من أيدي الإنجليز ، وإلى نصرة الملك «شارل السابع» وتنصيبه ملكا على عرش فرنسا .

لقد أحرقتها محاكم التفتيش على أنها مشعوذة تمارس الهرطقة وهي في عمر ١٩ سنة ، ولكن الفرنيسيين نصبوها قديسة عام ١٩١٩ ، غير أن الإنجليز يدعون أنها كانت فتاة مريضة بمرض الشيزوفرينا (الفصام) ، وأن السبب هو إصابتها بالسل البقري الذي أصاب تامور القلب ومساريق الأمعاء وسحايا الدماغ وأدى إلى تكلسها . . . ألم تكن فلاحة !!! لهذا يحترق القلب ولا الأمعاء ولا الدماغ بالنار مما يزعم الفرنسيون إن الله حمى قلبها وأمعائها من فعل النار ، ولهذا كان أن ألقوا بما نجا من بقاياها في نهر السين تبركا وتقديسا .

ألم نقل لك إنها وجهات نظر !!! .

الفصل السابع عشر

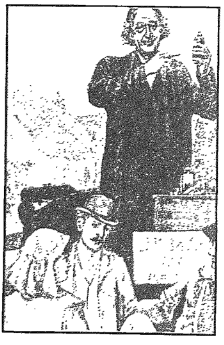
الدجــل

الدجـل QUACKARY

تجارة الوهم

الدجل لغة يعني الكذب كما يعني أيضا تغطية الشئ حتى لا يراه الناس . وقد يذهب إلى معنى طلاء الشئ بماء الذهب ليتوهم الناس ببريقة أنه ثمين .

فالدجال إذن هو صاحب أحد هذه الأمور ، أو هو الذي يمارسها ، وعلى هذا فلابد أن تتوافر للدجل أركان عدة أحدها هو سوء النية والمقصد ، ومنها أيضا جهل الدجال وعدم معرفته بالحقيقة أو إخفاؤها ، كما لابد أن يتوافر في الطرف الآخر المتعامل مع الدجال أسباب السذاجة والأمل الخادع الذي يسعى إليه .



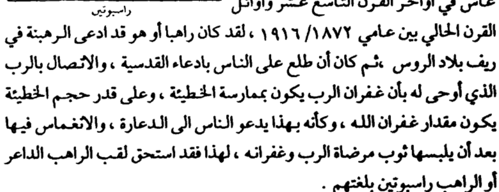
الدجال رجل كل العصور

وإذا كان عالم الإنسان مشحونا بالدجل ويعج بالدجالين في كل زمان ومكان فالطب والطبابة هي موقع مفضل لممارسة الدجل . حيث تضيع القناعة في الأطباء لخطأ صار لأحدهم ، أو لقصور الطبابة عن تلبية مايسعى إليه المريض من شفاء عاجل سريع لمرض قد لا يكون له شفاء ، أو مرض مستعص طويل المدى .

والدجالون أغلبهم يحتالون باسم الدين أو يستغلونه ، موهمين الناس بقدرات خارقة أرادها الله سبحانه وتعالى لهم واختصهم بها دون غيرهم ، وهم في هذا المقام لا حاجة بهم إلى تعليل أو تبرير ، فإرادة الله لا نقاش فيها ولا سؤال ولا جدال فهي فوق كل

إرادة . . إن هذا هو الحق الذي أريد به باطل . . . ففي مثل هؤلاء القوم قال رسول الله ﷺ : «من تطبب ولم يعلم عنه الطب فهو ضامن» رواه أبو داود .

طبيب العصور الخوالي لم يكن دجالا بمفهوم الدجل ، فهو قد لا يعلم علم هذا الزمان لكنه لم يكن سيء النية ولا كذابا على الأقل ، ومثله ساحر القبيلة ، ولكن هؤلاء شجعوا الدجل ومهدوا السبيل للدجالين ليتسلقوا على أكتافهم بحسن نية .



راسبوتين

والتاريخ حافل بأخبار هؤلاء الدجالين ، وكل له قصة ورواية وطريقة ، وربما كان أشهر هؤلاء جميعا وزعيمهم الذي لايبارى هو رجل روسي يدعونه «راسبوتين» ، وهذا ليس هو اسمه الحقيقي ، وإنما هو لقبه في اللغة الروسية الذي يعني «الداعر» ، أما اسمه الحقيق فهو «جريجوري جمفتش» ، عاش في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالي بين عامي ١٨٧٢/ ١٩١٦ ، لقد كان راهبا أو هو قد ادعى الرهبنة في ريف بلاد الروس ،ثم كان أن طلع على الناس بادعاء القدسية ، والاتصال بالرب الذي أوحى له بأن غفران الرب يكون بممارسة الخطيئة ، وعلى قدر حجم الخطيئة يكون مقدار غفران الله ، وكأنه بهذا يدعو الناس الى الدعارة ، والانغماس فيها بعد أن يلبسها ثوب مرضاة الرب وغفرانه ، لهذا فقد استحق لقب الراهب الداعر أو الراهب راسبوتين بلغتهم .

كان ذلك في زمن القيصر «نقولا الثاني» آخر من تولى العرش في عهد القياصرة - الذين أطاحت بهم الثورة البلشفية عام ١٩١٧ بسبب الفقر والجهل والمرض التي شاعت في زمانهم ، فكان أن سعى راسبوتين هذا إلى الدخول إلى

بلاط القيصر الموبوء بالفضائح ، فوجد في مرض ولي العهد «أليكسي الصغير» ذي السنوات الثلاث من العمر ثغرة يتسلل منها إلى البلاط القيصري ، فقد كان الصبي يعاني من مرض يسمونه «الهيموفيليا» وهو يعرف في العربية باسم النزاف ، أو يترجم حرفيا إلى محب الدم ، لأن المريض به ينزف إذا ما جرح دونما توقف ، فدمــه لا يتجلط أبدا ، ومايزال ينــزف المريض إلى أن يموت ولاحيلة لوقف نزيفه .

لقد عجز أطباء ذلك الزمان عن شفاء مرض ولي العهد اليكسى الذي أخذ المرض عن أمه القيصرة «اليكسندرا» وهي حفيدة الملكة «فيكتوريا» ملكة بريطانيا العظمى ، فالمرض تورثه النساء إلى أبنائهن الذكور فقط دون الإناث ، لأن الأنثى تحمل أســباب المرض فقــط ولكنهــا لا تمرض دون الذكور الذين لا يورثونه من بعدهم .

ثم كان أن توقف النزيف عند «اليكسي» على يد «راسبوتين» لسبب أو لآخر ، فدخلت القناعة عقل الإمبراطورة بمعجزات راسبوتين وقدراته ، مما سمح له أن يعيث في الأرض فسادا ودعارة بعدها ، حتى كان من أسباب قيام الثورة الروسية بعد أن مات الدجال بثمانية شهور فقط . . . مات قتلا على يد أمير من الأمراء الروس كان اسمه «يوسوبوف» الذي امتلأ قلبه حقدا عليه ، وكراهية له ، لكثرة ماعاث في الأرض فسادا متسترا بدجله هذا بعد أن ألبسه ثوب الرهبنة .



بائع الوهم . . . الدجال

هذه قصة الدجال الراهب راسبوتين التي ربما كانت من أشهر قصص الدجل في التاريخ ، ولكنها ليست الوحيدة على أية حال ، فشواهد التاريخ تؤكد أن سذاجة الناس وبساطتهم هي التي ترعى الدجل ، وتشجع قيام الدجالين في كل

زمان ،وفي هذا كتب أديب طلياني قديم اسمه «بيتجريللي» في القرون الوسطى قصة عن طبيب بانه حاز درجات عليا من المعرفة والعلم بالطب ، ولكنه كان قليل الحظ على مايقولون ، فعانى ما عاني من شظف العيش بسبب البطالة وعدم إقبال الناس عليه ، فما كان منه إلا أن سلك درب الدجل يمارسه مع الجهلاء من الناس ،فوجد ممن حوله إقبالا منقطع النظير ، وقناعة كبرى ، مما أثارت الحسد والحقد عليه من بقية الأطباء ، فتآمروا عليه وأوقعوه في يد القضاء متهما بالدجل .

ولم يجد الدجال بداً من الدفاع عن نفسه ليثبت للقضاة أنه برئ ، يحمل أعلى الشهادات ، وحائز فيها على أعلى الدرجات ، فنال البراءة من القضاة ، ولكنه في المقابل فقد «الزبائن» الذين انفضوا من حوله ، وعزفوا عنه فالناس ليسوا بحاجة إلى الأطباء ولكنهم بحاجة إلى دجالين ، وعليه يؤكد لنا «بيتجريللي» أن الناس هم الذين يصنعون الدجالين ويشجعون الدجل بسذاجتهم .

لهذا لا غرابة أن نسمع عن أحدهم أنه يشفي عقم النساء بحليب ماعز خلقت مشوهة ، ولا عجب أن تأتينا أخبار عن إحداهن ممن لا تملك من العلم شيئا ، فهي أمية جاهلة وتدعي أن بركة الله قد حلت عليها ، وخصتها بسر شفاء كل الأمراض لتشفى منها الناس بحركات ساذجة مسرحية سواء ما استعصى منها وماخف ، ولهذا كانوا يرحلون إلى هؤلاء الدجالين زرافات ووحدانا مؤكدين في سذاجة مفرطة أنهم وجدوا لقضاياهم المرضية حلا فوريا ، ولم تكن قضاياهم تلك سوى معاناة نفسية ، فاشتروا الأمل الكاذب من بائع الأمل الدجال .

وعلى ذكر بائعي الأمل ظهر في القارة الأميركية منذ سنوات رجل يبيع البطاطين سماها بطانيات الروماتيزم ، وماأقسى آلام الروماتيزم عندما تداهم ضحيتها ، فاسألوا عنها مرضى الروماتيزم فإنهم يحكون عن آلامها عجبا ، ويشكون مر الشكوى ، لهذا لا غرابة أن تروج بضاعة الرجل ، فيبيع منها في يومه الواحد ماينيف على خمسمائة بطانية ، حتي أصبح ثريا بعد فقر في مدة وجيزة .

غير أن الناس قد كشفوا سر دجال البطاطين هذا ، لأنها لم تكن سوى دفايات كهربائية مغلقة بالألحفة ونسيج الصوف ، وهكذا قدموا هذا الرجل للمحاكمة

بتهمة الدجل والنصب والاحتيال ، لأنه كان يبيع البطانية الواحدة باضعاف مضاعفة من ثمنها الحقيقي ، وهو في الواقع لم يكن يبيع دفاية أو بطانية وإنما كان يبيع لهـم الأمـل . . . أمل الشفاء الكاذب من آلام الروماتيزم . . يبيعه لكل مريض ساذج .

رجل آخر طلع على الناس بصرعة أميركية أخرى تؤكد لهم أنه صنع مناظير تعري الناس ، فيراهم الناظر عرايا دون ثياب كما ولدتهم أمهاتهم .

كان هذا يوم أن طلع «رونتجن» الألماني باختراعه للأشعة السينية التي تعرفها الجميع باسم أشعة إكس ، فقد إدعى صاحبنا الدجال أن مناظيره تطلق أشعة سينية تخترق الثياب التي على البدن .



تجارة بضاعة الدجل

ورد عليه دجال أخر في المقابل باختراع لأقمشة لا تخترقها أشعة إكس ، وتحمي لابسها من التعري .

وكان أن أقبل الرجال علي المناظير السحرية فيما أقبلت النساء على الأقمشة

الواقية ، وهكذا تدور نماذج الدجل التي يتشارك في مسؤوليتها البائع والشاري أو الدجال والساذج .

على أية حال فالدجل علي الطريقة الأميركية مكلف ، لا يقدر عليه إلا الأمريكيون الأغنياء ، ولكن الفقراء من سكان جنوب شرق آسيا يكتفون بالتمائم السحرية لعلاج آلام الروماتيزم .

إنها تمائم يعدها لهم دجال يدعي الطب ، وإذا مافتحت تميمة من هذه التمائم فلن تجد فيها سوى بعض روث الحيوانات ، لأنها فى تقديرهم الساذج تشفى من آلام الروماتيزم ، وهم بذلك يتشبهون بالإنجليز الذين يوصيهم الدجال بحمل حبة بطاطس خضراء في جيوبهم تقيهم عذاب الروماتيزم . وللناس فيما يعشقون مذاهب . . وهكـــذا على مايقال تدور ساقيــــة الدجل الي مالا نهاية لتروي الأمل الكاذب .

ومما يجدر بالذكر هنا أن نشير إلى نقابة للدجل الطبي تقوم رسميا في الفلبين ، وقد انتخبوا لها رئيسا عليها يدعي «توني اجوباوا »ويمارس أعضاؤها نوعا من الدجل الطبي يسمونه في عرفهم بالعلاج الروحي أو العلاج بالإيمان ، وهم ليسوا سوى فئة تدعي بأنها تجري جراحات لعلاج كافة الأمراض المستعصية على الطب كافة دون أية حاجة إلى مشارط أو أدوات جراحية ، وما وسيلتهم في هذا إلا أصابعهم السحرية المجردةفقط فهم يفتحون البطون ويشقون الجلد بأصابعهم ولاغير . والغريب أن يؤكد البعض من السذج أنهم شاهدوا أمام أعينهم دماء تسيل ، ولتأكيد هذا في قناعة الناس يبللون قطعة من القطن فيغمسوها في أصباغ حمراء ، ثم يلقون بها فورا في مكان لا تطوله يد خوفا من اكتشاف أمرهم ، لأنهم في الحقيقة يقومون بأعمال بهلوانية مثلهم كمثل الحواة والمهرجين ، وقد حدث أن مهندسا أمريكيا أصيبت زوجته يومابسرطان الثدي ، ولكنهم لم يكتشفوه إلا في مراحله المتأخرة التي لا ينفع معها أي علاج ، لهذا جرى الرجل وراء الأمل الكاذب ورحل إلى الفلبين ينشد «توني أجوباوا» هذا الذي وعد باجراء فوري لعملية تشفي زوجة المهندس المسكين وقد كان . . فما كان منه إلا أن استخرج أنسجة قال عنها



التنويم المغناطيسي

إنها السرطان اللعين ، ثم ألقى بها في وعاء قريب مدعيا إن الزوجة قد شـــفيت ، وإن الأمر قد انتهى وتم إنقــاذ المـــرأة (التي ماتت بعد شهور) فما كان من المهندس الأميركي إلا أن دس يده في الوعاء خفية ، وأخذ ما به إلى أقرب مختبر يطلب تحليلة ومعرفة نوعه ، فإذا به قطع من أمعاء قطة ميته فما كان من المهندس إلا طلب مقاضاة توني اجوباوا في المحكمة التي أصدرت عليه حكما بالسجن والغرامة بتهمة الدجل .

وعلى هذا النمط قامت يوما بدعة سموها المسمرية أو بدعة التنويم المغناطيسي فيما بعد ، والتي ابتدعها طبيب نمساوي سميت باسمه وكان يدعى «فريدرك انطون مسمر» عاش في فيينا في أواخر القرن الثامن عشر ، وادعى أنه يمتلك قوة مغناطيسية خارقة ، يمكن أن يستخدمها في شفاء مرضاه ، بل ويمكنه أن يودع هذه القوة المغناطيسية في الحيوانات والنباتات والحجارة أيضا ، فأقبل الناس عليه أيما إقبال ، بل ومن أطرف مايحكى عنه أنه ادعى أنه أودع هذه القوة المغناطيسية في

شجرة ، فما كان من الناس إلا أن ربطوا أنفسهم بجذعها بوساطة حبل حتى يتصلوا بالقدرات المغناطيسية الموهومة ، ولكن الأيام كشفت بعد ذلك زيف هذا الرجل ودجله ، فانفض الناس من حوله ، فهرب إلى باريس ليمارس دجله هناك ، ولكن الأمر لم يدم طويلا لأن أكاديمية الطب في باريس اتهمته بالدجل والشعوذة معلنة أنه لا يملك من القدرات إلا قدرة الاحتيال ، فهرب مرة أخرى من باريس ولا يدري أحد إلى أين كانت وجهة هذا الرجل الذي ضاع في ظلمة المجهول واختفى .

غير أن المسمرية لم تمت من بعده ولم تضع معه ، فقد امتدت إلى بلدان في أوروبا وأميركا ، واكتسبت لها اسما آخر هو اسم التنويم المغناطيسي الذي لم يترعرع منذ ذلك الحين إلا في العقول الضيقة الساذجة ، ولم ينتشر إلا في حفلات السمر والترفيه ، وأماكن اللهو كصورة من صور الألعاب .

غير أنه لا يمكن أن نمر بالحديث عن الدجل دون أن نأتي على ذكر العقار الذي يصلح أن يكون عنوانا للدجل عبر التاريخ ، ذلك هو العقار الذي عرف عبر ثمانية عشر قرنا من الزمان باسم الترياق ، حتى أصبح علما لكل عقار شاف ، وصار صفة تتصف بها الأدوية السحرية .

قصة الترياق هذا تعود إلى ملك اسمه «ميثريداتوس السادس» كان ملكا على دولة من دول آسيا الصغرى ، تسمى مملكة بونتاس القديمة في القرن الأول قبل الميلادي ، وكان بينها وبين الرومان عداء وكانت بينهما حروب .

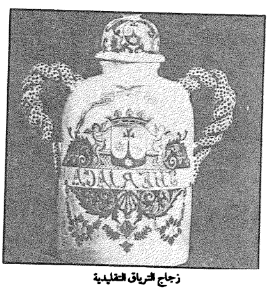


ميترادوتس السادس مخترع الميترودات (الترياق)

كان هذا الملك القوي الذكي يوجس خيفة من غدر أصحابه قبل أعدائه الرومان ، لهذا تفتق ذهنه عن تركيب عقار يقيه الغدر يحوي مزيجا من السموم

المعروفة في زمانه وعددها ٥٤ سما ، يتناول منه جرعات صغيرة في كل يوم حتي يعتاد جسمه هذه السموم ، ويتحصن ضدها ، فسمى العقار ميثردات المضاد للسموم .

الغريب أن شعبه قد ثار عليه بقيادة ابنه ولي العهد «فارتاكوس» ، مما اضطره إلى أن ينتحر بيده ، فيأمر خادمه أن يطعنه بالسيف لأن السموم لا تفيد فهو محصن ضدها ، وماكان من الرومان في عهد امبراطورهم المخبول نيرون إلا أن تلقفوا وصفة الملك ميثريداتوس السادس بعد موته ، فأضاف لها طبيب القيصر المسمى «اندرو ماخوس» من عنده مواد أخرى مثل لحوم الثعابين ،ومسحوق العقارب ، ومحلول الحشرات السامة ، حتي وصل تعداد محتويات العقار إلى ٦٣ سما ، وسماه الترياق أو الثرياكا بلغتهم ، نسبة إلى قصيدة ألفها شاعر قديم يدعى «نيكاندر» تتحدث عن الحيوانات السامة كان اسمها الثرياكا .



زجاج الترياق التقليدية

شاع أمر هذا العقار ، وانتشر وآمن الناس به ، واحتل حيزا في فكر الأطباء في ذلك الزمان ، وصار محور علاجاتهم ودستورا يسيرون على هديه .

ومع الزمان صارت له أصول وقواعد في تركيبه وتعاطيه ، واشتهرت به أكثر ما اشتهرت مدينة البندقية ، حتي إنه سمي في ذلك الزمان بسكر البندقية ، وكان يوضع في قوارير خاصة به لها شكل خاص مميز ، وعلى جانبيها مقابض ثعبانية الشكل .

وصار أهم ما احتوى عليه هذا العقار الذي سمى باسم الثيرياكا ، وقد عربناه نحن في لغتنا العربية إلى اسم الترياق ، وأهم مركباته هو مخدر الأفيون الذي

يسكن كل ألم .

لهذا أقبل عليه الناس أيما إقبال عبر كل الأزمنة والأمكنة ، إلى أن بدأت عقول الناس تتفتح مع إطلالة أنوار العلم الحديث في القرن الثاني عشر ، فكان أن شطب الإنجليز عقار الترياق في عام ١٧٨٨ من دستور أدويتهم ، لعدم قناعتهم به ، ثم لحق بهم الفرنسيون بعد حين ، حيث صدر قرار بإلغائه جاء فيه « بعد أن احتل الترياق مكانا كبيرا وطويلا في عالم العقاقير والأدوية فقد آن له أن يرحل من عالم التاريخ الى عالم الأساطير » .

وصار حال الترياق الذي كان يؤمن به الناس ، وفي قناعة بعضهم إنه العقار السحري لكل مرض ، إلى أن يقول أحدهم فيه إنه قمامة الدكاكين . ! .

الفصل الثامن عشر

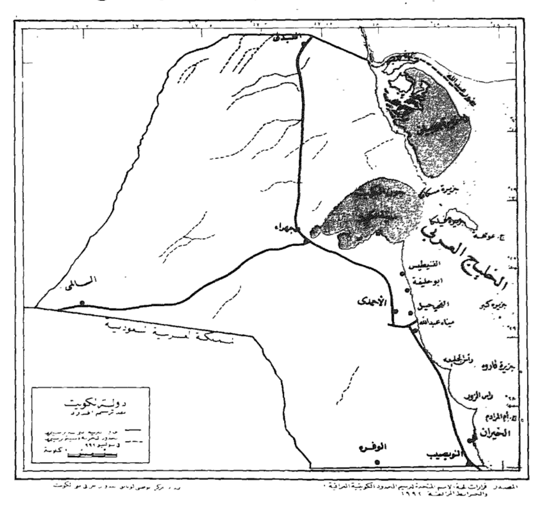
دولة الكويت

أمراض كتبت تاريخها

دولة الكويت

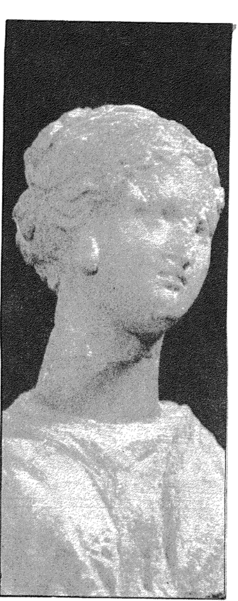
أمراض كتبت تاريخها

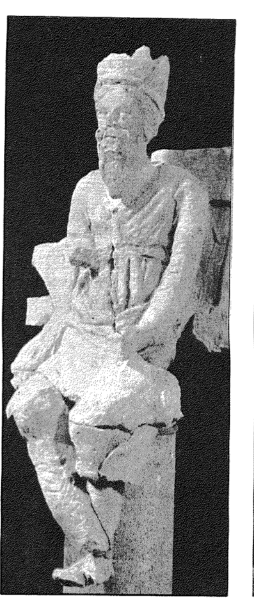
الكويت لها تاريخان الأول منهما هو تاريخ الأرض والثاني هو تاريخ الشعب .



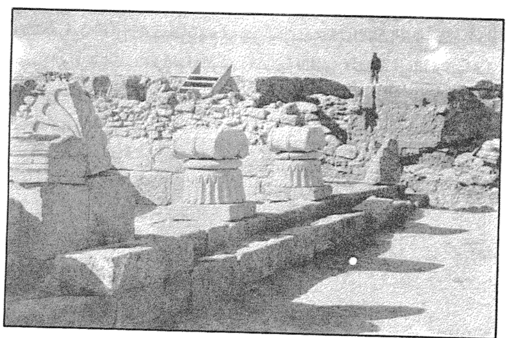
لقد شاء القدر أن تكون أرض الكويت في شمال الخليج على شاطئه الغربي حيث تداعب أمواج الخليج رمال الشاطئ منذ ملايين السنين .

منذ أن كانت أرضا تغطيها الغابات بلا عنوان ، يجول فيها شتى أشكال الحيوان في يوم لم تكن فيه أقطار ولا أمصار يتميز بعضه عن بعضه الآخر .
كان هذا منذ مئات الملايين من السنين حين تداعت الأشجار وطمرها طين الأرض إلى أن صارت إلى صحراء ، وتحولت أشجار الغابات وأجسام حيواناتها إلي ذهب أسود ، لينعم به شعب الكويت في يومنا هذا .





ونام التاريخ طويلا جدا عن الموقع الصحرواي . . حتي جاءت أيام التاريخ ومر



آثار يونانية في جزيرة فيلكا

منها ألفان وثلاثة وأربعة آلاف سنة . . إلى أن عبرت بهذه المنطقة (ولم تكن تسمى بالكويت في ذلك الزمان الغابر) جيوش اليونان .

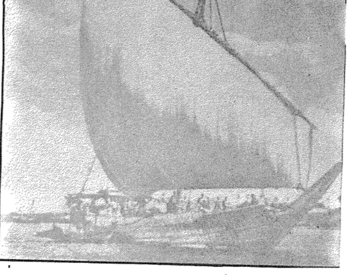
ولعل أثار الاغريق تقول لكل زائر في جزيرة فيلكا أن جيوش الإسكندر قد مرت من هنا ، واستراح عليها جنوده ردحا من الزمان ليس بقصير . كما مربها التجار السومريون والكلدانيون والإغريق وغيرهم فترة طويلة ، وتركوا آثارهم علي أرضها مختلطة بالرمال .

والتاريخ قد يروي لنا بعد فترة من ذلك معركة «ذات السلاسل» بين جيوش المسلمين بقيادة «خالد بن الوليد» وجيوش الفرس بقيادة «هرمز» وهو يقول لنا إن رحى المعركة قد دارت ها هنا في هذا الموقع في يوم خالد ، ولكن اسم الكويت لم يكن قد صيغ لها بعد .

ولربما يحكي لنا أهل الأدب عن شاعر تغنى بالقوافي وكان له شأن يسمونه

«الفرزدق» أقام في منطقة اسمها كاظمة ! .

غير أن أحدا لم يشر عبر التاريخ إلى اسم الكويت ، بل وحتي الرحالة والمستشرقون الذين كانت طريقهم تمر عبر الكويت خلال القرن السابع عشر ، قالوا إنهم زاروا أرضا بعيدة في هذا الموضع اسمها «القرين» نسبة إلى اطلالتها على الخليج على هيئة قرن الحيوان ، ولم تكن القرين التي ذكروها سوى موقع الكويت في هذه الأيام .



(بوم سفار) : مركب الأسفار يفضله أهل الكويت على غيره من المراكب

في هذا الموقع توطن بعض الصيادين الذين اتخذوا من المكان مستوطنة لهم ، يبتغون الرزق والمعاش من بحرها ،إلى أن جاءت قبائل عربية يدعونها «بني خالد» فبنى شيخهم في الموقع حصنا صغيرا له يتخذه مقاما يستريح فيه ومخزنا للطعام . . . كان ذلك عام ١٦٧٧ وأطلقوا عليه اسم «كوت» وهي تسمية إذا ما حرفوها فقالوا لها «كويت» تعبيرا عن الحصن الصغير .



عقب هذا التاريخ بعشرين عاما تقريبا أو ربما تزيد قليلا بالتحديد عام ١٧١٠ ، أقبلت بعض القبائل العربية لتستقر في هذا الموضع ، وكانت قبيلة «الصباح» من أكثرها قوة ومنعة ، وأشدها بأسا ،فما كان من شيخ قبائل «بني خالد» إلا أن

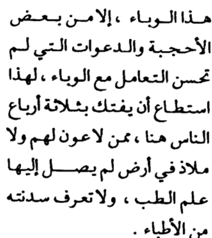
أهداهم الحصن ، واستقطعهم ماحوله من أرض .

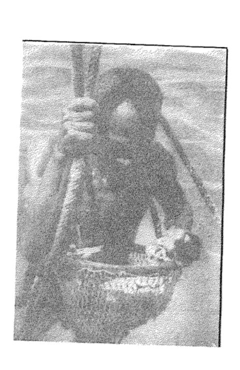
في ذلك الزمان كانت الحياة بدوية ،ومطالب الإنسان بسيطة ومحدودة لا بذخ فيها ولا إسراف ،وكان قوام عمل السكان هو صيد الأسماك والغوص وراء اللؤلؤ وبعض أشكال التجارة البسيطة ، غير أن أسباب العمران اقتضت وجود من يسوس الناس ، ويقوم علي رعاية شؤونهم . . لهذا كان أن اختاروا الشيخ «صباح الأول» شيخ قبيلة «الصباح» عام ١٧٦٦ ليكون رائدهم والقيم على أمورهم وأمروه عليهم .

ويقدرون في ذلك الوقت سكان الكويت بعشرة آلاف نسمة أو حواليها .

وقد سارت الحياة في رتابة طبيعية إلى أن كان عام ١٨٣٠ حين انتشر وباء الطاعون بين الناس ، وأساس الطاعون علي مانعلم هو الفأر ، ورسوله الذي ينقله إلى الانسان هو البرغوث .

ولكن أنى لأناس يعيشون علي الفطرة والبساطة أن يعلموا هذا السر الذي استغرق قرونا من جهد العلماء حتى يعرفوه ، لهذا وقف الناس موقف المتفرج من هذا الوباء ، إلا من بعض الأحجبة والدعوات التي لم تحسن التعامل مع الوباء ، لهذا استطاع أن يفتك بثلاثة أرباع الناس هنا ، ممن لا عون لهم ولا ملاذ في أرض لم يصل إليها علم الطب ، ولا تعرف سدنته من الأطباء .





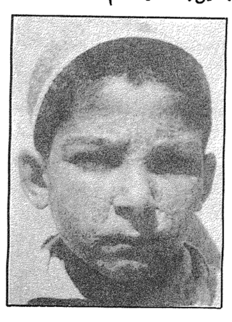
وجاء إلى المنطقة مستشرق رحالة اسمه «ستوكلر» ودوّن في مذكراته أن أهل الكويت كانوا أربعة آلاف فقط ، غير أن بعضهم

عندما قارن بين التقدير الأول لسكان الكويت وهو عشرة آلاف والتقدير الثاني لهم وهو أربعة آلاف ، يعتريه الشك في صحة أحد التقديرين ، لأنه لم يضع في اعتباره وباء الطاعون الذي مر بالكويت وحصد من أهلها ثلاثة أرباعهم .

على أية حال فأهل الكويت حتي زمن قريب ، كانوا يتخذون من عام الطاعون هذا علامة يؤرخون بها الأحداث ، وهم يرمزون إلى عام ١٨٣٠م .

ثم تجاوز الناس محنة الطاعون ، وتكاثروا وتنامى عددهم حتي وصل التعداد السكاني عام ١٨٦٠ إلى حوالي عشرة آلاف نسمة مرة أخرى ، بل لقد وصل إلى عدد ٣٥ألفا في مطلع القرن العشرين فيما بين ١٩٠٠ - ١٩١٠ بسبب تدفق هجرة القبائل العربية التي دفعها عدم الاستقرار السياسي إلى الرحيل ، فقصدت الكويت وحطت رحالها على أرضها حيث أحست بالأمان .

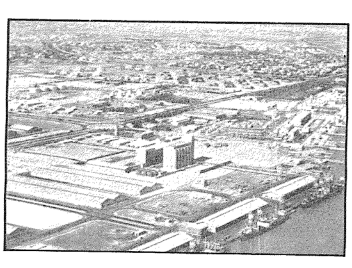
غير أن نهاية الحرب العالمية الأولى وعقبها بقليل بالتحديد عام ١٩١٨ شاعت في العالم أجمع موجة عارمة من وباء الأنفلونزا الشديدة ، التي يبدو أن سببها فصيلة من فيروسات الأنفلونزا لم تتعود عليها أجسام الناس وليس لهم بها خبرة ولم تتحصن أجسامهم ضدها بأجسام مضادة لها ، وعليه فقد حصدت الأنفلونزا الضارية في ذلك العام والذي يليه ٢٠ مليون ضحية في أوروبا وحدها ، ولاشك أن الانفلونزا قد مرت بالكويت ولم تستثن أهلها إذ كانوا يسمونها باسم أنف العنزة ، ولكن أحدا لم يهتم بتعداد ضحاياها هنا ، ولم تترك من بعدها خبرا نستهدي به عما صنعت على أرض الكويت ولا مافعلته بأهلها .



عبر السنوات التي تلت لم يحدثنا التاريخ عن وباء معين محدد ، ولكن كانت هناك دون شك أمراض أخرى تعاملوا معها بقدرية البدوي البسيط الذي كان

محور تعامله مع الأمراض والعلل هو مفهوم القضاء والقدر ، يؤمن بهما إيمانا مطلقا مرددا قوله تعالى «قل لن يصيبنا الا ماكتب الله لنا» .
وكأنه لم يسمع بحديث رسول الله عليه الصلاة والسلام «تداووا ياعباد الله فما خلق الله من داء إلا خلق له دواء» .

على أية حال فالدواء عندهم إذا ماتداووا كانت محاولة الكي والأحجبة والعطارة التي قوامها الأعشاب الشعبية ، وعندما جاءت سنوات الثلاثينات من هذا القرن تحمل معها الضائقة الإقتصادية التي حلت بالعالم أجمع ولم ترحم أحدا لا هنا ولا هناك ،



حملت معها أيضا وباء الجدري عام ١٩٣٢ ، وكان برفقة جموع اللاجئين القادمين من أرض الجزيرة العربية .

لقد حل الوباء في زمن لم تكن تتوفر فيه أية عناية طبية ، ولا وعي طبي يدفع الناس إلى الوقاية بالتطعيم ،لهذا وقفوا منه موقفا سلبيا إن لم يكن موقفا معارضا ، ولهذا أعرضوا عن التطعيم ، ومنه وجد الجدرى فرصته ليقتل سبعة آلاف من سكان الكويت دفعة واحدة ، ومن نجاة الله من الوباء ترك بصماته واضحة على وجهه الذي تبقع أو عينيه التي عميت .

ومن يومها والناس يؤرخون بعام الجدري عام ١٩٣٢ . هناك وباء آخر لم يكن له زمان ولا مكان ، إذ كان يتسلل في زحمة الجهل به ، وإهمال الوقاية منه وسوء

التغذية ، ذلك هو داء السل (أو الدرن) فقد كان مألوفا أن تجد العديد من الناس يلاحقهم السعال المدمم ، وهم يعللونه بنزلة برد ، أو لمسة من هواء بارد ، فما الذي نتوقعه من الناس في زمان لم يكن فيه أجهزة للتشخيص ، ولا أدوية للعلاج ، ولا وسائل للتوعية؟ بل كانوا يستريبون بها ، ويفضلون عليها الاتكال على الله وعلى التقاليد؟

كانت البداية للعلاج والوقاية والوعي الصحي في الكويت غير موجودة قبل ذلك . . وقد وجدت منذ قدمت البعثة الطبية الأميركية إليها بدعوة من شيخها الشيخ المغفور له «أحمد الجابر» عام ١٩١٠ .

وقد أقامت البعثة أول عيادة طبية لها ، لكنها كما هو متوقع لم تجد قبولا من الناس في ذلك الوقت ، وأثروا العلاجات الشعبية من عطارة وأحجبة ووسائل بدائية علىّ هؤلاء الدخلاء في تقديرهم .

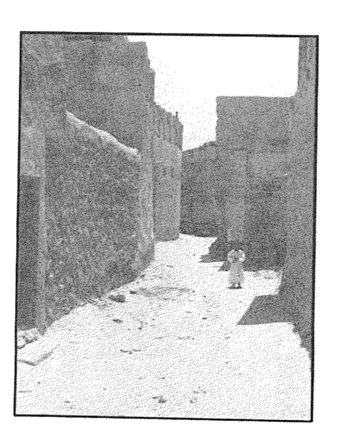
ولكن هذا كله لم يفل في عزائم البعثة أو القائمين عليها ، ولا السلطة الحاكمة في الكويت التي سمحت بإقامة أول مستشفى للبعثة الأميركية بعد ذلك عام ١٩١٣ ، فكان المستشفى الأميركي المعهود ، وكمحاولة لكسب ثقة الناس فقد عمدت الدكتورة «اليانور كافرلي» ، وهي أول ارأة طبيبة في البعثة إلى اتخاذ اسم عربي لها هو «خاتون حليمة» تقربا من نساء الكويت اللواتي ألفنها واحببنها فيما بعد ! .

سار الحال على هذا النحو حتي قامت أول دائرة للصحة في الكويت عام ١٩٣٦ ، وكان باكورة نشاطها هو إنشاء أول مستوصف حكومي في عهد المغفور له الحاكم الشيخ «أحمد الجابر» .

ثم توالت الإنجازات وتلاحقت . . .فكان افتتاح أول عيادة للنساء عام ١٩٤٠ وكان بدء المشروع في بناء المستشفى الأميركي عام ١٩٤١ والذي حالت ظروف

الحرب العالمية الثانية دون إنجازه ، إلى أن افتتحه المغفور له الشيخ «أحمد الجابر» عام ١٩٤٩ ليتسع لمائة سرير .

وكان من الطبيعي أن يتزامن الوعي الصحي والإقبال على الطب الحديث مع انحسار موجات الأوبئة والأمراض التي وجدت علي أرض الكويت لها مرتعا في الماضي حتي أنها قادت عجلة التاريخ ، وسارت بها كما شاءت لاكما شاء الناس ، ثم كان أن وقفت عربة الأوبئة ، وسار التاريخ كما شاء البشر على الدرب الذي رسموه فيما بعد .



المراجـــع العربيـــة

١ - الإبراهيم ، د . حسين علي ،«الكويت : دراسة سياسة» ، (الكويت : مؤسسة دار العلوم ، ١٩٧٩) الطبعة الثانيه .

٢ - ابن أبي اصيبعة ،«طبقات الاطباء » (بيروت : دار الحياة : ١٩٦٥) .

٣ - ابن سينا ، أبو علي ابن عبد الله ، القانون في الطب ، (بيروت : مكتبة صادر) .

٤ - أبو حاكمة ، د . أحمد مصطفى ، «تاريخ الكويت» ، الجزء الثاني - القسم الأول ، (مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٧) .

٥ - أبو حاكمة ، د . أحمد مصطفى ، «تاريخ الكويت» ، الجزء الأول القسم الثاني ،(مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٧٠) .

٦ - ابو حاكمة ، د . أحمد مصطفى ، «تاريخ الكويت» ، القسم الأول ، (مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٧٣) الطبعة الأولى .

٧ - البشر ، أحمد ، «مقالات عن الكويت» ، (الكويت : مكتبة الأمل) .

٨ - ابن جلجل ، «طبقات الأطباء والحكماء» ، (القاهرة : مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية) ، ١٩٥٥ .

٩ - براون ، إدواردح . ، «الطب العربي» ، (القاهرة : مؤسسة سجل العرب ، ١٩٦٦) .

١٠ - برجس ، بيري ، « السائرون وحدهم في الحياة» ، (مصر : دار نهضة مصر ،١٩٦٥) .

١١ - الجوزية ابن قيم ، «الطب النبوي» ، (بيروت : دار الحكمة ، ١٩٥٧) .

١٢ - جوهر ، د . عبد الحميد ، «قصة المرض والميكروب» ، (القاهرة : مكتبة الفكر العربي) .

١٣ - خير الله ، د . أمين أسعد ، « الطب العربي» ، (بيروت : المطبعة الأمريكانية ، ١٩٤٦) .

١٤ - الحاتم ، عبد الله ، «من هنا بدأت الكويت »(دمشق : المطبعة العمومية) .

١٥ - حافظ ، صلاح ، «التاريخ الجنسي للإنسان» ، (القاهرة : مؤسسة روز اليوسف ، ١٩٧١) ، الطبعة الأولى .

١٦ - دالتون ، جون ونيكول هـ . ماك ، «رواد الطب» ، (القاهرة :دار القومية العربية للطباعة) .

١٧- ذي كروف ، د . بول ، «قصة الميكروب» ، (القاهرة : مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٥) .

١٨- الرازي ، أبو بكر ، «الحاوي في الطب» ، (حيدر أباد الهند : مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ،١٩٦٥) .

١٩ - الرشيد ، الشيخ عبد العزيز ، «تاريخ الكويت» ، (بيروت : مكتبة دار الحياة ، ١٩٧١) ، الطبعة الأولى .

٢٠ - زينسر ، هانز ، «التيفوس والتاريخ» ، (القاهرة : الشركة العربية للتوزيع والطباعة والنشر ، ١٩٣٤) .

٢١ - شريف ، د ، يحيي «تاريخ الطب العربي» ، (القاهرة : معهد الدرسات الإسلامية) .

٢٢ - الشطي ، د .شوكت ، «الإسلام والطب » ، (جامعة دمشق ١٩٦٠) ، الطبعة الأولى .

٢٣ - الشطي ، د . شوكت ، «نظرات في الاسلام والطب» ، دمشق .

٢٤ - شين ، كاترين ب ، «رواد الطب» ، (القاهرة : مكتبة النهضة العربية ، ١٩٦٢) .

٢٥ - صابر ، د . عبد العظيم ومنتصر ، د . عبد الحليم ، «موجز تاريخ الصيدلة» ـ الجزء الثاني ،(المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم) ، جامعة الدول العربية .

٢٦ - الفرحاني ، محمد ، «الكويت بين الأمس واليوم» ، دمشق ١٩٥٩ .

٢٧ - فريث ، زهرة ديكسون ، « الكويت كانت منزلي» ، (بيروت : دار الكاتب العربي) الطبعة الأولى .

٢٨ - الفيل ، د . رشيد ، « الجغرافيا التاريخية للكويت» ، (بيروت : دار لبنان ، ١٩٧٢) ، الطبعة الأولى .

٢٩ - الفيل ، د . رشيد ، « سكان الكويت» ، (الكويت : وكالة المطبوعات ، ١٩٦٧) ، الطبعة الثانية .

٣٠ - عبد الحميد ، محمد ، «الفراعنة والطب الحديث» ، (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٧٩) .

٣١ - غليونجي ، د . بول ، «الطب عند قدماء المصريين» ، (القاهرة : دار المعارف ،١٩٥٨) .

٣٢ - غليونجي ، د . بول ، «الحضارة الطبية في مصر القديمة» ، (القاهرة : دار المعارف بمصر ،١٩٦٥) .

٣٣ - غليونجي ، د . بول ، «قطوف في تاريخ الطب» ، (القاهرة : جامعة عين شمس ، ١٩٧٩) .

٣٤ - القرني ، أحمد حسنين ،«قصة الطب عند العرب» ، (القاهرة : الدار القومية للطباعة والنشر) .

٣٥ - قنواتي ، الدكتور الاب ج شحاته ،«تاريخ الصيدلة والعقاقير» ، (القاهرة : دار المعارف ١٩٥٨) .

٣٦ - كارادوفو ، البارون ،«ابن سينا» ، (بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٧٠) .
٣٧ - كافرلي ، اليانور ، «كنت أول طبيبة في الكويت» ،(الكويت : مطبعة المرزوق ،١٩٦٨) ، الطبعة الأولى .
٣٨ - كمال ، حسن ،«الطب المصري القديم» ، (القاهرة : المؤسسة العربية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، ١٩٦٤) .
٣٩ -« المؤتمر العالمي الثاني للطب الإسلامي» ، (الكويت : وزارة الصحة العامة ، ١٩٨٢) .
٤٠ - محمد ، د . محمود الحاج قاسم ،«الموجز لما اضافه العرب في الطب العلوم» ، (بغداد : مطبعة الارشاد ، ١٩٧٤) .
٤١ - «مجموعة أبحاث ومقالات مؤتمر الطب الاسلامي» ، (الكويت : وزارة الصحة العامة والمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ،١٩٨١) .
٤٢ - مراد ، الدكتورة آمنة صبري ،«لمحات في تاريخ الطب القديم» ، (القاهرة : مكتبة النصر الحديثة ،١٩٦٦) .
٤٣ - منظمة الصحة العالمية ،« الناس والطب في الشرق الأوسط» ، (جنيف ،١٩٦٧) .
٤٤ - مونتجمري ، اليزابيث رايدز ،«قصة الاكتشافات الطبية الكبرى» ،(القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩) .
٤٥ - «الموسوعة العربية الميسرة» ، (القاهرة : دار الشعب ، ١٩٨٧) .
٤٦ - هيل ، رالف نادنج ،« قاهرو الحمى الصفراء» ، (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية ،١٩٦٢) .

المراجــع الأجنبيــة

1- Alkman, lonnele, natural healing, National Geographic Society, Washington D.C. 1977 .
2- Antall, Jozef, Pictures from the past of the healing art, Semelweis medical historical museum, Pudapest 1972 .
3- Benden G.A., great moment in medicine, Park Davis, London , 1961, 1 st. Edition .
4- Brokington C.F., A short history of public health, j.A., chirrchill Ltd, London, 1950, 1 st edition .
5- Busvine J.R., Insects, Hygiene and hestory, The Athlone press, London, 1976 .
6- Camp john the helth art Frederick Muler Limited, London , 1978 .
7- Cooke David, kuwait, Miracle on the desert, Grosset and Dunlop, New York U.S.A., 1970 1 st Edition .
8- The Encyclopedia Americana, Americana corporation , NewYork, Chicago , Washington D.C., U.S.A .
9- Garison F.H., Hestory of Medicine , W.B.Scnders Company , 1929, London , 4 th Edition .
10- Garland J.,The story of medicine , Noughton Mifflin Company, New York U.S.A. 1949 1 st Edition .
11- Ghalioungui P.and El-dawakhly Z., Health and Healing in Ancient Egypt, Dar Almaref, 1936 .
12- Ghalioungui paul M.D., Magic and medical science in anciet, Egypt, Boekhandel en antiquariaat NV Amesterdam 1973 .
13- Gilles H.M. and Lulas A.O., ashort textbook of preventive medicine for the tropics, The English universities press, London , 1973 1 st Edition .
14- Glasscheib H.S., The march of medicine, G.P. Putnams, New York, 1964 .
15- Kamal Dr. Hasan, Encyclopedia of Islamic Medicine, General Egyption book organization 1975 .
16- Keen Harry, Triumph of medicine Paul Elek, London 1976.

17- Kennell Frances, Folk Medicine fact and Fiction marshall Cavendish , London and New York , 1976 .
18- Macxy - Rosenau, Preventive medicine and Public health, Appleton Centure crofts 1973 New York U.S.A., 10 th Edition .
19- Margota Robert , The story of Medicine golden press New York U.S.A., 1907 - 1968 .
20 - Oen Newmann Rena, Medicine in art, Lerner Publication Company Minneapolis, U.S.A. 1970 .
21- Rains A.J. Harding, Edward Jenner Priory press Limited London 1974 .
22- Said Hakim Mohammed, Pharmacy and medicine thru the ages, Hamdard Foundation , Pakistan, Karachi 1980 .
23- Schmidt J.E, Medical descoveries, Charles C. Thomas Publisher, Illinois U.S.A., 1959 .
24- W.H.O. , World Helth magazine (Monthly issue) 1965 - 1990 Geneva .
25- Winner H.L., Louis Pasteur, Priory press Limited , London 1974 .

اصدارات مؤسسة الكويت للتقدم العلمى

أنشئت إدارة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٨٢ للمساهمة فى دعم المكتبة العربية بالمراجع المتخصصة والدراسات الجادة والكتابات الهادفة ، إيمانا من مؤسسة الكويت للتقدم العلمي بجدارة اللغة العربية في استيعاب العلوم كافة ، واصالتها فى تبني مختلف الثقافات ، وعراقتها في التعبير عن جل الحضارات .

وانطلاقا من أن نشر الكتاب هو خير طريق لمواكبة التقدم العلمي . ودليلا على هدى أول كلمة نزلت في القرآن الكريم (اقرأ) . تصدر الادارة ثمانية سلاسل من الكتب والموسوعات هي :

- سلسلة الموسوعات العلمية .
- سلسلة الرسائل الجامعية .
- سلسلة الكتب المتخصصة .
- سلسلة الكتب المترجمة .
- سلسلة الثقافة العلمية .
- سلسلة التراث العلمي العربي .
- سلسلة المؤلف الناشىء .
- سلسلة ترجمة أمهات الكتب .

سلسلة الثقافة العلمية

- من أنا
  د . سعدية محمد بهادر
- المواصفات الصحية للأغذية بالكويت (جزئين)
  أ . على أحمد الفرس
- الرضاعة الطبيعية
  إدارة التأليف والترجمة والنشر
- مبادئ الطاقة الشمسية
  د . بشر هاشم
- دليل الآباء والمعلمين فى مواجهة المشاكل اليومية للأطفال
  د . سعدية محمد بهادر
- رعاية الحضين
  د . سعاد حسين
- صحتك بين الغذاء والرياضة
  د . فوزية العوضي
- التغذية وصحة المجتمع
  د . فوزية العوضي
- أبعاد صحية واجتماعية في تغذية الشباب
  د . فوزية العوضي
- الإنسان الآلي
  رؤوف وصفي
- الحاسب الآلي
  رؤوف وصفي
- كوكب الأرض
  رؤوف وصفي
- الأحجار الكريمة
  د . محمد أحمد صبري
- التلفزيون والفيديو
  د . عبد الله الفرا
- العلوم الإسلامية (٣ أجزاء)
  د . أحمد شوقي الفنجري
- أشعة الليزر (جزئين)
  م . محمود داود غنيم
- مذنب هالي
  رؤوف وصفي
- الإسعافات الأولية
  د . عبد الرحمن العوضي
- الكوارث الطبيعية (جزئين)
  د . رشيد حمد الحمد

عزيزي القارئ للحصول على نسخة من أي كتاب من قائمة الكتب

يرجى مراسلة المؤسسة على العنوان التالي

مؤسسة الكويت للتقدم العلمي ـ إدارة التأليف والترجمة والنشر

ص .ب ٢٥٢٦٣ الرمز البريدي ١٣١١٣ الكويت

ت : ٢٤٢٥٨٩٧ - ٢٤٢٦٢٠٧ - فاكس : ٢٤٠٣٨٩٧

